THE LIBRARIES

COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY

معسكر عراقي معاصر

دراسة ونقد: فاضل ثامر وياسين النصير

محمد خضير
فهد الاسدي
غازي العبادي
خضير عبد الامير
موسى كريدي
غانم الدباغ
محمد عبد المجيد
موفق خضر

قصص عراقية معاصرة

جليل القيسي
يوسف الحيدري
جمعة اللامي
محمد كامل عارف
عبد الستار ناصر
أحمد خلف
سركون بولص
عبد الرحمن الربيعي

دراسة
فاضل ثامر
ياسين النصير

ساعدت على نشره وزارة الأعلام

مطبعة دار السلام - بغداد - ١٩٧١

PJ
8046
.Q5

١٥٠٠ نسخة / نيسان ١٩٧١

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد (١١٢) لسنة ١٩٧١

المحتـــويات

ص		
٤	ـ هذه المجموعة القصصية ٠٠ لماذا ؟	فاضل ثامر وياسين النصير
	الدراسات النقدية :	
٥	ـ نظرة على واقع القصة القصيرة فى العراق ـ	ياسين النصير
٢٢	ـ علامات فى طريق تطور القصة العراقية ـ	فاضل ثامر
	الاقاصيص :	
٥٣	ـ الارجوحة ـ	محمد خضير
٦٥	ـ طيور السماء ـ	فهد الاسدي
٧٢	ـ طقوس العائلة ـ	موسى كريدى
٩٠	ـ ورقة الاحتجاج العاشرة ـ	خضير عبدالامير
٩٤	ـ لاعـداء ـ	غازى العبادي
١٠٩	ـ الصـورة ـ	غانم الدباغ
١٢١	ـ نزهة فى شوارع مهجورة ـ	احمد خلف
١٣٠	ـ رجل اسمه شريف نادر ـ	عبدالستار ناصر
١٤٨	ـ الدائرة لا باب لها ـ	عبدالرحمن الربيعى
١٦٣	ـ أهتمامات عراقية ـ	جمعة اللامى
١٧٢	ـ ديوس أكس ماشينا ـ	جليل القيسى
١٨٢	ـ الملجـأ ـ	سركون بولص
١٨٧	ـ الطير الاسود الصغير ـ	محمد كامل عارف
١٩٢	ـ حكايتان عن المدينة (ن) ـ	موفق خضر
٢٠٣	ـ الهجرة فى الايام الموءجلة من زمن السخط ـ	محمد عبدالمجيد
٢١١	ـ العنكبوت ـ	يوسف الحيدرى

لهذه المجموعة القصصية .... لماذا

لقد شعرنا ، خلال دراستنا لواقع الحركة القصصية في أدبنا المعاصر ، بغياب المجاميع القصصية الممثلة لمختلف الاتجاهات السائدة في أدبنا القصصي ، التي تستطيع ان تقدم للقارىء صورة شاملة وواقعية لطبيعة التجارب القصصية السائدة في أدبنا الحديث وخاصة تلك التي ظهرت بعيد ثورة الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨ .

ورغم وجود حاجة ملحة لاصدار مجموعات قصصية مماثلة تتناول مختلف مراحل تطور القصة العراقية القصيرة ، الا اننا وجدنا ضرورة أكبر في تقديم نماذج قصصية من كتابات الادباء الشباب ، وذلك لان أقاصيص هذه المرحلة تتسم بنوع من التشابك والتنوع بسبب الدفق الهائل للمحاولات القصصية التي عكست سلب وايجاب التغيرات الاقتصادية والسياسية والفكرية لهذه المرحلة الهامة من تطورنا التاريخي والفكري .

ونحن بالطبع لانزعم بأن محاولتنا هذه ، محاولة متكاملة ومعصومة من الخطأ ، وأن النماذج التي قدمناها أفضل النماذج ! بل أننا ندرك أن محاولتنا هذه مغامرة نقدية خطيرة ، حيث ان ما قدمته القصة العراقية خلال هذه الفترة لازال محور نقاش وخلاف بين الكتاب والنقاد ، بسبب عدم أستقرار وتوضح الملامح الفكرية والفنية لهذه المحاولات الجديدة ، ولذا فنحن نشعر أن هناك العديد من الاسماء التي لم تدخل ضمن مجموعتنا هذه بسبب ضيق الحيز المتاح لنا ، مما جعلنا نقتصر على بعض الاسماء دون الاخرى .

ونعتقد ان مايشفع لنا هو أننا بذلنا جهدا مخلصا من أجل اخراج هذه الفكرة بأفضل صورة ممكنة . وعسى ان تتاح لنا ، في المستقبل ، فرصة أفضل لتقديم مجاميع ودراسات جديدة نتجاوز فيها بعض الاخطاء التي وقعنا بها في محاولتنا هذه .

بغداد — فاضل ثامر — ياسين النصير

نظرة على واقع القصة القصيرة في العراق

بقلم : ياسين النصير

(لم يعد الصمت ممكنا)

لقد برزت ـ القصة القصيرة ـ في السنوات الخمس الماضية ، كظاهرة ادبية تحظى باهتمام متزايد من قبل النقاد والكتاب على حد سواء فما الذي حدث ؟

في هذه الفترة بالذات تجمعت لدى احصائية بكتاب القصة القصيرة من اصحاب المفردة والمجموعة ، تضمنت اكثر من ثلاثين ومائة قاص . كما خصصت الصحف والمجلات والاذاعة والتلفزيون لهم صفحات وبرامج لنشر ومواكبة القصة وكتابها ، اضافة الى عشرات الندوات والاجتماعات والتعليقات التي بحثت فيها جوانب في تطور القصة فنيا وفكريا . الا يشير مثل هذا الواقع لدى المتتبع تساؤلات معينة ؟

ان الاهتمام المتزايد بكتابة القصة القصيرة ونشرها يعني تزايد الوعي بأهمية هذا اللون من الادب . باعتباره يعكس الوعي الذي يثيره الواقع في القاص .

ان مثل هذا الوعي الاولي بأهمية القصة . يفتح لنا نوافذ جديدة لدراسة مجتمعنا وانساننا . دراسة توءدي في بعض نواحيها ومعالجاتها الى استخلاص سمات وخصائص انسانية للفرد وللمجتمع العراقي خلال هذه الفترة من تاريخنا المعاصر . ولو ان مثل هذه النظرة لاتتم بمعزل عن دراسة متكاملة لكل نشاطات الفرد والمجتمع العراقي ، لان الادب القصصي خاصة يحوي على مادة ليست باليسيرة لمثل هذه الدراسة . فما توفر من قصص قصيرة وطويلة يفي الى درجة كبيرة ويشبع رغبة الدارس لاحوال مجتمعنا وانساننا .

ان القصة التي تتحمل مثل هذه المسوءولية : في عكس صورة الانسان والواقع خلال هذه الفترة بالذات . يتحتم عليها الالتصاق اكثر

بالانسان وبالواقع ، وان تتضمن معالجات هي من صلب تطورات ممكنات الواقع · لذا فمن المستحسن ان نعرف الى اى مدى حاول القاص العراقى الحديث استجلاء مثل هذه الابعاد ؟

ان الاجابة عن هذا السوءال تحتم علينا البحث عن الاسس المادية التاريخية عند جيل الخمسينات ـ كما اصطلح على تسميته ـ من كتاب القصة ، باعتبارهم يمثلون وعيا متقدما بالواقع ، ومن ثم التعريج على بدايات كتاب الستينات في مجال القصة ، وماتمخض عن هذه الاسس عند مرورها باحداث وتبدلات اقتصادية وسياسية بعدئذ ·

كما احب ان انوه هنا باعتبارنا لم ندخل بعد فى شرح تلك الاسس التى اشرنا اليها · ان مانستند عليه فى ذلك يشمل القصة التى تكتب باللغة العربية فقط · مستثنين ماكتب باللغة الكردية والتركمانية لجهلنا اللغة ومنطلقاتها الفكرية اولا · ومانشر حول القصة الكردية او التركمانية بالعربية لايشكل مادة اساسية فى ايضاح تطورها الفنى والفكرى ثانيا ·

وماذا بعد ؟ !

هذه مرحلة قصيرة موجزة ومكثفة مع القصة العراقية خلال ربع قرن او اكثر · توخينا فيها التعريف لا الدراسة ، والتوضيح لا الشرح · فقد نالت من غيرى من النقاد مايكفيها · من امثال الاساتذة الدكتور على جواد الطاهر ، وعبدالجبار عباس ، وفاضل ثامر وشجاع العانى ، وفوزى كريم ·

★ ★ ★

تنفس جيل الخمسينات هواء مشبعا بالاحداث السياسية الحادة · التى برزت على مسرح الواقع تحمل سمات رؤية متكاملة لخلاص الفرد من مشاكله وهمومه والتي اصبحت خلاصا مثاليا لهموم المثقف البرجوازى الذى تعامل معها بكل أدواته الفنية والفكرية دون ان يمد اداته الى جيل الرواد من كتاب القصة ليستعين بما وجد عندهم · فكان القاص الخمسينى عموما ثوريا يتعامل بكل ما يملك ولم يدخر شيئا يتمكن من استخدامه الا وجعله موضع ادانة ونقد للسلطة القائمة · ورغم وضوح اعداء الكاتب طبقيا واجتماعيا وفكريا لذلك لم تستطع سنوات الخمسينات ان تخلق كتابا متشابهين كليا ولا مختلفين بحيث اصبحت المسافة بين الواحد والاخر تميزها بعض الشعارات السياسية او الالتفاتات الشكلية · لان الظروف الموضوعية المتشابهة والمختلفة جزئيا وحدت الى مدى قليل

نوعية رؤيتهم سياسيا وتركت فى المدى البعيد اختلاف اساليبهم ·

ان هذا الجو المتوتر الثورى كان من السهل جدا ان يتعامل القاص معه تعاملا يكفل له الالمام الكامل بجوانبه السلبية والايجابية فقد اغرى الكثيرين من كتاب القصة فاطاح بهم بينما امتثل البعض منهم الى عمق الرؤية التى يصوبها نحو واقعه ليجعلها ملاصقة ومكملة لما يدور فى العالم مازجا فيها ماتعلمه من فنون ادبية كالشعر والرسم · الا انه عموما كانت لضبابية هذه الفترة التربة الصالحة لميلاد القصة العراقية الحديثة التى حملت كل ابعاد الخمسينات سلبا وايجابا · مما تمخض عنها وجود اتجاهات لهذه القصة هى : ـ

١ ـ اتجاه الواقعية التقليدى :

لم تكن الخمسينات مسؤولة عن ميلاد هذا الاتجاه فى القصة بل كانت كتابات ذو النون ايوب ، وجعفر الخليلى ، وانور شاؤول وغيرهم · من كتاب مابين الحربين يمثلون القاعدة التاريخية التى استقى منها كتاب الخمسينات مادتهم ، رغم ان كتابات محمود احمد السيد التى سبقت ذلك تعتبر معينا فكريا وفنيا ، لكن كتاب الخمسينات لم يستفيدوا منه لبعده فنيا عن متطلباتهم الانية · لذلك تعتبر كتابات مابين الحربين هى المعين الاول لميلاد هذا الاتجاه رغم ان الحرب تصنع تيارها ، وان الواقع الذى يجيء بعدها يمتلك مشاريعه الخاصة المغيرة · الا ان قصاصي هذا الاتجاه وهم (ابناء البرجوازية الصغيرة) لم يتفاعلوا مع طبقات الشعب ولا مع نتائج الحرب الاولى سلبا او ايجابا · واصبح لمشاكلهم الخاصة وقضاياهم العامة الدور الاول فى المعالجة فبرزت القصة الواقعية الواعظة والمرشدة والناصحة · حتى ان ممثلى هذا التيار نصبوا انفسهم قضاة يفصلون فى الامور حسب هواهم وحسب ماتمليه مكانتهم الثقافية فسقطوا (فيما يشبه العقم والتخلف بسبب من فهمهم الميكانيكى التبسيطى لمشكلات الحياة والانسان)(١) كما يقول الزميل فاضل ثامر ولو ان كتاب هذا الاتجاه لم يطرحوا مشكلات حياتية وانسانية عامة بحيث يمكن النظر من خلالها لغرض تثبيت رؤية فنية او فكرية · ان ماطرحه ادمون صبرى فى (الخالة عطية وخبز الحكومة) وغيرها يشكل المادة الاساسية لمشكلاته هو وهى مشكلات المثقف ذى الحاجة الماسة لبعض النواقص · التى هى نواقص طبقية · ان مايمكن الحصول عليه من كتاب هذا الاتجاه هو جعلهم الفن القصصى المادة الانتقادية الوحيدة لان ما

---

(١) نقلا عن (اتجاهات الاقصوصة العراقية ـ شجاع العانى مجلة المثقف العربى عدد ٣ السنة الثانية ١٩٧٠ ·

عالجوه (لايرقى الى مستوى طموح ووعى الفرد المعاصر) ولا الى مستوى طموح ووعى المرحلة الزمنية التى يعيشونها من الناحية الفنية ·

ان فنية هذا الاتجاه لم تستمر طويلا بفعل التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التى حدثت فى الخمسينات وهى وان كانت تغيرات شكليه الا انها اعطت مفاهيم جديدة للقاص مستمدة من تراث العالم القصصى ، فتبدلت الروءية الى الواقع وبقيت فنية القصة ضمن طابعها القديم مما اصبح لدينا كتابا امثال خضير عبدالامير وموفق خضر وعبدالمجيد لطفى ويوسف يعقوب حداد يكتبون فى بداياتهم عن هموم معاصرة حديثة ولكن باشكال نقدية سردية قديمة ·وتعتبر مرحلة هذاالتيار منتهية بفعل التطور الذى اعقب هذه الفترة فى معظم العلاقات الاقتصادية والفكرية · مما مهد لظهور اتجاه جديد يقوم على انقاض الاتجاه السابق ويدينه ·

٢ ـ اتجاه الواقعية الحديثة

نشأ هذا الاتجاه مناقضا للاتجاه السابق ورافضا لقيمه الوعظيه والدينية التى ثبتها المثقف البرجوازى باعتبارها تمثل وعيه فى تلك المرحلة ·

ان المدارس الفنية الحديثة ، وتطلعات الكاتب الذاتية اضافة الى التطلعات الثورية النامية فى العراق باحزابه ومنظماتهامدت الكاتب بروءية جديدة لواقعه · كان من اولياتها الوعى الكامل بالمرحلة التى يعيشها وهى مرحلة الصراع بين الانسان المهموم وبين الواقع الذى يضيق عليه الخناق · فكان من جراء ذلك نشوء محاولات البحث عن بطل معاصر طامح وواع · يصارع واقعه ويغيره من خلال شكل واسلوب خاص به من جهة وخاص بنوعية الصراع الجديد المستحدث من جهة اخرى ·

فالبطل هنا لم يستطع الخلاص كليا من ترسبات بطل الواقعية التقليدى · الا انه مناضل وثورى بالمجان · مندفع ومغير فى كل زمان ، يحمل هموم العالم ويشخصها ويعجز عن التشخيص الدقيق لهمومه · لكن الشىء الملاحظ فيه انه لم يكن على غفلة من اندفاعاته ، انه يتحسر المأ عندما لايستطيع التعبير عن ثورته بينما يعبر عن احتجاجات عريضة وواسعة تشمل العالم · ان المرحلة التى عاصرها وسط الخسمينات تتطلب بطلا ثوريا يضع على الرف همومه ومشاكله ، انه البطل المنتمي المتلىء احساسا بالثورة ·

اما الاسلوب ، فقد عاش فيه القاص ترسبات السرد التقليدى · لان الاجواء الفكرية مازالت كما هى تعانى من جمود وسكونية ، لكن

القاص وبفعل اطلاعه على التيارات الفنية الحديثة · اكتشف متأخرا ان ابطاله واحداثه رغم مايعتريها من فهم قديم وسكونية قادرة على خلق ومجاراة الاشكال الحديثة · فالتفتح على تيار الوعى والتداعى عند فرجينيا وولف وجيمس جويس من جهة والاهتمام بالبطل الجماعى والامزجة المختلفة عند تشيخوف من جهة اخرى · ساعد القاص الحديث على تطويع قضايا الواقع الى مجاراة المدارس الحديثة · اما فى داخل محيطه فكان لوجود الحركة الشعرية الجديدة على يد البياتى والسياب ونازك وبلند والتى عمت فكر الشاعر الحديث واسلوبه الاثر الكبير على تطويع قضايا الواقع ايضا · ان قصص فوءاد التكرلى وعبدالملك نورى ، ونزار سليم ، ومن بعدهم نزار عباس تكشف عن فنية رائعة وعن مواقع جديدة للبطل كما نجد قصص مهدى عيسى الصقر ومحمود الظاهر وغائب طعمة فرمان وعبدالمجيد لطفى وغانم الدباغ تهتم بالبطل الشعبى المنتمى اهتماما يليق بثورية المرحلة دون ان يوءثر ذلك على استخدامهم للاشكال الجديدة ولو بدرجات متفاوته ·

ان الكاتب الواقعى هنا حاول الابتعاد عن طرح اجوبة لاسئلة يثيرها الواقع خاصة عند فوءاد التكرلى ، والابتعاد هذا وان كان مبررا فنيا لكنه يجعل من القاص نموذجا متوحد الفهم لمشكلات الانسان بينما اقترب عبدالملك وعيسى الصقر واخرون من الشعب وحاولوا ان يجيبوا على اسئلته المطروحة امام وقائع الخمسينات · لكنهم اهملوا لحد ما فنية القصة · ان القاص هنا وهو يعيش واقعا غير متوازن جعل من فنه القصصى يسير فى خطين · فالخط الذى امتثل لتساوءلات الناس كان قريبا منهم يعالج موضوعاتهم صحفيا حيث ان الصحافة لم تقف بمثل هذه الاغراض · اما الخط الذى ابتعد عن تساوءلات الناس اقترب بالضرورة من المدارس الفنية الحديثة ، والقصة عندما استقلت عن الصحافة فهما واسلوبا كانت أقرب لهوءلاء المبتعدين عن مشاكل الناس وقضاياهم ·

ان ظهور تيارين او خطين ضمن اتجاه الواقعية الحديثة، احدهما تجريبى يستخدم تيار الوعى والتداعى خاصة عند فوءاد وعبدالملك ، والاخر واقعى نقدى يهتم بمشاكل المجتمع وينتمي اليه فكريا ويعانى من ترسبات السرد خاصة مشاهد الوصف عند الدباغ ولطفى والصقر وفرمان · كان ضروريا فى مثل تلك الفترة · اذ كانت الاوضاع الاجتماعية لاتعطى فرصة للكاتب المنتمى للخلاص من اسارها ، ولاتدع التيارات الاجنبية التجريبية ذات الاطلاع والثقافة تهرب من اسارها فالمزاوجة ضمن قصة واحدة بين تيارين يقفان على ارضيتين مختلفتين كان ضربا من الخيال ·

كما نجد فى قصص ـ موعد النار ـو ـ عبود ـو ـ الرجل الصغير ـ للتكرلى وعبدالملك نورى بينما قصة (الدمله) للتكرلى تمثل تطلعا جديدا اكثر حرية من قصص (الوجه الاخر) ·

ان تيار الرمز والشعر اغنى القصة العراقية بالمواقف والتلميحات والعمق حيث اصبحت بواطن الشخصيات ممكنة الرؤية من اماكن افعالها الظاهرية · ولعل ظهور الرمز والشعر فى القصة العراقية يعود الى الكبت فى بعض مناحيه السياسية حيث اصبح مهربا للشخصية وللقاص وهو وان كان هروبا ذكيا من عدم المواجهة الفعلية اليومية للاحداث لكنه لايمثل جوانب سلبية فى تطور قصتنا · بل بالعكس امدت القاص برؤية لبلورة تيار واقعى جديد · يكشف عن امكانية هائلة فى الموضوعات الشعبية التى يجد القاص فيها صدق وعمق الوجود الفعلى لانساننا المعاصر · ومما يلاحظ ان استخدام الشعر والرمز هنا جعل من الزمن بساطا مفروشا بأبعاده الثلاثة يستطيع القاص ان يتمدد عليه ويطوف به دونما خوف من السقوط · ان الذى اتاح لتيار الشعر والرمز ان يقوم ويلعب دوره التاريخي هو الوعى بالمرحلة التاريخية المعاصرة التى تشهد بدايات لثورة جماهيرية على النطاق السياسى والفكرى ·

ويمكن ملاحظة نقطة اساسية فى تيار الشعر هى ان الشخصية المحورية فى القصة عندما تتكلم شعرا لايعنى انها تنظر للواقع بمنظار غير شعرى · ان حياتها واكتشافها لمشروعيتها فى العمل هما (المنهاج الشعرى) اليومى للعمل ، ومن خلال هذا المنهاج يتولد احساسها وطريقة تعاملها ، ومن ثم يكون وجودها المبرر ، اضف الى ذلك ان جميع الاشياء والشخصيات المحيطة بها لاتكون فى مواقع غير شعرية ايضا · لان امكانية البطل هى التى تحدد رؤيته ومن ثم تشخص مواقعه وتطلعاته · وقد اعتمد فؤاد التكرلى وعبدالملك نورى على أمكانية البطل الحسية ، ففلسفا واقعه من خلال نظرته له كما فى قصة (الدمله) حيث يتحول الواقع امام حسين واقعا شعريا يعايشه ظاهريا وينغمر فيه حتى النهاية فكريا · كذلك فى قصة (موعد النار) حيث نجد (على اكبر) مثالا لتتبع مواقع لايمكنها ان تؤدى الى لا نتيجة لان الطريق والاسلوب الذى سلكه للوصول الى العتبات يمكن ان يكون شاعريا فقد استطاع ان يوحد شعوره الداخلى بطريقته للوصول · ومايمكن استخلاصه من استخدام تيار الشعر والرمز فى القصة هو اكتشاف القاص لقدرة الاشياء فى تعيين مواقع البطل ، ولو التفت جيل الخمسينات الى هذه الظاهرة لاستطاع ان يخلق من حركة الاضرابات والتظاهرات الجماعية ونوعية العمل قصصا تقف فى مقدمة القصة العربية المعاصرة · ان الواقع الغني بالحركة هو الواقع الذى يثير

احساسا شعريا فقط ٠

اما التيار الثانى ضمن الواقعية الحديثة كان اسلوبه نقديا ووصفيا الى حد ما ٠ فقد احتوته احداث البلد السياسية وطبعته بطابعها السريع المتغير ٠

ان دراسة موضوعية لظروف الطبقة العاملةالعراقية ابان الخمسينات تصل بنا الى نتائج ملموسة ٠ منها حجم المعارضة التى واجهت بها السلطات انذاك ، وهى بالطبع كانت نتيجة لحجم افكارها ٠ لكن القاص المنتمى تعامل مع فكر هذه الطبقة تعاملا خارجيا وداخليا فى ان واحد دون ان يفصل بينها او ان يستخدم شكلا يتيح للقارىء الفصل بينهما ٠ فالتعامل الخارجى مع الشخصية كان يتم من خلال اختيار المواقف لابطاله اما التعامل الداخلى كان يتم بان يسقط القاص افكاره على نفسية دواخل الشخصية ـ بغض النظر عن نوعية هذه الافكار ـ فالتعاملان الداخلى والخارجى فى قصة واحدة يجعل احد الطرفين متغلبا على الاخر بدرجة اقترابه من القاص ٠ فقد تكون الافكار واضحة وجيدة بينما مواقف الشخصية الداخلية شبحية ومعتمة ومجانية ٠ ان قاصنا الخمينى كان برجوازيا بكل ابعاده وان انتمى سياسيا لافكار الطبقة العاملة ٠ فمن يقرأ قصص غانم الدباغ ـ ليلة اغريقية ـ تلك الليلة ـ الماء العذب ـ اوقصص مهدى عيسى الصقر ـ المضخه مجرمون طيبون ـ او حصيد الرحى ـلغائب طعمة فرحان ٠ يجد ان القاص يتفاعل مع افكار العامة من الناس لكنه ليس واحدا منهم على الاطلاق لانهم كتبوا عن الشخصيات بافكارهم متصورين انها هى افكار هذه الشخصيات ٠

ان شخصية اللاشخصية كانت مظهرا واقعيا لفترة الخمسينات ٠ فالبطل يتعامل بفكر جماعى وثورى بحيث يجد امزجة العديدين منامثاله طبقيا وفنيا لكنه موءطر بحدود بيئية لاتسمح له بمثل تلك الانطلاقة ٠ان افكار الشخصيات من الشمول بحيث يمكنها ان تنطبق على أية حالة مشابهة انها وصف لداء اسمه البيروقراطية او البرجوازية او التسلط الطبقى ٠ لقد حاربت على جبهات متعددة دون ان يكون جسمها موءهلا لاستمرارها حياتيا ٠

ان مايميز هذا التيار ايضا هو شدة انفعاليته وصدقه ٠ فقد كان القاص يلمس بوعى ان واقعه يكشف عن معالم جديدة لايمكن السكوت عليها دون الكتابة عنها ٠ ان مثل هذه المعالم اصبحت هدفا سهلا لهجائها ونقدها ، لكن عالما مفتوحا كان يلوح للقاص الخمينى خلف تلك المعالم معتقدا ـ واعتقاده هنا صحيح ـ ان انتماءها الطبقى هو السبيل الوحيد

لتكوين نماذج تبقى طويلا · فالظلم والقهر والاحباط وكل مـــا يمت بصلة الى السلطة السياسية انذاك كانت موضوعات جاهزة ومهيـأة لان يوضع البطل على محكها ·

ان المواجهة التى تمت بين القصاصين وواقعهم انذاك كانت شاملة · فالتظاهرات العنيفة والعمل الجماهيرى والحزبى تنبىء بثورة تنقـــل القاص وابطاله الى مواقع جديدة · والقاص ازاء هذه الاوضاع لايتحمـل ظهور تيار نقدى وسردى فى القصة بل ان حركة الواقع السريعة انذاك كانت تفرض تاريخيا وماديا ظهور مثل هذا التيار ·

ان زمنا تاريخيا مهيئا بفعل الظروف الموضوعية السابقة حددبوعى جدلى مسار القصة الانتقادية ابان الخمسينات · هذا الزمن نجد معانه فى ظهور البطل المنتمى الثورى الذى شكل بعدا جديدا لنوعية الشخصية فى القصة اضافة الى انها ـ اى الشخصية ـ تمتلك تراثا عظيما من الامكانيـــات السياسية والاجتماعية سواء اكانت هذه الامكانيات من داخل محيطها ام من خارجه ، كل ذلك مكن البطل لان يلقي بوجه السلطة الكلمة الحادة كما فى (مجرمون طيبون)·

وما تمتلكه الشخصية من مأثورت تاريخية كون لديها موقفا قصصيا تخضع فيه متطلبات القصة الفنية الى افكارها ، وقد حددت الوصول الى مستقبل ما ، لايتم بدون ماض وحاضر ثوريين · ان التزاوج الفكـــري والفني فى قصة الخمسينات كان حصيلة كفاح طويل خاضته الجماهيـر أبان فترة الخمسينات ، لكنه كفاح لم يعط فنية تجديدية للقصة كما نفهم التجديد الان ·

ومايدين بعض قصص هذا التيار فنيا · هو الجمـــل المنتفخـــه والكليشهات الجاهزة التى تفقد القصة هويتها الفنية ·· فمثل هذه الجمل الشعاريه الهاتفه كانت تمد البطل بسيل من عواطف الاخريـن ، وتلغى عواطفه الشخصية التي تجد فى مثل تلك الظروف وقتا ملائما لظهورها · كذلك تعتبر مشاكل البطل الذاتية مناخا ملائما لان تعلن عن هويتهـــا وموقعها وثوريتها · لكن القاص يجعل من قضايا البطل الذاتية وعواطفه محورا اساسيا بين رؤية فؤاد التكرلى وعبدالملك نورى ورؤية غائب طعمه فرمان وعبدالمجيد لطفى ومهدى عيسى الصقر ومحمود الظاهـــر والتى جرتهم الى نفس المواقع ونفس الفترة الزمنية· مما يشكل بالتالى طريقين لقصة الخمسينات يختلفان موقعا وفكرا · وجدا فى ثورة ١٩٥٨ مـــادة اخرى للتباعد بينهما ·

ان ماحدث للقصة الخمسينية بعد ثورة تموز ١٩٥٨ هو غير ماحدث للبنى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فى البلد ، فالانتقال من حالة الاستغلال والاقطاع والبرجوازية· الى الاصلاح والمشاركة الجماعية وسيطرة البرجوازية الوطنية كان تحولا سريعا واجابة جدلية على التغييرات الثورية الحادثة فى الواقع · اما القصة فقد حدث لها عكس ذلك تماما · فالتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كفلت الاجابه عن اسئلتها المطروحه ابان الخمسينات لذلك فلم تعد لها ضرورة · والقاص الواعى لم يفاجأ بالثورة مفاجأة كليه لانه كان يخطط لها ويترقبها خلال كتاباته عن الخلاص المادى للاوضاع المفقوده فى قصصه ·

ان القصة فى سنوات الثورة الاولى كانت تسير بطرق ملتويه فالتغيرات الاقتصادية والسياسية كادت تتسم بعدم الثبوت كليا ، فلم تستطع والحالة هذه ان توجد فنا يلائمها ويواكبها ، ولعل ذلك الوضع اللا مستقر أوجد انفتاحا على تيارات قصصيه جديدة تلقفها الشباب ،وغالبا ماكانت هذه التيارات مناقضه للتغيرات الحادثة · كما اتاح صمت القاص الخمسينى الفرصة لظهور قصة ساذجه وقد يعتبر صمته نكوصا اوخذلانا· الا انه كان مبررا · فبعد ان تحولت اسئلة شخوصه القصصية الى اجابات واضحة وجاهزة تحول القاص الى مساهم فعال ، وعامل مغير · الكلمة عنده اصبحت تظاهرة او نقابة، اوتوقيع عريضة ·لذلك يعتبر صمت القاص خلال سنوات الثورة صمتا تفاوليا ، صمتا عاملا اشبه بصمت هملت الثورى المغير لكن هملت استطاع ان يثور ويغير بينما قاص الخمسينات اكتفى بأجابات الثورة ثم انغمر فيها · ولان مناخ مابعد تموز لم يكن مناخا ملائما لميلاد جيل جديدا او مناخا لاعادة الاوضاع المفقودة ابان الخمسينات· مما جعل هذه الانتكاسة تمهد لهذه الثورة بعدئذ وتنبىء عن ميلاد جيل مجدد بفنية القصة · فانتكاسة ثورة تموز ولدت قلقا وعبثا وجوا مظلما معتما جعل القاص فى موقف رافض ومتراجع · فقد اصبح لديه وعيا متخلخلا يعي مايلامس حياته فقط · فالواقع الذى تفتح عليه قاص الستينات يختلف كما وكيفا عن واقع الخمسينات · فهو بالاضافة الى تغيراته السريعة المستمرة ، احدث تبدلات فى غير صالح هذا المجتمع ·لذلك يمكن اعتبار الصراعات التى حدثت فى بنى المجتمع الفوقيه هي التى اوجدت الفن القصصي لان القاعدة الاقتصادية بعد تموز ١٩٥٨ تسير فى اتجاه مادي يفرض نوعية الرؤية من خلال مواقع ثورية لكنها لم تستطع ايجاد فنها الخاص بها · ان ما يمكن قوله هنا ان قصة الستينات فى اولها كانت حصيلة لصراع البنى الفوقية فقط · ونتيجة حتميه لهذه الحالة ، اصبح القاص مفرغا من سلاحه المادي · فجابه الواقع بكلمات ذاتية تكشف

عن موقفه بالصمت عندما لا يجد غير الصمت مخرجا ، ولكنه صمت مغاير مترقب قلق، خائف · ووراءهذا الموقف وقف كتاب القصة فى الخمسينات· وعندما خلت الساحة منهم ، فسح المجال لميلاد جيل جديد · يفقه الى حد بعيد وضعه · فهو لم يشارك مأساة صمت القصاصين السابقين ،ولم يجعل من قصته سلاحا كقصة الخمسينات · بل جعلها اداة معبره عن ذاتيـــة قلقه مأزومه ، هي ليس قلق وتازم الواقع السياسى · مما اصبح هربـه اليومى هو لايمكن تبريره فى مثل تلك الفترة ·

ان قاص الستينات لم تعد لديه رؤية جديدةقائمة على رؤية قديمة· بل اصبحت عوالمه ، هى الحاضر الذى يعيشه · وازاء هذا التغيير ، لم يعد يملك ادوات موهله لان تبحث فى جذوره ، او ان تجيب عن اسئلة غيره · انما امتلك نزعة صوفية من خلال رؤياه ثم حاول تغذية افكار الاخرين بها · ان واقعا مليئا بالفوضى ، انتج قاصا ، فوضويا ·· بينما واقع ثورة ١٩٥٨ الثوري لم يستطع ايجاد قاص (ثورى) ويمكن معرفة (الفوضى) معرفة دقيقة من خلال المواقف السوداوية واللامبالية التى سهلت السبل للقاص لان ينكفىء على ذاته · اضافة الى الجو السياســى القلق ابان تلك الفترة والذى مهد بدوره لظهور نتاجات فكرية وادبيـــة في مجمل الميادين الاقتصادية والثقافية تجعل من انغلاق الذات المـــادة الاساسية للادب · ان الوضع المنتكس خلق قاصا يهتم بلا منتمي كولن ولسن ، ورؤى كافكا السوداوية للعالم ، وعبثية كامو ، والمواقف الفردية عند سارتر · ولعل ولادة مثل هذا الجو قد تم من خلال الصراع الدائـر بين القوى السياسية انذاك والذى سبب لحد ما انتعاش الثقافة الغربية المحملة بمثل تلك المواقف · مما حول القاص عن خطه الصحيح · فبعد ان اصبح الواقع بعيدا عن النقد اصبح القاص قريبا الى دوخله وقضاياه · ولعل ما ستجد لديه من أساليب فنية ـ اشكال خاصة ـ ليست بقادرة على جلب مشاعر الاخرين انها اساليب هىالاخرى خاصة بالجو الفردىالذاتي· والذى كان موضوعا ضمن لغة قصيرة الابعاد محدودة الافـق · محلية الفعل ·

لكن التساؤلات التى يطرحها الجيل المنتكس وان كان ظاهرهـــا يبدو عبثيا · يجعل ما تخفيه من واقع خلفهـا هـو الوجـــه الصحيـــح لوضعية الجيل · لكن القاص افترض ان ما يظهر على سطح الواقع من أمور هو الجوهر وهكذا اغرق قصصه باحداث تافهه · كان يفتش البـــطل عن مكان يقعد فيه بعد جولة خاسرة وراء فتاة ، او البحث عنالعلاقة بين انسان واخر من خلال الموت الذى يفترضه القاص انه يغلفالحياة الحاضرة او التساؤل عن جدوى السير فى الشارع والجلوس فى المقهى وقـراءة

الجرائد · ان مواقف القاص هي نفسها مواقف شخصياته · وان كانت مثل تلك التساؤلات جذرية وجدلية لكنها بمثل واقعنا انذاك لم يعد لها حصة الاسد كما يقال · انها نزيف يومي لحياة تكمن خلفها وتعني اول ماتعنيه : الفقر الفكرى والواقعى لوضع اجتماعىموجود · ان كثرةالاحداث وسرعتها غمرت القاص بفيض من التساؤلات الساذجه عنجدوىولاجدوى الحياة · ومهما تكن فنية القصة جيدة ، لايستطيع اى بطل تلك ابعاده ان يكتشف مواقع جديدة له او لغيره ، بل جل مايستطيع فعله هو نقله قدم اخرى له فى فراغ هائل لايستطيع سبر ابعاده · ويعتبر عبدالرحمن مجيد الربيعى ابرز قصاصي هذا التيار ، ففي مجاميعه الثلاث ـ السيف والسفينة ـ ووجوه من رحلة التعب · الظل فى الرأس ـتجد ابطالا تركوا احزابهم السياسية ، وانتماءاتهم الفكرية لاعن موقف معين ، بل لانهم مروا بفترة عصيبة انهزموا فيها كما انهزم الكثير وهو لم يحاول ان يبرر هذا الانهزام ، او ان يدافع عنه بل ادان الانتماء من خلاله · اما الخلاص المسيحى هنا لم يكن دينيا او فكريا بل كان الجنس · باعتباره يكشف عن الذاتية المغلقه حيث يستطيع البطل ان يكتشف عن نفسه ووجوده امام المرأة ومن خلالها · ومع ان مثل هذا الموقف يشكل بعدا جديدا للقصة العراقية ، الا ان الربيعى نفسه لم يكن واعيا به بل جعله ملاذا وخلاصا ذاتيا مغلقا · والدليل الذى يقوم على هذه الفرضية · ان البطل الواعى يعرف ما يعمل ، ويفقه الى حد بعيد مسالك غده · لكن الربيعى اخفق فى بلورة وعى ابطاله ودليل اخفاقه هو اللغة التى يتكلمون بها لغة معتمة قلقة مما تدل على اتجاه قلق ومعتم ايضا ·

بينما لجا موسى كريدى وهو من ممثلي تيار الذاتية الى البحث عن بطل جديد من خلال مواقف ولغة جديدة · ان ابطال كريدى المتوحدى السمات لم يكونوا قلقين بفعل تركهم لاحزابهم ، بل كانوا مولودين جددا فى فترة الستينات ، وكأنهملايعرفون منالاحزاب شيئا فمجموعته ـاصوات فى المدينة ـ قريبة الى فهم واقع الشباب المعاصر اللامنتمي ،لكن احداثه هى الاخرى من نزيف واقع مابعد الستينات المميز بفوضى فكرية عائلة لم تكن اسبابها من السطح بل كانت ماخلفها هو المهم · اما مجموعة موسى الثانية ـ خطوات المسافر نحو الموت ـ ابتعدت لغة ومضمونا عن مجموعته السابقة ، فقد اصبح البطل منتميا ولكنه الى الواقع الاجتماعى لمحاولة نقده او رفضه وهو انعطاف كلي فى فكر الكاتب واسلوبه · كذلك نجد محمد عبدالمجيد فى روايته عراة فى المتاهه ميالا الى استخدام لغة غير مفهومة · لكنه بعد ذلك تحول نحو الواقعية اسلوبا ومضمونا فى قصصه الاخيرة ·

اما عبدالستار ناصر ، وهو احد ممثلي هذا التيار نجد انتماءه الى ذاته ، والى مشاكله ، فهو لم يكن خارجا من قبو اخر ذى هوية · فقد كتب دون ان يعي اولا طريقة لكنه اكتشف ان قضاياه هي التى تسيره وتقومه فلجأ اليها وبحث فيها عن مسائل تهمه ، فلم يجد الا الجنس ايضا · هو الجنس الذى استخدم فى (اوديب) ، ولعل المحيط الذى يغلفه ، يعينه ويأخذ بيده الى مثل هذه المواقع وعبدالستار لم يستطع ان يولد تيارا منفردا به خلال هذا الموقف ، فهو كغيره ضاع خلال المواقف الحادة الواسعة التى لاتترك له مجالا · لكنه فى رواية له لم تنشر بعد هى (تلك الشمس كنت احبها ، تجد موقفا انسانيا من خلال متابعة فكرية وجنسية للبطل · مما حولت واقعه الى شيء من الفوضى التى احالت كل مايحيط بالبطل الى واجهات تلاحق وتتابع مسيرة البطل خلال واقعه وذاته · اما جليل القيسي وهو احد القصاصين الذين ظهروا خلال تلك الفترة حاول فى مجموعته ـ صهيل الماره حول العالم ـ ا مراقبة واقعه بعين قلقه مبعثره جسد احداثا فانتازيه وبطلا فانتازيا ايضا · ان ابطال القيسي من العتمة مايمكنهم من الاجابة عن اسئلة يثيرها الانسان الفرنسي او الامريكي حيث تحمل لغته دعما شموليا لمواقف عبثية قلقة · لم نعثر على شبيه اغرق ابطاله فى البحث الميتانيزيقي ايضا دون ان يكون وجهة نظر خاصة له بمثل واقعنا خلال تلك الفترة · والقيسي هنا وان كان مجددا لكنه بتلك الفترة او بشخصياتها · كذلك نجد يوسف الحيدرى وقد اغرق قصصه بمواقف ذاتيه ـ جنسيه ـ حب المذكر ـ وكاننا امام مواقف نضالية معتمدة لتوعية الابطال ! ولعله هنا يمثل وجهة نظر غير متكاملة لنوعية من الشخوص تجد فى مثل هذا الحب مجالا لفراغها ، وحتى هذه النقطة لم يكن الحيدرى واعيا بها بل جعلها ضمن حدود واقعيه متجرده من أى احساس زماني ·

ولعل أهم نقطة يثيرها هؤلاء الكتاب هو الرمز الذى استخدموه فى قصصهم ، لكنه ليس نفس الرمز الذى كتب فيه عبدالملك نورى وفؤاد التكرلى · ان رمزهم هنا محدد بحدود ذاتية ، بينما كان عند نورى والتكرلى والصقر مساعدا للكشف عن واقع فى مواقعهم وافكارهم ، مواقع تكاد تكون خاصة بزمنهم تحمل طابعه وتكشف عن عيوبه· اما رمز كتابنا المعاصرين لم يكن خاصا بواقعهم ، ولا بشخصيات ابطالهم ، بل كان رمزا عفويا مستخدما من زاوية الرغبة فى الاستخدام · ورغم كل ذلك ، فقد استطاع هذا الجيل ان يجد انعطافا فى شكل القصة ومضمونها ، لكنه لم يستو بعد على أسس ثابتة لان جذوره نبعت من أسس غير ثابته · فهو

ليس وليدا لتناقضات اقتصادية او طبقية ، بل كان وليدا لنزوات كتابية ورؤى عصرية قصيرة المدى مفروغه من فهم العصر كليا · واستمرارية مثل هذه القصص رهن بالواقع الاقتصادى والسياسى فى العـــراق · وقد نجد الانابتعادا عند الكثيرين منالقصاصين من كتابهذا التيار بعد ان استقر الوضع ، وبعد ان وجدت كتب تعين الكاتب على كشف معـــالم جديدة من الادب الاشتراكى · ان التجديد يجب ان يكون ناتجا مـــن الوضع الاقتصادى للبلد فلا يتأثر بأزمة سياسية او باحداث فوقية ، او بعوارض نفسية فالتحول الذى حدث نحو الواقعية الحديثة عند قصاصينا الان هو الاجابة على تفاهة وسطحية القصة التى ســـادت ابان ١٩٦٣ ـ ١٩٦٧ ·

ان البحث الجاد عن نوعية البطل خلال تلك الفترة ، تجده فى كل حدث من الاحداث ، لكنه لا يحتويها ، ولا ينفعل بها · رغم انه وليـــد لها وهويته السياسية غير مهمة بل ان هويته العامة هى الاهم رغم انهـا كانت تتحدد بافعاله اليومية ، فحياته هى (اكل وشرب ونوم وتدخين) ومثل هذه الحياة الوجودية تمثل الابعاد الحقيقية لنوعية البطل · لكن واقعا داخليا كان يغلى ويحيل مثل هذه الحياة الى فوضى اعتبرت هـذه الفوضى هى المنفذ الوحيد لثورته الداخلية ، وقاصنا اهتم بالفوضـــى دون مصدرها

ان حياة « مرسو » بطل كامو العبثى لم يفعل غير « الاكـل والنـوم والتدخين والشرب »(٢) لكنه استطاع ان يشكل من اشيائه وجـــودا ماديا خاصا به ورغم ان هذه الخصوصية « لا تتقدم نحو هدف ولا تنظم حول فكرة بل تجرى عمياء اليه ، انها منسوجة من ترديد ابدى للحركات والافكار الصغيرة والاحاسيس الفجة »(٣) الا انها كحياة خاصـــة ، تشعرك بوجودها دون ان تستخدم ادوات واقعيـــة للبحث عن ذلك الوجود ، ورغم ان مرسو يمثل نموذجا للفردية القائدة او المجســـدة لاوضاع معينة باعتبارها تمتلك تاريخا ووضعا معينين ، الا ان نمـوذج الفردية هذا خارج حدود حياته الخاصة لم يعد شيئا · فكامو رفض من خلاله كل السلطة التى كان يمتلكها الفرد ابان فترة تاريخية · فالفردية رغم انها « ظاهرة اجتماعية لها تاريخها الخاص منذ بدء ظهور المجتمـع الطبقى ، لكنها تصبح اساسا فلسفيا للوعي الاجتمـــاعى فى فترات

---

٢ ، ٣ ـ مجلة الاداب العـددالخاص بالرواية الجديدة ص ٣٥ـ الروايـــة الوجودية بين الفلسفةوالادب للدكتور زكريا ابراهيم · اذار ـ ١٩٦٣

تاريخية ،(٤) الا اننا فى العراق وبعد ثورة ١٩٥٨ لم نقترب الى رؤية فردية فى قيادة واقعنا بحيث تشكل نموذجا ، صحيح ان الفردية لعبت دورا ، لكنه لم يكن ناضجا ومستمرا لفترة طويلة ، ومع كل ذلك فلم يستطع القاص الستينى ان يبلور مثل هذا النموذج رغم امكانية توفر بعض خصائصه ·

٣ ـ تيار الوصف

يمكن اعتبار هذا التيار ضمن الواقعية الحديثة ، وهو تيار شق طريقه من خلال تعامل واع مع الواقع · ويمثل هذا التيار محمد كامل عارف ومحمد خضير وسركون بولص وموسى كريدى واحمد خلف وخضير عبدالامير ولطفية الدليمى وغازى العبادى وجمعه اللامى وديزى الامير واسماعيل فهد اسماعيل وبرهان الخطيب ويوسف الحيدرى وموفق خضر فى بعض قصصهم · ان هذا التيار لم يقم اساسا على انقاض سابقه وانما نما بجانبه ، يعى وينفعل من خلال جمع من القضايا الاجتماعية التى لم يحاول التيار او الاتجاه السابق معالجتها ، ويمكن ملاحظة ان خطوطا متكاملة لاسس تيار الوصف لم تستقم بعد ، وانما فى بعض القصص القصيرة والروايات القليلة لدى كتابنا الانفى الذكر حددت ملامح اولية لهذا التيار يمكن ايجازها بـ : البطل الشعبى الواعى الذى يحيل حركته اليومية الى فعل موجه وهو ـ اى البطل ـ لا يضع اى شىء خارج ارادته وادراكه بل يعمل من اجل تجاوز يومه بما يتوفر له من امكانات مادية · كذلك اللغة الشاعرية الوصفية الجميلة والحدث العميق الشامل غير المباشر ·

يمكن اعتبار هذا التيار الوليد الشرعى لقصة الخمسينات ، خاصة عند فؤاد وعبدالملك لتشابه منطلقاتهم واغراضهم وشخصياتهم وحتى لغتهم لكن الاختلافات فى نوعية الرؤية وطبيعة الموضوع ولعل مرد هذه الاختلافات الى تنوع وتطور الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى البلد ·

ان الوصف الخارجى يستطيع ان يوفر للقاص مساحة واسعة للتحرك فيها · فقد تحرر من قيود الشخصية الواقعية الفوتوغرافية ، واستطاع بذلك ان يجيب بوجوده الفكرى المادى عن اسئلة باطنية تثار من باطن الشخصية ، وبذلك لا يحدد نوعية خاصة فى فهمه للاشياء وللاحداث

---

(٤) الجمال فى تفسيره الماركسى ص ٣٩٣ طبعة دمشق · ترجمة يوسف الحلاق ·

بل ان حركته هذه التى تبدو انها متحررة تستطيع ان تكون جوا شاملا وانسانيا فللشخصية حركتها الموضعية وللاشياء حركتها الموضعية وفعلها الخاصان ومن مجموع ذلك تستطيع بوساطتها التأثير فى احساس ومدركات القارىء كما تستطيع ان تحدد وجهة نظرها تجاه قضيتها · ان القصة لدى هؤلاء الكتاب اداة يعبرون بها عن وجهات نظرهم عن الاشياء وعن معظم الحقائق الاخرى التى تعايش نفسياتهم او تجد لها بعض المبرر من الوجود الواقعي ·

ومن اهم سمات هذا التيار ايضا : مواكبته للتطور الاقتصادى والفكرى للبلد · ورفضه فى الوقت نفسه القيم الفنية العبثية · ان رؤيته للمستقبل تتحدد من ممكنات واقعه لا من خلال التهويمات او التخيلات الفانتازية · ولو ان مثل هذه المعالم لا تتوضح بمثل مجتمعنا الان ، ان الفنان الواعى يستطيع ان يحدد موقفه ، فالمجتمع المتخلف « المنحل لا ينتج بالضرورة فنانا منحلا (···) ان هناك صلة جدلية بين تطور المجتمع والقصة · وانكار هذه الصلة انكار للجدلية كلها »(٥) · فعن طريق مواكبة التحولات الاجتماعية تتوافر لدى القاص مواد للتعامل معها واجواء نفسية متشابهة وحالات من الخلق يتمثل بها وعى جماعى منتم · فمحمد كامل عارف فى قصصه القليلة استطاع ان يكون جوا شاعريا عذبا من خلال احداث واقعية ترتبط بوجوده وباشيائه · ففى ـ الطير الاسود الصغير ـ جسد احساسه بالغربة والانتماء فى وقت واحد مستخدما تاريخ بلده الذى هو تاريخ شخصيته · ففى هذا الامتداد التاريخى استوعبت باللحظة المكثفة الواعية كل مشاعر البطل · وفى قصة ـ الغريبان ـ تشابه فى قياس اللحظة التاريخية ايضا ·

ان دورا أساسيا برز فى هذا التيار للاشياء ففى ـ الطير الاسود الصغير ـ تحس ان للشباك دورا فعالا هو ليس نافذة يدخل منها الهواء بل هو منظار يرى فيه تاريخه وعالمه ووجوده وفى الغريبان نجد ـ الشمعه ـ الكنيسة ـ اشياء محورية كذلك نجد لمحمد خضير فى قصص ـ الشفيع ـ الارجوحة ـ القطارات الليلية ـ العلامات المؤنسة ـ استخدام ذكى وواع للاشياء فهو لا يصفها لذاتها بل يصفها لانها تشكل جوهر القصة · ففى الارجوحة تشعر انها قصة ـ طريق النخيل ـ الدراجة ـ الحقيبة ـ النهر ـ التنور ـ البرج ـ الارجوحة ـ بيت السعف ـ الحلفاء ·· الخ ،

---

(٥) الجمال فى تفسيره الماركسى ص ٣٩٤ ترجمة يوسف الحلاق طبعة دمشق ·

وفى الشفيع نجد ـ المقام ـ الطريق ـ العباءة ـ الناس ـ وفى القطارات الليلية ـ تجد ـ المحطة ـ القطار ـ الطريق الرملى ـ اعمدة الكهرباء ـ السرير ـ الشرشف ـ كراسى السينما ... الخ ... ان هذه الاشياء لم تكن موجودة خارج وعى القاص عند استخدامها بل كانت موجودة ومؤثرة وفاعلة انها ـ قوة ـ تستطيع ان تمنح القصة الواقعية ابعادا انسانية . كذلك برز دور اساسى للفولكلور باعتباره تاريخا شعبيا يحمل سمات وشخصية هذا التيار . فقد استخدم موسى كريدى فى (طقوس العائلة) تراث وعادات وتقاليد (التعازى والمآتم) كذلك استخدم محمد خضير فى (المملكة السوداء) السحر والبيوت القديمة وفى (ظهيرة القرطة) استخدم الدواء الشعبى المتداول بين المرضى .. لكن ناحية مهمة تبرز فى مثل هذا الاستخدام هى ان القصة لا تستخدم التراث او الاشياء كرموز كما يفعل الاتجاه التجريبى . بل ان استخدامها يعنى البحث عن قوتها الاجتماعية ووظيفتها الاخلاقية . ان دورها هنا موظف لخدمة مضمون القصة ويميل سركون بولص الى تزاوج عالمى الخيال والواقع فى القصة الواحدة . ولعل مرد ذلك اللغة الشاعرية التى يستخدمها بذكاء فتغلب على امكانية حركة الاشياء عنده . فى قصصه ـ صباح ما هناك ـ جو مأسوى يمتزج فيه الحلم ـ يتمنى البطل فى الهروب ـ والواقع فى معايشته لواقعه النفسى القلق ـ ان سركون محب للمغامرة والتجربة وفى هذين المجالين مدى واسع من الرؤيا والاحلام اللذين يفجران عند القاص امكانية لغوية جيدة .

كذلك نجد هذا التيار فى رواية عبدالرزاق المطلبى ـ الظامئون ـ حيث يستحيل الواقع الى شبح مخيف دام وعلى الانسان تجاوزه وقهره . كذلك استطاع اسماعيل فهد اسماعيل فى روايته الرائعة ـ كانت السماء زرقاء ـ ان يستفيد من تجربة سياسية فى التقاط اجواء عامة وانسانية عايشها العراقيون بكل نمائهم وانتماءاتهم السياسية واستطاع هذا القاص الموهوب ان يفجر من ممكنات واقعنا البسيطة اعمق المشاعر الانسانية وأقواها . كذلك نجد قصص غازى العبادى ـ القمر لا يستحى ـ مثالا لفنية هذا الاتجاه وقصة خضير عبدالامير ـ ورقة الاحتجاج العاشرة ـ مثالا لاستخدام الفلكلور والواقع ضمن رؤية الانسان العراقى المعاصر وفهد الاسدى فى (طيور السماء) وجمعه اللامى فى (اهتمامات عراقية) .. و ـ من قتل حكمت الشامى ـ الذى استطاع هذا القاص ان يوفر لابطاله اجواء دينية عذبة وغائرة فى الذات العراقية يمتزج فيها التراث الصوفى والنظرة الفلسفية .

ان مناخا ملائما لنمو هذا التيار بدأ يأخذ مساره بعد ان وضحت

قضايا اقتصادية وسياسية واجتماعية ـ فى الداخل والخارج ـ على حد سواء · فالمجتمع العراقى بحاجة الى الاشتراكية العلمية التى يجد الانسان الشعبى فيها دوره متكاملا والمجتمع العربى يتطور ايضا نمو الاشتراكية · واذن فالمناخ الذى سيتوفر امام القاص يلائم منحاه القصصى والفنى ويتجاوب معه الى حد كبير فى صياغة احداثه · خاصة اذا وضح هذا المنطلق من خلال القضية الفلسطينية التى وهبت القاص العراقى رؤية جديدة كما فى قصص عديدة لكتابنا الشباب امثال محمد خضير فى ـ الارجوحة ـ تقاسيم على وتر الربابة ـ احمد خلف فى ـ خوذة رجل نصف ميت ـ وصمت سرى يضىء ـ وجليل القيسى فى ـ زليخا البعد يقترب و ـ الطيور المهاجرة غربا تاخرت · وغيرهم ·

كما نجد امتدادات فنية لتيار الوصف مستخدمة الواقع ومستفيدة من الرواية الجديدة كما فى قصص ـ القطارات الليلية ـ لمحمد خضير و (الشباك والساحة) لمحمود عبدالوهاب وحكايه الموقد والشفيع ـ لمحمد خضير ايضا ·· وتعتبر الشباك والساحة انضج قصة عراقية فى هذا التيار ولكنها تبقى مفردة ·

وماذا بعد ؟ ! فهذه رحلة قصيرة وموجزة مع قصتنا المعاصرة ·

ياسين النصير

علامات في طريق تطور القصة العراقية

بقلم: فاضل ثامر

تهدف هذه المجموعة من الاقاصيص الى تقديم صورة تقريبية لواقع الاقصوصة العراقية في الستينات · وهي لا تزعم انها تمثل افضل النماذج القصصية التي قدمتها القصة العراقية · بل هي تحاول ان تعكس الواقع السائد في الاتجاهات القصصية المعاصرة في العراق ، بدون تزييف او أفتعال ، في مرحلة مهمة من مراحل تاريخنا الوطني والثقافي والقومي ·

فلقد شهدت الستينات ميلاد اصوات قصصية جديدة لم تكن قد برزت بعد في الخمسينات ، او كان لبعضها بدايات اولية بسيطة كشفت عن غناها وعطائها خلال العقد الاخير · ولقد اثارت الاعمال القصصية الستينية هذه جدلا طويلا ، لانها لم تكن – في ظاهرها – امتدادا طبيعيا للقصة الخمسينية ، بل كانت غالبا ما تبدو وكأنها منقطعة عن التطور الطبيعي للاتجاهات القصصية السابقة في العراق بفعل الرؤيا الجديدة التي طرحها القاص الشاب ، وبفعل الاشكال التكنيكية والتعبيرية التي استخدمها بجرأة وشجاعة · كما ان معظم ممثلي هذه الاتجاهات القصصية هم من الادباء الشباب الذين نما وعيهم الفكري والفني والسياسي بعد ثورة الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨ · ولذا فقد صدمت هذه المحاولات القصصية الذوق العام و (استفزته) لبعض الوقت ·

في الواقع ، ان ميلاد هذه الاصوات القصصية بنبرتها الجديدة هذه ، لم يكن حادثا طارئا او عفويا ، بل كان يرتبط بالواقع التاريخي الذي عاشه القاص الستيني ، كما ان ذلك لم يجر بمعزل عن التراث القصصي في الادب العراقي والعربي والعالمي ·

لقد أطل القاص الستيني بعد فترة من الركود والصمت شهدها

الفن القصصى بعد ثورة الرابع عشر من تموز · فلم يستطع القاص الخمسينى بعد الثورة التطور وتقديم اعمال قصصية جديدة كما انه عجز تماما عن التعبير عن المناخ الثورى الجديد ، وكانت معظم المجاميع القصصية ، والاقاصيص التى نشرت انذاك تدور ضمن مناخ النظام القديم الذى تهدم · ولقد قيل ـ فى وقتها ـ الشىء الكثير عن سبب عدم تفاعل الادب مع الثورة فى محاولة لاعطاء تفسير مقنع لصمت الاديب انذاك ·· ومما قيل ان الادب عموما ـ والادب القصصى منه بصورة خاصة ـ لا يستطيع ان يعكس تاثير الثورة مباشرة ـ كالشعر مثلا ـ بل هو بحاجة الى فترة من الزمن يختمر فيها الوضع الثورى الجديد فى اعماق القاص لكى يستطيع ان يحيله الى رؤيا جمالية · ورغم ما فى هذا الرأى من صواب كبير ، الا اننى اعتقد ان السبب الرئيسى لهذا الصمت يكمن فى طبيعة التصور الخاص الذى كان يحمله القاص الخمسينى للفن القصصى ، والذى وجده عاجزا عن التعبير عن الوضع الثورى الجديد ·

لقد كان القاص الخمسيني يمتلك فهما (نقديا) لوظيفة العمل القصصى · كانت القصة لديه وسيلة من وسائل نقد الواقع الاجتماعى · وكان القاص بحكم وضعه فى المجتمع يقف موقفا منتميا وفاعلا فى الكفاح الذى يخوضه الشعب ضد النظام الملكى العميل · ولذا فقد كان القاص يهدف خلال عملية التصوير التسجيلى للواقع المتخلف انذاك الى تقديم ادانة لذلك الواقع · لقد كان النظام الملكى عاريا ومكشوفا كنظام للبوءس والاستغلال والعذاب · ولذا فان عملية التصوير الوثائقى الواقعى لحياة الناس البسطاء فى الاوساط الشعبية والكادحة ـ بشكل خاص ـ كانت بمثابة ادانة لذلك النظام ، وكشف للظلم الاجتماعى ، وبالتالى دعوة ـ غير مباشرة ـ لازالته · لقد كان القاص يقف بكل عواطفه مع الشعب المضطهد ، المناضل من اجل ازالة نظام البوءس والعبودية والاضطهاد · وكنا نرى القاص الخمسينى يمارس وظيفة النقد والرفض والادانة هذه حتى فى حالة تجنبه التصريح المباشر بموقفه هذا ، وذلك عبر التركيز على عوالم الحرمان والشقاء والجور التى كان يعيشها ابطاله ·

وازاء وضع كهذا كان القاص العراقى فى الخمسينات يجد فى الواقعية ـ (والواقعية الانتقادية) أساسا ـ الاداة الملائمة لوظيفته الفنية والفكرية هذه · لقد كان بحاجة الى (تعرية) الواقع (ونقده) · وهذا ما كانت تقدمه له رؤيا الواقعية الانتقادية انذاك · كان مسار الاحداث الموضوعى يكشف من تلقاء ذاته عن دلالات رمزية غنية · وكان القاص يحس بقناعة ما يفعل · ولذا وجدناه واقعيا اجتماعيا ملتزما · ولم تكن

قد نشأت بعد ازمة صراعية داخل المجتمع تضع الفنان على هامش الواقع الاجتماعى ووجها لوجه أمام عالمه الداخلى ، ليعانى من أزمة فردية ووجدانية ـ كما هو الحال فى الستينات ـ تجعله يبحث عن ادوات جديدة ورؤيا مغايرة ، تتجاوز ابعاد الوظيفة النقدية للعمل القصصى ، من اجل التعبير عن أزمته وغربته ولا انتمائيته فى المجتمع · ولهذا فقد اكتسبت الاعمال القصصية التى قدمها كتاب الخمسينات هذه الروح الهجومية الهجائية الناقدة للواقع الاجتماعى والسياسى المتخلف · وكان القاص يحمل النظام السياسى والاقتصادى والاجتماعى مسؤولية كل المساوىء الاجتماعية والعرفية وكل العذابات التى يواجها الناس ، وكل مظاهر الحزن والاحباط والقلق التى تمسخ الانسان وتشل ارادته · ويمكن ملاحظة ذلك بشكل واضح فى اعمال كل من : عبدالملك نورى ، فؤاد التكرلى ، غائب طعمة فرحان ، جبان ، مهدى عيسى الصقر ، محمود الظاهر وغيرهم رغم تباين معالجاتهم الفنية الفكرية .

ولهذا فقد وجد القاص الخمسينى بعد ثورة الرابع عشر من تموز نفسه صامتا لفترة طويلة · ولم يستطع ان يقدم معالجات جديدة خلاقة للمرحلة الثورية الجديدة التى ناضل مع الشعب من اجلها · ومن الواضح ان عجز القاص عن الخلق القصصى يعود الى ذلك الفهم المحدد الذى كان ينطلق منه فى ممارسة الفن القصصى ونعنى به : الوظيفة النقدية الهجومية الهادمة للواقع المتخلف · فامام الثورة التى هدمت النظام الذى كرس حياته لنقده وادانته ، احس القاص فجأة بان وظيفته قد انتهت واحس بنوع من الراحة والقناعة والخدر اللذيذ · واكتشف فيما بعد عجزه عن الكتابة ـ وفق تصوره النقدى الخاص للعمل القصصى ـ فى ظل المناخ الثورى الجديد · لقد تعود طيلة سنوات عديدة على نقد النظام السائد · لذا لم يكن من السهل عليه ان يمتلك تلك المرونة التى تمكنه من اكتشاف ادوات تعبيرية جديدة تجعله قادرا على التعامل مع الواقع الجديد ·· ليتحول الى موقف ايجابى ، دفاعى عن (نظام) و (قانون) و (سلطة) كانت قد اكتسبت فى ذهنه قيمة مرفوضة ومقيته لدرجة التجريد · لذا صمت القاص عاجزا · ولو انه كان يمتلك تلك المرونة الكافية والوعى الخلاق والداينميكية لاستطاع ان يزاوج بين النقد والبناء وان يكتشف وظائف جديدة للعمل القصصي كانت خافية عليه او مهملة .

ولهذا فان ثورة تموز قد ادت الى انتهاء جيل الخمسينات تاريخيا بفعل التصور المحدود الذى كان ينطلق منه لفهم وظيفة العمل القصصي . وكان من المفروض ان يولد جيل جديد يستطيع ان يستوعب مناخ الثورة

وافاقها ، ليقدم رؤيته الجديدة للواقع والمستقبل .

الا ان هذا لم يحدث . فثورة تموز التى كانت تبدو للقاص كطريق للحرية والسعادة والامل ، سرعان ما سقطت فريسة للتعسف والقمع ومصادرة الحريات الفكرية والشخصية بسبب سيطرة الديكتاتورية التى مسخت معالم ثورة تموز وجردتها من جوهرها الثورى دافعة القاص الى مواقع ازمة صراعية ذاتية وجد فيها القاص نفسه مرعوبا من ضغوط الواقع الخارجى وميالا للتقوقع والاعتكاف الذاتى واللجوء احيانا الى مسارب الصوفية ومختلف النزعات الفكرية والفنية اللبرالية والعبثية .

ان هذا المناخ السياسى والفكرى هو الذى مهد لظهور جيل الستينات فى القصة العراقية .

لقد حاول القاص الشاب ان يقيم تواصلا صحيا مع الواقع الخارجى وحاول ان يمارس وظيفته كانسان وفنان ، الا انه وجد امامه عالما معقدا ومليئا بالتناقضات والصراعات وتطل منه عوامل القهر وكوابيس الموت والعذاب والاضطهاد . كان الانسان يذل ويسحق بسهولة ولا يجد مجالا لاحترام كرامته وانسانيته . فى مثل هذا الجو الكابوسى نما وعى القاص الذى كان يأمل ان تحقق له الثورة حلمه فى الحرية والسعادة ، فجاء الارهاب والقمع ومصادرة الحرية الفكرية لتمرغ احلامه بالخيبة والمرارة والاسى .

وامام هذا الواقع المعقد كان امام القاص احد اختيارين : أما مواجهة هذا المسخ والقهر بموقف ثورى واع ، وبالتالى الاصطدام المكشوف بالنظام الذى يستميت من اجل أدامة هذا التعسف ، وأما الانكفاء على الذات ، والتهرب من مواجهة الواقع ، واللجوء الى معالجات ذاتية يسودها الابهام والغموض وترهقها كوابيس غامضة وهموم ذاتية منغلقة .

وما حدث هو ان القاص الشاب ـ بفعل هذه الظروف ، وبفعل مستوى وعيه واستعداده الكفاحى ، فضل اختيار الموقف الثانى ، ولم تتح الظروف للموقف الاول بالازدهار ـ على الصعيد الرسمى على الاقل ـ فظل منفيا مطاردا محدودا يجد له متنفسا بسيطا خارج الوطن . اوداخل السجون والمعتقلات . وظل الوجه الثانى للقاص هذا مخفيا . ضيقا ، محاربا بينما استطاع التيار الثانى بفعل تجنبه الاصطدام المكشوف مع الواقع السائد من الازدهار بسهولة .

وهكذا فقد تسبب هذا الواقع الكابوسي الذى افتتحته الستينات فى

اهتزاز وعي القاص وتمزق رؤياه ودخوله فى ازمة صراعية حادة · ولقد تكشف هنا ايضا التخلخل الكامن بين موقف القاص الفكرى والعملى ، وبين موقفه الطبقى والاجتماعى · كان الواقع يستلزم منه تقديم فهم صحيح لحركة التناقضات اولا ، وتحديد موقف فاعلى ومنحاز من هذا الواقع ثانيا · الا ان عجز القاص عن تحقيق مثل هذا الادراك والتقييم الموضوعى ، وعجزه بالتالى عن اختيار جهة الانحياز عجلا فى دخول القاص فى ازمة صراعية جعلته يقف لبعض الوقت موقف الغريب اللامنتمى ، المعزول عن حركة الاحداث والتناقضات ، المرعوب من عجزه عن فهم ما يجرى اولا ، وعن تقرير موقف ثورى فاعل ثانيا ·

فى مثل هذا المناخ اكتشف القاص الستينى ادواته ، واكتشف ايضا شخصيته وصوته المتميز · ولذا فهو عندما انطلق يعبر عن موقفه الجديد المعقد تجاه الكون والواقع ويعبر عن ازمته الذاتية الخاصة ، لم يجد فى البداية فى الواقعية الانتقادية التى كان ينطلق منها القاص الخمسينى اداة ملائمة لتجربته الجديدة · اذ لم يعد همه (نقد) الواقع الاجتماعى و (ادانته) بل هو كان يحاول تجنب اى اصطدام او مواجهة صريحة مع النظام السائد الذى هو ضحية له · كما لم تعد تجربته اجتماعية منتمية · كما هو الحال فى الخمسينات بل ان التجربة الاجتماعية بدأت تكتسب اقنعة الحلم والوهم تارة واقنعة الذات المنغلقة والتصوف تارة اخرى · لقد احس القاص الستينى بنفسه كجزيرة منفصلة عن عالم الاخرين ، لذا وجد فى الاشكال التجريبية والغنائية والذاتية ادوات ملائمة للتعبير عن ضياعه وتمزقه وحيرته · وهكذا فلم يكن تجاوزه للواقعية مجرد رفض عقلى مقصود ، بل كان يرتبط برؤياه الجديدة للواقع ، ولابعاد تجاربه الذاتية · ولهذا فقد شهدت القصة الستينية فى بدايتها محاولات للتركيز على عالم التجربة الداخلية للقاص ، فنشأت لدينا عناصر غنائية ذاتية واضحة فى معظم ما نشر من نتاجات قصصية فى السنوات السابقة لعام ١٩٦٧ · ويمكن ملاحظة ذلك فى الكتابات المبكرة للقاص عبدالرحمن الربيعى التى جمعها فى (السيف والسفينة) · وفى كتابات سركون بولص ، وجمعة اللامى ، ومحمد عبدالمجيد وجليل القيسى وغيرهم كما بدأنا نلاحظ انعكاس هذا الواقع فى وعى القاص باشكال غير مباشرة تتمثل فى الكوابيس والقوى السرية اللامنظورة التى تتحكم فى مصير النماذج القصصية · وهنا تبلور تكنيك يزاوج بين (التعبيرية) والرمز والاسطورة يذكرنا الى حد بعيد بالتناول الكافكاوى : فالواقع التقليدى هنا يكتسب صفة اسطورية عبر التغريب والفانتازى · فعالم جليل القيسى فى مجموعته (صهيل المارة حول العالم) وقصته

(ديوس اكس ماشينا) المنشورة هنا ، وعوالم احمد خلف فى (نزهة فى شوارع مهجورة) وسركون بولص فى (الملجأ) وموفق خضر فى (حكايتان عن المدينة ن) وعبدالستار ناصر فى (رجل اسمه شريف نادر) وجمعة اللامى فى (اهتمامات عراقية) هذه العوالم القصصية تكشف عن تحول صورة الواقع اليومى الاعتيادى عن طريق التغريب والفانتازى الى مستوى الاسطورية والملحمية ، فيبدو عالما لا واقعيا احيانا · ولا شك في ان رفع مستوى العالم الواقعى الى مرتبة الاسطورة يمنح الواقع ـ فى مثل هذه التجارب احيانا ـ قدرة اكبر على الرمز وحدة فكرية تعبيرية عميقة · وهذا التناول ، اذا ما قدم بشكل تلقائى ومبرر فنيا وفكريا يستطيع ان يكسب القصة بعدا ايحائيا وفكريا وشفافية كانت تفتقدها المعالجات التقليدية للواقعية الانتقادية فى الخمسينات ·

وقد وجدنا الى جانب ذلك تضخما فى الرؤيا العبثية اللامعقولة لدى بعض القصاصين والضغط والسحق · وكان احساس القاص بالضياع والقلق يعكس انفصاله عن عالم الاخرين وانقطاع ارتباطه بطبقته ومجتمعه مما جعله يفقد هويته الاجتماعية والطبقية ، ويبدو غريبا مأزوما مسحوقا مقطوع الجذور · ونجد هنا بشكل خاص ملامح (مورسو) بطل كامو فى الغريب ، وموقفه العبثى ازاء العالم · ويمكن ملاحظة ذلك فى بعض اعمال موسى كريدى ، عبدالستار ناصر ، جمعة اللامى ، عبدالرحمن الربيعى ، يوسف الحيدرى ومحسن الخفاجى وعائد خصباك ·

هذا ولا يمكن تجاهل حقيقة مهمة ·· هى انه رغم بروز الاتجاهات التجريبية فى القصة التى اقترنت بموقف ذاتى او هروبى او ميتافيزيقى تجاه الانسان والحياة فقد راح يبرز ايضا ، كلما اقترب العقد الستينى من نهايته ، اتجاه واقعى جديد لم يفقد ثقته بالانسان والمستقبل ، كان يمثل التزاوج بين تيار الواقعية الاجتماعية الملتزمة فى الخمسينات والتيار الستينى المعارض الذى ظل محاربا ومنفيا خارج الوطن وداخل السجون والمعتقلات · ورغم ما تركه الواقع السياسى الستينى على هذا الاتجاه من بصمات واضحة جعلته يسقط احيانا فى التشاؤم والاحباط والتردد ، الا انه استطاع ان يحافظ على جوهره الاجتماعى الانسانى الملتزم ، وكان الزمن فى صالحه اذ استطاع ان يرسى اقدامه بثبات فى ميدان الفن القصصى فى العراق ويستقطب خيرة القصاصين الشباب حوله ·

ورغم الملامح النوعية الجديدة لهذا الاتجاه الواقعى الذى بلورته الستينات الا انه ظل يحمل فى بداياته ومحاولاته المبكرة بعض عناصر

الضعف والتخلف التى كانت تعانى منها الروءيا الواقعية الانتقادية فى الخمسينات وخاصة الميل للوثائقية والاستنساخ والاسراف فى الوصف النقلى وضعف العناصر الشعرية والالتصاق احيانا بموقف اخلاقى متزمت · ويمكن اعتبار اعمال محمد خضير ، خضير عبدالامير ، غازى العبادى ، فهد الاسدى ، لطفية الدليمى ، غانم الدباغ ، حسب الله يحيى عبدالجبار العبودى ، محمود الظاهر ، عبدالرزاق المطلبى ، برهان الخطيب تمثل هذا الاتجاه فى القصة الستينية فى العراق ·

وفى المجموعة القصصية التى بين ايدينا نستطيع ان نعد الاقاصيص الاتية تنتمى الى هذا الاتجاه : (الاعداء) لغازى العبادى (طيور الشتاء) لفهد الاسدى (ورقة الاحتجاج العاشرة) لخضير عبدالامير (طقوس العائلة) لموسى كريدى (الارجوحة) لمحمد خضير (الصورة) لغانم الدباغ (العنكبوت) ليوسف الحيدرى و (الهجرة فى الايام الموءجلة من زمن السخط) لمحمد عبدالمجيد ·

ورغم ما فى هذه الاقاصيص من تنوع فى الروءيا والتكنيك ، الا انها تتفق فى كونها تلتصق بروءيا انسانية واقعية اجتماعية عجزت الاتجاهات التجريبية عن استيعابها فى بدء نشوئها ·

ان الحقيقة المهمة الاخرى التى كشفت عنها القصة الستينية ، هى ان الاتجاهات التجريبية التى برزت تعبيرا عن أزمة الواقع الاجتماعى ، وازمة القاص نفسه ، لم تسقط اسيرة اتجاهات صوفية مسرفة ، كما لم تتحول الى مسارب (طليعية) تعزلها عن الاخرين وعن الانسان والمستقبل · ولهذا فقد رحنا نلاحظ ان هذه الاتجاهات بدأت تتخذ فى نهاية الستينات واوائل السبعينات ملامح جديدة تبشر بعودتها الى مواقف الانتماء والالتزام · واكتشاف اشكال واقعية حديثة تجعلها تتجاوز فى ان واحد ضيق الافاق الجمالية والتكنيكية والفكرية للتجريبية ، ومحدودية الاتجاهات الواقعية النقدية التى عرفها القاص الخمسينى ·

لقد لعبت العوامل الموضوعية : التأريخية والسياسية والفكرية دورا كبيرا في تحديد مسار القاص العراقي فى هذا الاتجاه · وتحتل تجربة الخامس من حزيران مكانة خاصة فى هذا التحول · فلقد لعبت هذه التجربة دورا كبيرا فى ايقاظ وعي القاص وتنبيهه الى وظيفته كانسان وفنان · اذ وجد القاص نفسه فجأة أمام مهمات تأريخية ضخمة لا يستطيع تجاهلها · وهكذا وجد نفسه أمام محاكمة ذاتية اكتشف خلالها أن الاستغراق فى التجريبية والاهتمام بمشكلات ميتافيزيقية

وذاتية منغلقة لا يتلاءم والمهمات التاريخية الجديدة . ولذا راح يعزز ارتباطاته بالحياة والواقع الاجتماعي الجديد ، وراح يمارس دورا ايجابيا فاعلا فى الاحداث . وقد أدى ذلك الى تعميق وعيه ، وزيادة ادراكه للواقع ، كما أدى بالضرورة الى تجديد رؤياه الفنية وأدواته التعبيرية . فبدأنا نلاحظ فى الاتجاهات القصصية الجديدة ميلا للاهتمام بمشكلات المجتمع والثورة والمستقبل .

لقد أفادت الاتجاهات التجريبية القاص الجديد كثيرا فى انماء رؤياه وتكتيكه وكشفت له عن طرق جديدة للتعبير والممارسة الثورية . فرأينا جليل القيسى مثلا ، يتخلص من اسار التجريبية والتعبيرية التى برزت فى مجموعته الاولى (صهيل المارة حول العالم) ليكتب لنا عن القضية الفلسطينية فى أقاصيص جديدة : (الطيور المهاجرة غربا ..) و (زليخا : البعد يقترب) و (معسكر الاعتقال الصحراوى رقم ١٢٥) . كما وجدنا أحمد خلف يكتب لنا قصصا اخرى عن المعركة منها (صمت سرى يضيء) و (خوذة لرجل نصف ميت) بعد أن كتب لنا سابقا بعض الاقاصيص ذات الطابع التجريبي والروءيا الميتافيزيقية كما فى (الذهاب الى سدوم) و (نزهة فى شوارع مهجورة) . كما بدأت الروءية الثورية تتوضح وتترسخ فى بعض كتابات جمعة اللامي ، كما الحال فى (اهتمامات عراقية) و (البحر والعنقاء) و (ساعات من زمن الاتي حكمة الشامي) بالاضافة الى المعالجات الايجابية الهادفة التي راح يقدمها معظم القصاصين . فالقاص محمد مجيد الذى قدم لنا سابقا رواية قصيرة ذات طابع تجريبي هى (عراة فى المتاهة) وأقاصيص اخرى مماثلة راح يقدم لنا نماذج قصصية واقعية أمثال (الهجرة فى الايام المؤجلة من زمن السخط) و (الانحدار خارج درجات السرطان) . كما أن كتابات عبدالرحمن الربيعى راحت تتخلص من تلك المراهقة التكنيكية التى رافقت أعماله القصصية المبكرة ، وشرع يستقر عند صيغ فنية واضحة يمكن ملاحظتها فى أقاصيصه الاخيرات مثل (ثلاث زهرات) و (الدائرة لا باب لها) و (صوت أمام الباب) . كما أن موسى كريدى الذى كان مستغرقا فى بحث دائم عن ذلك الهم الميتافيزيقي الذى يشد خطى أبطاله فى مجموعته الاولى (أصوات فى المدينة) نراه قد أخذ يوسع الرقعة الاجتماعية لتجاربه القصصية ويقدم معالجات ذات روءيا واقعية ملتزمة ، ويزداد اهتمامه بمنظور اجتماعي أوسع . ويمكن اعتبار قصته (طقوس العائلة) مثالا على ذلك . وكانت كتابات عبدالستار ناصر التى تدور حول بطل مركزى واحد هو الشاب المراهق الذى يعاني من

الحرمان والجوع الجنسي وتدفعه عقدة (اوديبية) لسلوكه الغريب هذا ، ويتلذذ أحيانا بمراقبة بطلاته بسادية وهن يتعذبن او يمتن ببساطة غريبة بينما يمارس هو طقوس حياته اليومية بكل رتابة كما يفعل بطل (غريب) كامو · ولكننا وجدنا عبدالستار ناصر قد بدأ يبحث موخرا عن عوالم اخرى غير أزقة (الطاطران) وغير عوالم المراهقة والطفولة ، وراح أيضا يبحث عن أبطال اخرين ومشكلات اجتماعية وميتافيزيقية كان بعيدا عنها · ونستطيع أن نعد قصته (رجل اسمه شريف نادر) مثالا على ذلك ·

ان هذه الظاهرة الجديدة ونعني بها توقف القاص عن الركض وراء بريق الاشكال التكنيكية ـ كغاية بحد ذاتها ـ وعودة القاص للانتماء والالتزام وبالتالى عودته للواقعية تنسحب على الكثير من القصاصين الشباب الذين أعلنت الفترة الستينية عن ميلادهم ·

ان عودة القاص الستيني الى ملامح جديدة : اجتماعية وفلسفية للواقعية لا يعني أن موجة التجريب في القصة قد انتكست أو فشلت وأخذت الطريق ثانية لعودة الاشكال التقليدية · بل نستطيع أن نقول أن التجريبية ظاهرة ارتبطت تاريخيا بوضع خاص للقاص الستيني فى العراق ، وجد القاص نفسه خلالها ينطلق عفويا فى مثل هذه المسارات · وكانت عودته للانتماء والواقعية مقترنة بتعمق وعيه من جهة وبخلق مناخات تاريخية وسياسية جديدة ، وفرت الجو الملائم لطرح أدوات تعبيرية ملائمة لتجاربه الحياتية والسياسية والذاتية المستجدة · وهكذا وجد القاص نفسه ثانية يعود الى مجرى الواقعية العريض · بفهم جديد وبتجربة غنية جديدة · وقد اكسبته ممارسته للتجريبية نزوعا نحو التجديد ومحاولة لتجنب عجز الاشكال التقليدية والانفتاح على التجارب الفنية والتكنيكية للفنون الاخرى ·

وهكذا فأن الواقعية التى بدأت تطل فى واقعنا الادبى لن تكون مجرد تكرار للصيغ التقليدية الانتقادية التى عرفتها القصة العراقية فى الخمسينات ، بل انها ستكون ـ نوعيا ـ واقعية من نوع جديد · فبدلا من الاستغراق فى عملية التسجيل الوثائقي للعصر والمجتمع ، ستطمح الواقعية الجديدة للغوص ما وراء المظاهر الخارجية للواقع والاشياء للكشف عن العلاقات السرية التى تتحكم فى مصائر الناس والاشياء · كما أنها ستمتلك شفافية وشاعرية وقدرة على الرمز والايحاء تتجاوز خشونة الايقاع الفوتوغرافي الذى يمثل امتداد (الطبيعية) فى قصتنا الواقعية · كما أن الرؤيا فى (الواقعية الجديدة) لن تكتفى بمعالجات

سكونية ، بل انها ستمارس وظيفة (تثوير) الواقع المتخلف وتغييره والتحرك نحو المستقبل ·

الا اننا لا يمكن أن نبالغ فى تفاؤلنا فى المسار اللاحق للاتجاهات القصصية الراهنة نحو مواقع الالتزام والانتماء والواقعية الجديدة ، فان تعمق ذلك مرهون باتجاه حركة التناقضات فى الواقع الاجتماعي وبقدرة القاص على استيعاب هذا الواقع ، واسقاط كافة الاوهام وعناصر القلق والضياع ، ومحاولته اتخاذ موقف منحاز وفاعل فى هذا الميدان · اذ أن صحو القاص من حالة الركود والانفصال ، والاشتراك الفعلي فى الحركة الاجتماعية والثورية ستلعب دورا بالغا فى كفه عن الاستغراق فى المسارب الجانبية التجريبية ، وعودته أكثر فأكثر الى مواقف صحيحة وايجابية وفاعلة · ولا شك فى أن توفير عوامل الاطمئنان والاستقرار السياسى والفكرى فى الواقع وتهيئة شروط حرية فكرية سليمة ، سيساعد القاص على تلمس طريقه بسهولة · أما حرمان القاص من مثل هذه الضمانات ، وازدياد تعمق التناقضات واضطرابها فسوف يزيد من عزلة القاص وبالتالى سيعجل من سقوطه ثانية فى الانغلاق الذاتي والصوفية والاستغراق فى تجريبية تفتقد أيما ضرورة فكرية أو حياتية أو تاريخية · وقد يؤدى ذلك بالقاص الى السقوط فى موقف عبثي هروبي من الحياة بسبب الصدمات المتالية التى يواجهها مما يجعله يرتعب من مواجهة الواقع فيؤثر الانسحاب النهائي الى عالم التجربة الذاتية المنغلقة والميتافيزيقية · الا اننا نعتقد بأن القاص الواعي الذى يملك تماسكا فكريا وأخلاقيا واصالة يستطيع رغم كل شيء المحافظة على توازنه وتماسكه وقدرته على فهم أبعاد الواقع وتحديد موقف فاعل وجرىء منه مهما ازدادت تناقضات الواقع قسوة وتشابكا ·

وبعد ··

فما هى (الشهادة) التى تقدمها مجموعتنا القصصية هذه ؟

نستطيع أن نجد هنا أقاصيص تنتمي للمحاولات التجريبية المختلفة التى عرفتها القصة القصيرة فى العراق ، كما نجد أن أقاصيص اخرى تنتمي الى مختلف روافد الواقعية وتمتلك تنوعا فى التناول الفكرى والتكنيك والرؤيا ·

والاقاصيص ذات الطابع التجريبي هنا هى أقاصيص : (ديوس أكس ماشينا) لجليل القيسى ، و (نزهة في شوارع مهجورة) لاحمد خلف و (حكايتان عن المدينة ن) ،

لموفق خضر ، و (رجل اسمه شريف نادر) لعبدالستار ناصر ، و (اهتمامات عراقية) لجمعة اللامي كما تقف قصة سركون بولص (الملجأ) فى منهجها قريبة من هذا الاتجاه ·

أما الاقاصيص ذات المنهج الواقعي فهي (الصورة) لغانم الدباغ ، و (الاعداء) لغازي العبادي ، و (ورقة الاحتجاج العاشرة) لخضير عبدالامير ، ، (طقوس العائلة) لموسى كريدي ، (الدائرة لا باب لها) لعبدالرحمن الربيعي ، و (الهجرة فى الايام الموءجلة من زمن السخط) لمحمد عبدالمجيد ، (الارجوحة) لمحمد خضير ، (طيور السماء) لفهد الاسدي ، و (الطير الاسود الصغير) لمحمد كامل عارف · ورغم ما فى هذه الاقاصيص من تنوع وتباين فى المنهج والمستوى الا أنها يمكن أن تصنف تحت اسم الاتجاه الواقعي ·

وفي الاقاصيص التجريبية هذه يبدو العالم يفتقد فى الغالب المنطق والعدالة ، وتسيره أحيانا كوابيس وقوى لامرئية ، ضاغطة · ويبدو فيها الانسان مجرد ضحية لعالم سري غريب · وفى عالم الضغوط هذه نادرا ما يستطيع الانسان التحرر من عالم الخوف والكوابيس والاحباط · ورغم أن معالجة القاص تظل تزاوج بين التناول الواقعي والتعبيرى · الا أن روءياه غالبا ما تكون محملة بهم ميتافيزيقي أو صوفي ومتسمة بتشكيل تجريدي واضح · والقاص هنا عموما يتخلى عن السرد التقليدى وعن التقيد بالاشكال التقليدية للقصة القصيرة ، وهو غالبا ما يلجأ الى استبطان ضمير البطل فى رحلة الى الداخل ، كما هو يلجأ الى المونتاج واستخدام (تيار الشعور) بشكل محدود · والقصة لديه تتجنب المباشرة والتصريح الواضح ، فهى تميل الى الشفافية والرمز والايحاء ، وتخبىء خلف مظاهر العالم المرئي الذى تقدمه مسارا لامرئيا للاحداث توءكده لغة ثرية معبرة تقترب من الشعر فى عذوبتها وصورها وشحنتها التعبيرية · الا أن الاقاصيص التجريبية تسقط أحيانا فى موقف عدمي أو عبثي أو صوفي ، أو تبالغ فى التوكيد على عجز الانسان تجاه الضغوط الخارجية والكوابيس التى تحاول سحق وجوده وحريته · كما أن هذه الاقاصيص معرضة دائما لخطر الاسراف فى التجريد · فالانسان يبدو صورة مطلقة نقية ، وليس انسانا تاريخيا يمتلك هوية حضارية وطبقية معينة · كما أن القضايا التى يواجهها ، والقوى التى يخوض الصراع ضدها ، والمناخ الذى يعيش فيه تبلغ أحيانا درجة عالية من التجريد ومن فقدان الخصوصية والانقطاع أحيانا عن أرض الواقع الاجتماعي ، ومن

مواجهة الصراعات الاجتماعية والتناقضات السائدة في المجتمع بصراحة وثورية ، وتحديد موقف ثوري فاعل يسهم في تغيير الاحداث بوعي ، ولا يتجاهل مشكلات العالم الواقعي الحيوية .

وتواجهنا قصة جليل القيسي (ديوس أكس ما شينا) كنموذج للاتجاه التجريبي هذا . ففي هذه القصة نجد عالما كابوسيا غريبا يواجه البطل : يتمثل في تلك اليد الخفية التي أمتدت في الحلم لقتله وصراعه معها . وفي جو القصة هذه يختلط عالم الحلم بالواقع . اذ يواصل البطل صراعه ضد تلك اليد الخفية التي طاردته في الحلم متمثلة في رجل السوق الذي يحمله مسوءولية الشر الذي يلحق بالمدينة .

وقصة جليل القيسي تذكرنا بمجموعته القصصية الاولى (صهيل المارة حول العالم) التي نجد فيها مزاوجة بين التعبيرية والتجريد ، حيث يواجه البطل دائما صراعا دمويا ضد قوى غامضة ورهيبة . ومما يلاحظ في هذا الصراع انه خلافا لمعظم المعالجات التعبيرية الكافكاوية لا ينتهي دائما بهزيمة البطل وانسحاقه أمام هذه الضغوط بل هو غالبا ما ينتهي باختصار البطل وسحق عوامل القهر عبر ممارسة وجودية لمسألة الحرية والاختيار ، وقد ينتهي هذا الصراع نهاية بطولية تراجيدية يتحول فيها الموت الى فعل بطولي وليس مجرد فعل مجاني أو موت استسلامي . وهذا ما يحدث ايضا في قصة جليل القيسي هذه حيث يواصل البطل صراعه ضد الكوابيس الحلمية في عالم الواقع حيث يستطيع الانتصار على رمز الشر واللعنة وحيث تعود الحياة الى صفائها وتزول لعنة الضباب ويصبح بامكان البطل عندئذ تحقيق تواصله الصحي مع الاخرين وممارسته للحياة اليومية متمثلة في علاقته بالفتاة .

في قصة جليل هذه نواجه عالما واقعيا ، ونماذج انسانية اعتيادية ، الا أن القاص باستخدامه للمنهج الكافكاوي يرفع هذا الواقع الى مرتبة الاسطورة ظاهريا عبر (التغريب) والفانتازي . وهو هنا يهدف ، بلا شك ، الى الكشف عن حدة الصراع الاجتماعي ، ولامعقولية العالم الخارجي ، وبطش القوى الغامضة التي تهدد عالم الانسان ، وهو نفس المنهج الذي استخدمه في مجموعته الاولى مع ميل أكبر لخلق نماذج انسانية حقيقية ومظاهر تقليدية للعالم الانساني والتقليل من درجة التجريد الذي كان يتناول به عوالمه القصصية السابقة . الا أن الموت في قصته هذه يظل يتقدم دائما كقوة مجهولة غير محددة الملامح . فبعد أن كان يتجسد في أقاصيص مجموعته تلك في صوت صهيل مجهول كما

فى اقصوصة (صهيل المارة حول العالم) و (الشوارع الاخرى أيضا) أو فى شكل سرب من الجراد كما فى (ثلاثة تلال من الجراد) أو فى صورة نسر كاسر ، أو صوت أجش فى قصص اخرى ، نجده فى قصته هذه يزاوج بين تلك اليد القذرة البشعة التى رأيناها فى قصته السابقة (الضفة الاخرى من البحر) وبين ذلك الصوت الاجش الذى سمعناه فى (ثلاثة تلال من الجراد) وفى قصص اخرى ٠

وهكذا فان قصة جليل هذه تمثل فى رؤياها وتكنيكها عودة الى مرحلة سابقة من تطوره هى مرحلة مجموعته الاولى (صهيل المارة حول العالم) التى استطاع فى السنوات الاخيرة من تجاوزها بأعمال قصصية جديدة أبرزها (الطيور المهاجرة غربا تأخرت) و زليخا : البعد يقترب) و (معسكر الاعتقال الصحراوى رقم ١٢٥) ٠

ان جليل القيسى قاص ذكي يمتلك أدوات القاص المعاصر ، ويمتلك أيضا رؤيا شمولية وقدرة طيبة على التطور ، وقد جاء تجاوزه للاشكال التعبيرية والتجريدية وارتباطه العميق بقضايا الثورة والانسان والمقاومة فى قصصه الجديدة يكشف عن الافق الانساني الذى ستصب فيه تجاربه القصصية القادمة ٠ ففي (الطيور المهاجرة غربا ٠٠٠) يقدم لنا القاص معالجة واقعية ـ رمزية للقضية الفلسطينية حيث يتصاعد الكفاح البطولي للشعب الفلسطيني ، ونجد تكنيكا ذكيا وتحركا بين مستويين تعبيريين وتاريخيين يصبان فى مجرى واحد هو تتويج قضية الثورة والمقاومة كطريق تاريخي لتطور وعي الانسان الفلسطيني ٠ غير أن قصته (ديوس أكس ماشينا) تسقط فى التجريد الذى ظلت تدور حوله مجموعته (صهيل المارة حول العالم) مما أفقدها الجدة والحيوية والشرعية ٠ لقد كنت أتوقع أن يواصل جليل القيسى مسيرته باتجاه (الطيور المهاجرة غربا ٠٠٠) لا أن يعود الى مرحلة سابقة ، يضطر فيها الى اجترار بعض الاجواء والمعالجات التى استنفذها سابقا كما فعل مثلا فى هذه القصة التى تستمد الكثير من أجوائها ورموزها من قصة (الضفة الاخرى من البحر) ، وكما فعل فى قصة جديدة له نشرها مؤخرا فى مجلة (الكلمة) ـ تموز ١٩٧٠ ـ وأعني بها قصة (هو ، هي ، هو) التى كرر فيها الموضوع الذى استنزفه سابقا وخاصة فى قصة (أنا ذلك المسافر) ونعني به استلهام التجربة الكافكاوية فى (القضية) و (القلعة) و (مستعمرة العقاب) ٠

ورغم كل ذلك فان طريق جليل القيسى ما زال ينبىء عن امكانات ضخمة فى المستقبل ٠

والى جانب قصة جليل القيسى هذه نجد قصة عبدالستار ناصر (رجل اسمه شريف نادر) · هنا أيضا تنفتح القصة على مطاردة يواجهها البطل من قبل رجل مجهول ، غريب الاطوار ، اسمه (شريف نادر) · ويعيش البطل فى جو من الحصار والرعب والاستجواب يشبه الجو الذى عاشه (ستيفن ك) بطل كافكا فى (القضية) حيث نرى البطل رغما عنه ، يساق الى محاكمة يجهل سببها ودوافعها · والقصة أيضا تذكرنا الى حد ما باقصوصة (مشوار قصير) للقاص المصري محمد البساطي من مجموعته (الكبار والصغار) حيث يساق البطل (الاستاذ سلاموني) الى مقابلة رجل لا يعرف اسمه ، وهو أيضا نفس المناخ الذى يتنفس فيه أبطال جليل القيسى فى معظم اقاصيص (صهيل المارة حول العالم) · ونجد بطل عبدالستار ناصر فى قصته هذه يتمزق بين الخوف من مواجهة الرجل المجهول ، والرغبة فى الهرب منه ، وبين الانسياق المرعوب نحو مواجهته خوفا من غضبه وبطشه · ويجد البطل نفسه يغرق فى الخمر لكي ينسى هذا الواقع ، الا أن ذلك لا يكون مجديا · اذ تبدو له كل الوجوه البشرية مثل وجه شريف نادر تطارده وتستجوبه · بل بدا له وجه الحارس هو وجه شريف نادر نفسه ، وأحس بأنه يتعرض لاستجواب مماثل فى كل خطوة يخطوها ، فاكتسب احساسا عميقا باستحالة خلاصه من المطاردة الدائمة ، وهو ـ خلال حالة الرعب هذه ـ يحاول الهرب من ذلك الرجل المجهول ·

وسواء أكان (شريف نادر يمثل قوة بطش خارجية قدرية أو سياسية أو كان يمثل وجها اخر لصراع البطل الداخلى ، فهو اشارة لحالة الرعب التى يعيشها البطل بفعل القوى الغامضة التى تواجه الانسان وتحاصره وتمسخه فى عالم ملىء بالضغوط والكوابيس السياسية والفكرية والتقاليد الاجتماعية والعقد السيكولوجية ·

ان عبدالستار ناصر يكشف هنا عن مسار جديد لاقاصيصه · فلقد ظلت أقاصيصه التى تضمنتها مجموعتاه القصصيتان (الرغبة فى وقت متأخر) و (فوق الجسد البارد) تدور حول بطل مركزي واحد : هو المراهق الذى تحركه عقدة (اوديبية) لممارسة سلوك جنسى مراهق يتلذذ فيه بممارسة اشكال المحرمات كعلاقاته مع زوجة الاب والتلذذ بمراقبة بطلاته وهن يتعذبن أو يمتن بسهولة غريبة · كما ظلت محاولاته القصصية السابقة ذات افق حسى مغرق ، اذ لم تكن تعبر عن أي هم فلسفي أو ميتافيزيقي · كان سلوك أبطاله بدائيا ، غريزيا ، يصل أحيانا حد البوهيمية والعصابية · وظل القاص يتطلع الى العالم عبر عيني بطله

المراهق المشبوب العواطف والذى يتحرك لا وفق وعي تأملي أو فلسفي بل وفق رغباته الغريزية البدائية البسيطة ·

أما في هذه القصة فنجد لدى القاص رؤيا جديدة ، ومحاولة لاحتضان هم فلسفي وميتافيزيقي ظل خافيا فى معظم أقاصيصه السابقة· ان عبدالستار ناصر يدرك جيدا ضرورة الخروج من شرنقة التجارب الذاتية والترجمة الشخصية وه نخطر تكرارها واجترارها · ولذا نراه ينطلق نحو معانقة التجربة الفلسفية وأبعاد العالم الخارجى ، عبر تناول تعبيري طيب · والقاص بهذا يضع خطوة أرسخ فى طريق تطوره كقاص معاصر · الا أنه يظل أيضا معرضا لنفس الخطر الذى يواجه المحاولات التجريبية والتعبيرية ونعني به خطر التجريد المسرف وتجنب تحديد الملامح التاريخية والخصوصية للحدث والموقف الانساني لحساب شمولية ، وعمومية تجريدية ·

وضمن هذا المسار نقرأ قصة أحمد خلف (نزهة فى شوارع مهجورة) وهى قصة ذات طابع تجريدي ، رمزي حاد تذكرنا على الفور بقصة نجيب محفوظ (تحت المظلة) · فحركة الاحداث لا تمتلك فى هذه القصة ذات التشكيل الواقعي الاعتيادي ، وتلك الارتباطات النفسية والمنطقية · بل ن الواقع اليومي لا يرتفع الى مرتبة الاسطورة فقط كما هو الحال فى قصة جليل القيسى مثلا ، بل يتعرض الى (التشويه) المقصود أيضا فى محاولة لكشف مسخ العلاقات الاجتماعية المشوهة فى التجربة القصصية وادانتها · فخلال موكب جنائزي ، يتبادل الرجل والفتاة الغزل بينما يخوض الرجال قتالا ضاريا من أجل لا شيء ، ويتجه الموكب أخيرا لشنق الرجل فى محاولة لفصله عن الفتاة · وهذا العالم الدموي الوحشى اللامفهوم واللامعقول هو نفسه عالم نجيب محفوظ فى (تحت المظلة) · وفى محاولة لاضاءة حياة البطل وأزماته ، يقدم لنا القاص فى الملاحظات الختامية كشفا لهموم البطل وفلسفته · ونكتشف فى بطل أحمد هذا ملامح كامية تذكرنا بشخصية (مورسو) حيث نكتشف معرفة البطل بموت امه وموقفه العبثي اللامبالى ازاء هذا الحدث ، وحيث تظل لعنة الام تطارده فى كل مكان · ويواجه البطل مصيره بكل برود ولا مبالاة وهو يتسكع فى الشوارع ويرافق النساء · وتحس به يسلك سلوكا عبثيا ، يكشف عن سأمه من الحياة ، واستعداده لتقبل أي مصير يواجهه بدون أي اهتمام لذلك ·

ان البطل هنا هو مزيج من بطل نجيب محفوظ فى (تحت المظلة) وبطل كامو فى (الغريب) وهو بعد ذلك

يمثل ادانة لعالم العلاقات الدموية الخارجي الذى يسحق رغبات الانسان وتطلعاته ويدمره بكل ميكانيكية ووحشية ·

ان أحمد خلف يكشف لنا هنا عن قدرة طيبة على تقديم رؤيا فلسفية شاملة للواقع الانساني قلما يبرز لدى أقرانه من القصاصين الشباب · وهو كقاص يضع خطواته فى أول الطريق يعد بعطاء طيب للقصة العراقية ، رغم قلة ما قدمه من كتابات قصصية لحد الان · اذ استطعنا ان نلمس فى معظم أقاصيصه عمقا ودقة وذكاء فى رسم المناخ القصصى ·

وفى الوقت الذى حاول فيه القاص التركيز على هموم فلسفية وميتافيزيقية فى قصته هذه وفى أقاصيص اخرى مثل (الذهاب الى سدوم) فانه قد كشف أيضا عن مقدرة طيبة فى أقاصيص عن المقاومة والمعركة كقصتي (خوذة لرجل نصف ميت) و (صمت سري مضيء) · وتتناول القصة الاخيرة فعل المقاومة المتصاعد لدى الناس البسطاء داخل الارض المحتلة بتلقائية وبساطة تذكرنا بمناخ (سداسية الايام الستة) لاميل حبيبى ، كما يبرع القاص فى (خوذة لرجل نصف ميت) فى تقديم معالجة ذكية وعميقة عن الحرب والمعركة بمستوى رمزي ، وباستخدام متميز لفكرة الزمن عبر تكنيك ناضج ومعاصر · ونعتقد أن تطور أحمد خلف القصصى مرهون بمحاولته اكتساب صوت قصصى متميز يزاوج فيه بين العالم الخارجي والداخلى وبين التطلعات الدنيوية والميتافيزيقية دونما اسرف فى التجريد والتصوف وبفهم أعمق لقوانين الضرورة التاريخية والجمالية ولمسؤولياته كفنان وانسان ازاء مصائر البشر ·

وتلتقي مع هذه المعالجات قصة موفق خضر (حكايتان عن المدينة ن) · فالبطل هنا يحاول التخلص من حالة الخواء والضياع التى تلفه ، ويتبدى له طريق الخلاص خلال ذلك الصوت السري الذى يأتيه من أقصى المدينة عبر التلفون ، وظن البطل أنه قد وجد فيه حلمه المفقود الذى يستطيع أن يملأ فراغ حياته · ولذا يظل يلهث وراء هذا الصوت النسائي الدافيء الذى اعتاده · والجنس فى هذه القصة لا يكتسب قيمة حسية ، بل يكتسب قيمة فكرية وصوفية تملأ حاجة البطل للهدف المفقود والقيمة الانسانية · الجنس هنا بحث صوفي عن شيء مفقود ، وتوق لمعانقة المطلق · وهو هنا فى معالجته يذكرنا بمعالجات القاص موسى كريدي فى مجموعته الاولى (أصوات فى المدينة) وبصورة المرأة فى بعض أقاصيص غازي العبادي فى مجموعته (حكايات من رحلة السندباد الثامنة) حيث تظل المرأة مجرد حلم مستحيل ومحاولة للتعويض عن

تخلخل العالم الداخلي للبطل وخوائه · وهكذا ففي اللحظة التي ظن فيها بطل موفق خضر أنه قد اقترب أنه قد اقترب من لحظة التحقيق والاكتشاف · حيث سيكتشف العالم والمطلق وتتوهج أمامه القصيدة الهاربة ، في هذه اللحظة بالذات يصاب بصدمة الانفصام والاستحالة حيث يستحيل لقاؤه مع المرأة ـ الحلم التي تظل معلقة بين طابقين ، ويظل هو يركض يستجدي الاخرين الذين يصمون اذانهم عن سماع نداءاته اليائسة · انه بحث عن الامل الذي لن يأتي · انه وجه (جودو) الذي لن يطل أبدا ، والقصيدة التي لن تولد أبدا ·

لقد استطاع موفق خضر في هذه القصة ان يتخطى نفسه وأن يتجاوز معظم كتاباته السابقة التي ظلت تنتمي الى القصة الواقعية الخمسينية بما تحمل من مظاهر متخلفة تسرف في الاهتمام في نقل التفاصيل الحسية الثانوية والالتصاق بابعاد التجربة اليومية بمستوى التقرير والتسجيل ، وأختفاء الرمز والشفافية والايحائية · وقد برزت عوامل التخلف هذه في الكثير من اقاصيصه السابقة في مجموعتيه القصصيتين (الانتظار والمطر) و (مرح في فردوس صغير) وفي روايته المبكرة (المدينة تحتضن الرجال) ·

وفي الطرف الاخر من هذه المعالجات نلتقي باقصوصة سركون بولص (الملجأ) التي تكشف عن ممارسة غريبة للبطل الشاعر الذي حاول اعتزال العالم ، فبنى له صومعة يلجأ اليها احيانا مستخدما في استخدامها كوسيلة للانتحار والتخلص من مواجهة احساسه العبثي بالعالم · الا ان هذا البطل سرعان ما يكف عن رغبته هذه عندما يقف مامه الرجل الطيب حارس الشاطيء فيتسبب في موته لانه حذره من الانسياق وراء فكرة الموت والانتحار · واللقطة هنا تذكرنا بعالم زرادشت في ·· هكذا تكلم زراوشت ، وبالشيخ الذي التقى بذلك الشاب وحوارهما عن الله الذي مات · والقصة هنا تكشف عن عجز البطل عن الالتقاء مع الاخرين في مشروع انساني بناء · انها محاولة لتتويج عزلة البطل ولا انتمائيته لعالم الاخرين · والقصة بعد ذلك ، بادائها التعبيري ، لا تكشف عن نزوع انساني نحو المستقبل بل تحاول تكريس الاعتكاف الذاتي والسقوط في السادية ورفض الروابط البشرية عموما ·

ان سركون بولص قاص مثقف ، بدأ بداية طيبة وجريئة في الكتابة القصصية الا ان الصحافة والترجمة سرعان ما التهمته وحددت قدراته الابداعية · وهو يحتل مكانه طيبة لانه كان من الاسماء القصصية الاولى

التى دشنت الستينات بهذه الاتجاهات القصصية الجديدة فى العراق . اذ بينما كان معظم قصاصي الستينات الشباب يصغون اولى خطواتهم فى طريق الكتابة القصصية وكانوا فى طور (التلمذة) والتكوين كان سركون بولص قد استطاع ان يفرض وجوده قاصا متمكنا يمتلك ادوات القاص الواعى . الا انه ظل اسير تلك النزعة التشاؤمية والوجودية التى اغرقت عالمه القصصى بالعبث واللامعنى والرفض . ومع ذلك يظل سركون بولص اسما لا يمكن اهماله بعين قصاصى الستينات كان يؤمل منه الشيء الكثير . الا ان هجرته خارج العراق واشتغاله فى الصحافة اللبنانية وصحته كقاص قد حرم القصة العراقية من صوت ذكى وعميق ومثقف .

واخر نموذج يمكن أن يضاف الى هذا الاتجاه القصصى هو جمعة اللامى فى قصته (اهتمامات عراقية) التى قدم فيها منهجا فنيا يتسم بالجدة والجراة والطرافة ، ولا نجد له مثيلا بين تجارب أقرانه من القصاصين العراقيين . فهنا يخلق القاص تداخلا بين الماضى والحاضر خلال سرد سيرة واستشهاد الامام الحسين فى كربلاء . ونكتشف عبر هذا التداخل اوجه الترابط والشبه بين شخصية الحسين وشخصية ثورية معاصرة هى شخصية جيفارا . واستلهام التجربة التاريخية فى قصة جمعة اللامى هذه يذكرنا بمحاولات القاص المصرى جمال الغيطانى وفى منهجه فى تناول صور من التاريخ المصرى فى العهد المملوكى كما هو الحال فى قصته (غريب الحديث فى الكلام عن علي بن الكسيح) وغيرها . كما ان استخدام اللغة هنا يتفق الى حد كبير مع منهج جمال الغيطانى فى بعثه للغة تراثية حكائيه تقرب الى لغة المقامة عند العرب . كما ان المزج بين الماضى والحاضر يذكرنا بتجارب اخرى للقصاصين المصريين الشباب مثل اقصوصة عبدالعال الحماصى .. يوحنا الامريكى يبشر فى الحانة .

ورغم تقديرنا لمحاولة جمعة اللامى القصصية هذه ، الا انه لم يستطع ان يخلق لنا قصة ممتلئة تمتلك معاولا تعبيرية لتجربة داخلية او فكرية معينة . أذ نشعر حال الانتهاء من مطالعتها ان هنالك أشياء كثيرة لم تجسد فنيا بما فيه الكفاية . كما ان القاص لا يدعنا نكتشف التماثل بين شخصية الحسين وجيفارا بشكل فنى او عبر حدث درامى او موقف معين ، بل هو يروح يؤكد ذلك بشكل مباشر عن طريق المحاكمة الذهنية بحيث انك لا تستطيع ان تجد فى ذهنك انطباعا محددا عن جوهر الحدث والقضية . وكل ما يبقى فى ذهنك هو ان هنالك حوار بين القاص الذى يريد ان يكتب سيرة الحسين واستشهاده ، لا كما يرويها (ابو

مختف) بل عبر رواية عصرية تخلق تداخلا بين سيرة الحسين وسيرة جيفارا ، وبين (صوت) اخر ينبعث احيانا ليحاور القاص حول ما يكتب. ويظل هذا الحوار المحور الاساسى الذى يهيمن على الجو القصصى مما يكسبه نوعا من الذهنية والمباشرة . وكان بامكان القاص استخدام (صوت المؤلف) و (الصوت) بروح ملحمية بريختية ، حيث يتدخل المؤلف او الكورس للاشتراك فى التعليق عن الاحداث الانية ليثير فى القارىء لذة المشاركة والتفكير العميق فى مصائر ابطاله وتحفيز احساسه بالمسؤولية تجاه ما يجرى من احداث . الا ان ما حد من امكانية ذلك فى قصة جمعة اللامى هذه افتقاد التجربة ذاتها لاى كثافة درامية او أى نمو داخلى مما حول الاصوات هذه الى مناقشات ذهنية وغنائية .

ومع ذلك تظل قصة جمعة اللامى قصة ناجحة وجريئة حاول فيها القاص ان يطل علينا بنبرة جديدة تتسم بالتطلع للثورة عبر خلق البطل الاسطورى وبلغة تقرب من الشعر . وهى محاولة طيبة تضاف الى محاولاته القصصية الاخرى وخاصة اقاصيصه (من قتل حكمة الشامى)و (مغامرون) و (العنقاء والهزيمة) وحكايات من زمن الاتى حكمة الشامى التى كانت تعبر عن توق عارم للتجديد التكنيكى وتجنب التكرار والاجترار ، ومحاولة التعبير عن قيم فكرية واخلاقية وميتافيزيقية عميقة.

ان جمعة اللامى من القصاصين القلائل الذين يدركون قيمة الكلمة . ويحاول دائما أن يخلق تجارب جديدة فى القصة العراقية . الا ان بداياته القصصية كانت تسرف احيانا فى الجرى وراء التجريب التكنيكى دونما ضرورة فكرية او فنية احيانا . فجمعة اللامى كان اكثر قصاصينا ولعا بالتجريب والاغراب والابتكار . ولكن تجاربه القصصية الاخيرة تشير الى قدرته على التخلص من هذا المأزق والعمل على اكتشاف اسلوب خاص له . ولاشك فى أن السنوات القادمة ستكشف عن تكامل شخصيته القصصية والفنية والفكرية وستمكنه من تقديم معالجات فنية وانسانية واعية عبر كشف جرى للواقع الانسانى وتطلعاته دونما مساومات او زيف او ديماغوغية .

وهكذا نستطيع ان نكتشف امكانات التشكيل التجريبى ـ التعبيرى فى القصة العراقية . وهو كما واضح يحمل توقا للتجديد التكنيكى فى الادوات التعبيرية والبنائية ويطمح للتعبير عن هموم فلسفية ـ انسانية وميتافيزيقية ذات ملامح شمولية وكونية احيانا . كما يدور التشكيل التجريبى حول شخصية قصصية مركزية عادة ، تبدو الشخصيات الاخرى

ازاءها مجرد شخصيات هامشية ، وكجزء من الديكور والارضية الاجتماعية · وفى كل هذه الاقاصيص لا نجد ذلك الاسراف فى رسم الملامح الواقعية للعالم الخارجى ، بل نجد الاشارة السريعة ، والتخطيط المعبر ، واللغة الموحية المكثفة التى تعوض عن النقل الفوتوغرافى ـ الطبيعى ـ للواقع ·

كما نلاحظ ان هذه المحاولات لا تنغلق ـ عموما ـ على ذاتها او تنقطع عن عالم الانسان · فهى تظل تمد جذورها فى الواقع الاجتماعى والسيكولوجى فى مجتمعنا · ولهذا فهى لم تتحول الى اتجاه نخبوى (طليعى) يفقد صلته بالجمهور ، ويتحول الى مجرد معادلات تجريدية مقطوعة الجذور عن ارض الواقع · ولاشك ان هذه السمة هى سمة خاصة بالمحاولات التجريبية فى القصة العراقية حددتها الظروف التاريخية الخاصة لوعى القاص والمجتمع · فالقاص العراقى رغم كل ازماته ظل يحمل هم شعبه وتطلعاته · ولذا وجدنا القاص التجريبى فى اواخر الستينات ، وفى مطلع السبعينات ينعطف ثانية نحو روافد الواقعية بفهم تاريخي وجمالى جديد · وليس غريبا ان نجد القاص التجريبى يقدم معالجات انسانية هادفة وواقعية تعيد صلته بالواقع الانسانى وبقضية الثورة والمستقبل ، وبعيدا عن الاوهام الصوفية والنرجسية · الا ان التطور الصحى للاتجاهات التجريبية هذه وعودتها الى مجرى الواقعية الجديدة يرتبط بتعمق وعى القاص التجريبى وادراكه لوظيفته ومسؤوليته التاريخية وفهمه الجدى لقوانين التاريخ والمجتمع والارتباط بقضية الجماهير والمستقبل · والا فستظل مخاطر التجريد والسقوط فى التصوف والانغلاق الذاتى والانعزال عن الحركة التاريخية المعاصرة وقضية الانسان فى بلادنا تهدد الاتجاهات التجريبية فى القصة العراقية ·

والى جانب المحاولات التجريبية هذه نجد في هذه المجموعة أقاصيص تنتمي الى مختلف روافد الواقعية في القصة العراقية · فنجد الكثير من موءثرات وبقايا القصة الخمسينية في أقصوصة غانم الدباغ « الصورة »، وملامح أقل نسبيا في أقاصيص « ورقة الاحتجاج العاشرة » لخضير عبدالامير ، و « الاعداء » لغازي العبادي ، و « العنكبوت » ليوسف الحيدري · كما نجد أقاصيص تمتلك أفقا واقعيا أوسع واكثر فنية وشفافية في أقاصيص « الارجوحة » لمحمد خضير و « طيور السماء » لفهد الاسدي ، و « الطير الاسود الصغير » لمحمد كامل عارف ، و « طقوس العائلة » لموسى كريدى و « الدائرة لاباب لها » لعبدالرحمن الربيعي ، و « الهجرة في الايام الموءجة من زمن السخط » لمحمد عبدالمجيد · وهذه

الاقاصيص الاخيرة ، رغم أنها تحمل الكثير من ملامح القصة الواقعية الانتقادية الخمسينية الا أنها أيضا تمتلك خصائص فنية وفكرية جديدة كاستخدمها للرمز الموحي وللغة الشاعرية ولرويا الداينميكية ، كما أنها تستخدم تكنيكا عصريا يستفيد من منجزات الفن القصصي العالمي ويتجنب الاشكال التقليدية والرد ولمباشرة والالحاح على موقف اخلاقي متزمت ، كما تتميز بعدم أسرافها في الاهتمام بالنقل الوصفي للجزئيات ومحاولتها أحتواء أفق فلسفي وأنساني وفق رويا أيجابية فاعلة ٠

في قصتي « الصورة » و « ورقة الاحتجاج العاشرة » ميل للتحليل السيكولوجي ، وأهتمام بالغ بالعالم الخارجي، بابعاده الحسية والحضارية والعرفية المختلفة ٠ في « الصورة » يكشف غانم الدباغ عن موقف أخلاقي وفكري واضح ٠ فالبطل الصغير ، الذي يحلم بالحصول على صورته الفوتوغرفية يواجه سلوكا جافا لامباليا من قبل الاب الذى يرفض تلبية تطلعات ولده الصغير ٠ وحالة الحرمان والبوءس واللاحنان هذه التي يعيشها البطل الصغير تلفه في دوامة رهيبة من تزعزع القيم الاخلاقية والاسرية تدفعه في النهاية الى السقوط الاخلاقي ٠ لقد أستطاع القاص في هذه القصة أن يرسم بشكل بارع الجو السيكولوجي المتطور لازمه البطل الصغير وتطلعاته الساذجة ٠ الا أن حركة القصة باتجاه السقوط الاخلاقي جاءت اخلاقية تحذيرية لامسوغ لها ، وكأن القاص بذلك يضع ضوءا أحمر أمامنا يعلن فيه صراحة ان عدم تلبية المطاليب المشروعة للصغار قد تدفعهم للانحراف والسقوط ولو ترك القاص النهاية مفتوحة ، حيث البطل الصغير في صراع وخيبه وحرمان وضعف امام لاغراءات لكان افضل واكثر شفافية وايحائية واعمق تأثيرا في القارىء وتحفيزا لمشاعر المشاركة والتفكير لديه في مصير البطل ومشكلته الخطيرة ٠ اما تتويج هذا الصراع بذلك الموقف الاستسلامي فلا يكشف الا عن نظرة ضيقة لممارسة الوظيفة الاخلاقية في الفن ، كما ان ذلك يجعل القضية التي تطرحها القصة منتهية في ذهن القارىء بعد ان حسمها القاص بهذه النهاية الصريحة المباشرة ٠ قد يقال ان هذا مايحدث في الواقع أحيانا ، ولهذا فليس غريبا ان يسجل كشكل من أشكال أدانه العلاقات الاجتماعية والاسرية المتخلفة ٠ ومن الواضح ان وظيفة القاص لاتكمن في الالتصاق بأبعاد الواقع المعاشى كافة بل في اعادة تنظيم الواقع ومنحه دلالة وقيمة تعبيرية خلال تشكيله تشكيلا جماليا ٠ فمايحدث في الواقع الفعلي ، قد يتخذ لدى القاص الواعي مسارا مغايرا تماما ٠ وهذه المسألة تذكرني ببعض المعالجات القصصية للقاص يوسف الحيدري لمسألة الانحراف الجنسي ، ومنها قصته « الحصان ٠٠ والجدار الزجاجي » المنشورة في مجموعته القصصية

الثانية « رجل تكرهه المدينة » حيث يقدم لنا القاص فيها سلوكا جنسيا منحرفا ـ لوطيا ـ لابطاله · وليس الاعتراض على أمكان تناول مثل هذه التجربة ولكنه في طريقة تناول التجربة عبر موقف تبريرى وتفسيرى فقط يمثل في الواقع تواطوءا مع البطل اللوطي · حتى اننا لنحس بموقف القاص المتواطىء المتحاز هذا يضع القصة في موقف أقل مايقال فيه انه موقف فوتوغرافي غير داعي ، ان لم نقل انه موقف تحلي متخلف ، يلغي تأثير القاص في أعادة تشكيل وتنظيم ملامح العالم الخارجي وفق روءيا واعيـــة ·

وهذه الملاحظة تنسحب على الكثير من أقاصيص غانم الدباغ ، وخاصة تلك التي كتبها في الخمسينات والتي مثلتها مجموعته القصصية « الماء العذب » · وهذا يعود طبعا الى ان معظم أقاصيص غانم الدباغ · ترتبط فنيا وتاريخيا بالمرحلة الخمسينية ، بل ان بعض أقاصيصه تنتمي لما قبل الفترة ـ التكرلية ـ في القصة العراقة ، وذلك لان القاص أكبر سنا من قصاصي الستنات الشبان · الا انه رغم ذلك يختلـــف عن قصاصي الخمسينات في حيويته وقدرته على مواصلة الكتابة المتطورة في العقـــد الستيني بنشاط ملحوظ · وقد قرأنا له محاولات قصصية جديدة تكشف عن تطوره منها « الشلال » و « سوناتا في ضوء القمر » وغيرها ويبـدو أن مجموعته القادمة ستكشف بشكل أفضل عن قدرته على التطور خـلال السنوات الاخيرة ·

ومع قصة غانم الدباغ تقف قصة خضير عبدالامير « ورقة الاحتجاج العاشرة » وهي قصة جيدة لاتقف عند حدود التسجيل والمراقبة ، بـــل تقدم تجربة فريدة ضمن طقوس دينية واضحة يمارسها الشيعة في العراق في ذكرى استشهاد الامام الحسين · ويمتلك هذا الجو قدرة ضخمة عـلى العطاء ، ولكن القاص العراقي ظل في الغالب يتجنب الدخول الى هـــذا العالم حذرا من أثارة الحساسية الدينية والعرفية لدى الناس ، وعندمـــا كان القاص يتناول هذا الواقع احيانا كان يقف غالبا على الهامش · الا ان خضير عبدالامير أستطاع ان يتجاوز الهامشية في تناول هذه التجربة عبر رحلة داخل ضمير بطل يمارس هذه الطقوس ارتباطا بتجربة ذاتيـة خاصة · والجديد الذي أستطاع القاص هنا تقديمه هو الربط الذكي بين الحزن الفردي والحزن الجماعي ، بين الحزن لقضية شخصية ـ هى موت الابن ـ والحزن من أجل قضية كبيرة هي أســـتشهاد الامام الحسين وأصحابه في كربلاء · ونحس ان البطل خلال الايام التسعة كان يحس بوطأة حزنه الشخصي الثقيل ، لانه كان مجرد حزن شخصي يعانيه وحيدا أما في اليوم العاشر ، فقد وجد نفسه يشارك الاخرين في حزن أنسانـي

جماعي · وخلال هذه المشاركة يتحول الحزن الى أمل ، وأي قيمة انسانية أسمى وابعد عمقا ودلالة · وهكذا فخلال لحظات توحد الهموم الشخصية والجماعية يكتشف البطل القدرة على الفرح والتطلع نحو المستقبل وتجاوز الحزن المحبط · وهكذا تكتسب الطقوس الدينية هنا قيمة أنسانية تذكرنا ببعض معالجات القصة الروسية لدى غوركي وجيكوف في تناول مثل هذه الطقوس · وخضير عبدالامير هنا يقدم لنا الحدث عبر تشكيل درامي ناضج وعبر رصد دقيق لاعماق البطل وهمومه بعيدا عن السرد والتقرير والمراقبة الهامشية · وبهذا تتحول القصة الى اضاءة انسانية ذكية للامل البشرى خلال الحزن لجماعي حيث تكتسب الطقوس الدينية لا مجرد قيمة دينيه مطلقة ، بل تكتسب قيمة الرابطة البشرية الجماعية التى تتحول الى عنصر للالهام والفرح والتجاوز عند الانسان · وخضير عبدالامير هنا يتجاوز الكثير من محاولاته القصصية السابقة التي قراناها في مجموعاته الثلاث « حمام السعادة » و « الرحيل » و « عودة الرجل المهزوز » التى تشكل القصة المذكورة أبرز قصصها ·

ان تناول مثل هذا الجو فى القصة العراقية الستينية يطل علينا عبر محاولات اخرى منها قصة (الشفيع) لمحمد خضير ، وقصة (طقوس العائلة) لموسى كريدى ، كما أن وجها اخر من هذا الجو القصصى رايناه عبر قصة اللامي (اهتمامات عراقية) ·

فى قصة موسى كريدى (طقوس العائلة) نجد محاولة أوسع لجمع خطوط هذا العالم الضخم وكشف جوانبه المختلفة وأجوائه السرية وكل ما يجرى وراء مظاهره الخارجية لا عبر موقف حيادى كما هو الحال فى قصة خضير عبدالامير ، بل عبر موقف نقدى تقيمى واضح · الا أن ما يجعل قصة موسى كريدى تختلف عن قصتي خضير عبدالامير ومحمد خضير هو نها ـ على خلافهما ـ تتناول العالم الداخلى للتجربة لا من حركة داخلية تربط ببطل يمارس هذه الطقوس بل عبر عيون مراقبين خارجين يحاولون تجميع الاجزاء الكلية لهذه الطقوس دون الاستغراق فى تجربة حسية صغيرة بالذات · ومع ذلك فان القاص لا يكتفي هنا بالقيام بعملية تسجيلية أو تدوين مشاهدات البطلين ، بل هو يحاول عبر اعادة تشكيل روابط هذه الاحداث ـ عبر التوازى والتعارض ـ تقديم موقف فكرى وتاريخي ونقدى لهذه الطقوس وبمواجهة صريحة لجوهرها ·

أن موسى كريدى هنا يكشف عن وجه اخر لم يكن بارزا لديه فى مجموعته القصصية الاولى (أصوات فى المدينة) حيث وجدناه فى بحث صوفي أزلى عن قيم السعادة والحرية والمطلق تتحول فيه القصة لديه الى

اشارة فكرية معبرة تكشف عن الفراغ الروحي والفكرى لابطاله المأزومين وحاجتهم الى الامتلاء والتكامل · ولا شك فى أن قصته هذه واقاصيص جديدة اخرى تضمنتها مجموعته القصصية الجديدة (خطوات المسافر نحو الموت) تبلور المسار الجديد الذى سيسير عليه القاص فى المستقبل وبمزاوجة بين الهموم الميتافيزيقية والاجتماعية ، وبالتصاق أكبر بقضية الاخرين والانسان والحرية ·

وضمن رؤيا الواقعية الحديثة نلتقى بقصة غازى العبادى(الاعداء)· وهى قصة تتميز عن معظم اقاصيص هذه لمجموعة بتناولها المباشر الصريح لجانب مهم من جوانب حياة الطبقة العاملة فى بلادنا · وهو ميدان نادرا ما يقترب منه القاص العراقى الذى يكرس جل اهتمامه لتناول نماذج برجوازية صغيرة مثقفة ـ يلتقى بها بفعل وضعه الاجتماعي ومركزه الطبقي · او يكتفي بتناول بعض النماذج الشعبية المسحوقة وبعض النماذج الفلاحية والريفية · أما موضوع العمل الصناعي الحديث وتكوين الطبقة العاملة ومشكلاتها ، فمسالة لم يقترب منها القاص العراقي بتفهم وحرارة ، وأن تعرض لها احيانا فبروح المراقبة الهامشية والحذر · ولا نستطيع أن نقول أن قصة غازى العبادى هى نموذج للقصة العمالية في أدبنا ، أو تكشف عن شكل اخر من أشكال الواقعية الاشتراكية · الا اننا نستطيع أن نقول انها تمثل لقاء الواقعية الانتقادية بالواقعية الاشتراكية · ورغم اهمية هذا الجو ، فاننا نشعر بأن هذه القصة لم تتكامل فنيا بعد ، لذا جاءت غير متماسكة ومتخلخلة كما انها لم ترتكز الى مصطلح تكنيكى واضح خاص بها · ورغم ذلك فانها قد استطاعت أن تقدم لنا صورة مستقبلية للواقع العمالى خلال كشف روح الوحدة والتعاون والترابط بين مصائر البطل الصغير والعامل الريفى ، حيث يكتشف البطلان انهما رغم ما بينهما من خلافات ظاهرية ينتميان الى طبقة واحدة ·

ورغم اعتزازنا بمثل هذه المحاولات القصصية ، فاننا لا يمكن أن نتجاهل مخاطر وقوعها احيانا فى الشعارية والمباشرة والايغال فى الرمز السياسى المكشوف والاسراف فى الوصف النقلى والتسجيلى ، وعدم العناية بفنية القصة ولغتها ، وافتقارها احيانا الى التلقائية والشفافية ، والمبالغة احيانا فى تضخيم وتصعيد التوتر الدرامى والداخلى للحدث لتحقق دلالة معينة · فتضامن البطلين فى قصة غازى العبادى هذه مسالة مشروعة ومبررة ، الا أن المسار اللاحق للاحداث اتخذ صفة المبالغة والتهويل والميلودرامية ، والحماسة السياسية · وكان بالامكان الاستعاضة عن كل ذلك بموقف اكثر بساطة وعفوية ينسجم ومستوى وعي البطلين واستعدادهما ·

أن غازى العبادى هنا يكشف عن مسار قصصى جديد فى كتاباته، لم يكن بارزا بشكل واضح فى مجموعته القصصية الاولى (حكايات من رحلة السندباد الثامنة) ، التي كانت تستلهم حياة بطل مركزى واحد هو القاص نفسه · ففي هذا المسار راح القاص يولى مسالة الصراع الطبقى اهمية أكبر ، وراح يحدد موقفا ثوريا متفائلا لمسار الاحداث بروءيا واقعية حديثة ـ تقرب كثيرا من مواقع الواقعية الاشتراكية ـ ويمكن ملاحظة ذلك فى بعض اقاصيصه الاخيرة منها قصة (القمر لا يستحى) · كما نجد فى المحاولات القصصية رغبة فى التجديد التكنيكى وتجاوز الصياغات التقليدية للقصة الواقعية النقدية ، والعناية بالشكل الخارجي واللغة · الا أن هذه المحاولة تظل تحمل بقايا التنكيك الخمسينى فى القصة العراقية ، كما أنها تسقط احيانا فى نوع من الافتعال والزخرفة والعناية باكساب القصة (شكلا خارجيا) لا يوازى (الشكل الداخلى) للقصة الذى يمثل طريقة تناول القاص وأسلوب الطرح لديه والحبكه القصصية والنمو العفوى للحدث من الداخل ·

فقد حاول القاص هنا أن يقسم القصة الى لوحات ومقاطع مستخدما عناوين فرعية لا مسوغ لها · اذ وجدنا أنفسنا أمام حشد من العناوين الفرعية واللوحات غير الضرورية · ومن المعروف أن القاص يلجأ احيانا الى اللوحات المقطعية والعناوين الفرعية عندما يريد الربط بين لوحات اجتماعية ونفسية متباينة وتجارب متباعدة أو متوازية أو متعارضة ، بخيط خفى غير مرئي · أما عندما تسير احداث القصة (بتماسك) ، و بتطور عضوى ، فلا مبرر عند ذاك لمثل هذا التقطيع ، لان العناوين الفرعية غالبا ما تجهض الفكرة القادمة ، أو تعلن عن جوهر القضية أو التجربة التى سيطرحها المقطع القصصى الجديد بشكل مباشر ولقد وجدنا محاولات قصصية ناجحة لجمعة اللامى وعبدالرحمن الربيعي وخضير عبدالامير وموسى كريدى ، استخدمت تكنيك القصة المقطعية بمستوى يقرب من محاولات القصصيين الشباب فى العربية المتحدة · أما قصة غازى العبادى (الاعداء) فقد جاءت مرهقة بشكل غير مبرر بحشد من العناوين الفرعية التى يمكن الاستغناء عن الكثير منها دون التأثير فى القصة مطلقا · وهذا يعنى عدم ضرورتها ، وعدم انبثاقها من جوهر التجربة الداخلى ·

أن مخاطر الافتعال والزخرفة التكنيكية تظل تهدد معظم القصاصين الشباب ، التجريبيين والواقعيين على السواء · ورغم شرعية التطور التكنيكى ، الا أن ذلك يجب أن لا يكون غاية لذاته ، بل يجب أن ينبع

من الحركة الداخلية للقصة ومن ضرورات فنية وفكرية معينة · وليس معنى ذلك أن على القاص أن يسقط من حسابه كل الاشكال التكنيكية والتعبيرية ليقيم اشكالا جديدة مقطوعة الجذور عن التراث الفنى السابق اذ أن العمل الادبي أو الفني هو ليس مجرد انعكاس للواقع الموضوعي أو للتجربة الحياتية ، بل هو ايضا ـ وبالمستوى نفسه ـ انعكاس داينميكى للاشكال التكنيكية والتعبيرية عبر التاريخ

أما فى قصة يوسف الحيدرى (العنكبوت) فنجد وجها اخر لادانة الواقع السياسى الذى يتحمل احيانا مسوءولية سحق الانسان ومسخه · فبدلا من التجريد الذى واجهناه فى بعض القصص التجريبية نجد هنا مواجهة صريحة ، بمستوى بعيد عن المباشرة والتقدير ، فهنا نرى البطل يمسخ بفعل الاضطهاد والتعذيب · ونتذكر على الفور عالم يوسف أدريس في (العسكرى الاسود) ، فالبطل هنا ، الذى تعرض للتعذيب ، وقتل الجلادون شقيقه الاصغر بسببه ، يصاب بصدمة عصبية تجعله يبدو كالمجنون · اذ ظل يمزقه احساس مزدوج : احساس بانه يتحمل ـ بشكل أو باخر ـ مسوءولية مقتل اخيه الصغير ، ورغبة عارمة فى الانتقام من القتلة والجلادين ، ولكنه اذ يجد نفسه عاجزا عن تحقيق انتقامه بطريقة ثورية ، عوض ذلك بقتل العناكب ·· فهي أيضا ـ فى تصوره ـ صورة اخرى للقتلة ومصاصى الدماء · وهكذا يمتزج اصرار البطل على اصطياد العناكب ، بالرغبة فى الانتقام من القتلة فى حالة من الاستغراق فى الهلوسة والهذيان العصابي ·

ان البطل الممسوخ هنا ، الضحية للاضطهاد السياسى ، يمثل ادانة صريحة لعالم لا يحترم حرية الانسان ، وهو يصر على أن يخوض حربه الخاصة حتى النهاية ضد المسخ والاضطهاد والقتل ومن اجل عالم انساني نظيف ·

أن يوسف الحيدرى ، القاص الذى عرفناه سابقا عبر مجموعتيه قصصيتين هما : (حين يجف البحر) ، و (رجل تكرهه المدينة) ينجح هنا فى الكشف عن جانب انسانى واجهه فى بلادنا ، واستطاع أن يتجنب الكثير من المآخذ التى كانت تسجل على محاولاته القصصية السابقة وخاصة تضخيم وافتعال الازمات الذاتية والعبثية والوجودية لابطاله والاستغراق فى تداعيات وانثيالات لفظية وشعرية بمعزل عن انماء الجو الداخلى للتجربة ، وتكرار الوجوه القصصية والازمات ، والاجواء ، بشكل كان يجعل الكثير من أقاصيصه لا تمتلك هويتها

الخاصة التى تميزها عن تجاربه الاخرى ونحن نامل أن تكون قصة (العنكبوت) بداية جادة لتطور القاص نحو اكتشاف طريقه الخاص بروح التفهم والايجابية والجرأة فى مواجهة الواقع ·

ونلتقي بعد ذلك بقصة عبدالرحمن الربيعي (الدائرة لا باب لها)، وهى محاولة تختلف عن الكثير من محاولاته القصصية المبكرة التى بدأ بها حياته القصصية فى الستينيات · فهنا نجد جوا قصصيا يحمل الكثير من الملامح الواقعية والتسجيلية يحاول اكتشاف الملامح الشخصية والسيكولوجية للبطل الغريب لذى يحل بالمدينة · ونجد هنا تشابها بسيطا بين شخصيتى الغريب فى هذه القصة وبين شخصية (مصطفى سعيد) بطل الطيب صالح فى رواية (موسم الهجرة الى الشمال) ، وكذلك نجد مثل هذا التشابه فى التخطيط الخارجى بين هاتين القصتين · فهنا يحاول الراوى الشاب اكتشاف شخصية الغريب الذى حل بالمدينة · وهو ما رأيناه فى رواية الطيب صالح ، حيث رأينا الراوى وهو يحاول اكتشاف عالم مصطفى سعيد ، الرجل الغريب الاطوار الذى سكن فى المنطقة · ونروح نكتشف تدريجيا بعض اسرار بطل عبدالرحمن الربيعي ، فنجد فيه ملامح كثيرة من بطل الطيب صالح · فالبطل الغريب فى قصة الربيعي هو أيضا مثقف غريب الاطوار يبدو انه يمتلك تجارب عاطفية وشخصية ضخمة يحاول أن يحتفظ بها لنفسه كسر ، ويمنع الاخرين من محاولة اقتحام عالمه الخاص ، كما نكتشف أن هذا البطل يمتلك هو الاخر ثقافة انكليزية ويحمل فى دفتر مذكراته الكثير من المقاطع لشعرية لبعض الشعراء الانكليز المعروفين ، وملاحظات ومذكرات تكشف جانبا من أزمته الخاصة · وكما يتعرض بطل الطيب صالح لازمة خاصة تقرب الراوى منه ، كذلك يتعرض بطل الربيعي لازمة مرضية تقرب الراوى منه · وتنتهي القصة ايضا بهجرة بطل عبدالرحمن الربيعي بعد أن سئم حياة المدينة الراكدة ، راحلا الى مكان مجهول ، بعد أن ترك وراءه اكثر من علامة استفهام · وهو موقف يشبه الى حد كبير موقف بطل الطيب صالح الذى هاجر ايضا الى مكان مجهول : ربما الى الموت ، وربما الى خوض تجربة جديدة ·

أن قصة الربيعي هذه ذات حبكة قصصية متماسكة تكشف تمرس القاص بفن القصة ، وهى تحمل نفس ذلك الشد والتوتر ، وجو الترقب، والبحث البوليسى الذى كان يخيم على رواية الطيب صالح ·

لقد حاول القاص هنا أن يقدم لنا نموذجا انسانيا غريبا ونادرا ، تحس بانفصامه احيانا عن العالم الخارجي وعجزه عن التواصل مع

الاخرين . الا أن أزمته الشخصية وواقعه الفكرى يظلان خفيين علينا حتى النهاية بخلاف بطل الطبيب صالح الذى استطعنا أن نتعرف على الكثير من ملامح ازمته وتاريخه الشخصى وهمومه ، واستطاع بفعل ذلك اقناعنا بشرعيته وأصالته ، رغم غرابته وحده واطواره . أما بطل الربيعي فقد ظل غريبا علينا حتى النهاية ، حتى اننا لم نقتنع بشرعيته ، بل بدا لنا متنوعا من مناخ تاريخي وفكرى اخر ومقذوفا هنا في اطار هذه المدينة الصغيرة .

لقد كان عبدالرحمن الربيعي من الاسماء القصصية القليلة التي دشنت الستينات ببعض الكتابات ذات الطابع التجديدى . ورغم اغراق أقاصيصه انذاك بنوع من النثر الغنائي ، وبجو شاعرى يعتمد غالبا اللقطة ويستطرد احيانا فى جو تأملى ، حلمى ، ورغم سقوط القاص احيانا فى الافتعال التكنيكى والركض وراء اشكال مفرغة من اى جوهر حياتى ، ورغم روح المراهقة التى كانت تلون الكثير من كتاباته انذاك وخاصة تلك التى جمعها فى مجموعته القصصية الاولى (السيف والسفينة) ، الا انه استطاع أن يحقق في السنوات الاخيرة نضجا فكريا وفنيا اكبر ، ونوعا من الاستقرار الانفعالى والعاطفى ، وانه خفف من ركضه وراء التجريب التكنيكى المفتعل كما هو الحال في الكثير من اقاصيصه التالية لتي تضمنتها مجموعتاه القصصيتان : (الظل في الرأس) و (وجوه من رحلة التعب) ، رغم ذلك فالقاص لم يتطور بالمستوى المطلوب . بل راح يجتر الكثير من التجارب السابقة ، كما وجدناه احيانا يحاول اختلاق بعض النماذج والاجواء القصصية في محاولة لمواصلة الكتابة باسراف وبدون ترو .

ان الربيعي بحاجة الى أعادة نظر فى تطوره القصصى بروح نقدية جريئة لكى يكتشف طريقه ثانية على أسس راسخة ومن اجل ان لا يعيش على أمجاد تبدو لنا ونحن نعيش في السبعينات ساذجة وبسيطة . أن المسألة الجوهرية أمام القاص المبدع هى أن لا يواصل نشر أقاصيص اعتيادية سبق وأن قدم أفضل منها ، بل أن يتجاوز ما قدمه في تجاربه السابقة باستمرار .

ورغم أن الكثير من كتابات الربيعي الاخيرة قد كشفت عن عودة القاص الى رويا واقعية ، الا انها واقعية مهزوزة وغير محددة الملامح ، يسقط احيانا في التسطيح والتسجيلية ، ولكننا مع ذلك نشير الى امكانية طيبة لدى القاص فى التطور في هذا الاتجاه . ونحن نعتقد أن اخلاص القاص لفنه ، ورفض الزيف والمسخ ، والاقتراب من هموم الاخرين باصالة وجراة ، ومعايشة التجارب المختلفة ستمده بدم جديد ،

والا فانه لن يستطيع اقناعنا بقدرته على المواصلة المبدعة ، وسيظل ـ في السبعينات ـ يشار اليه باعتباره القاص الذى بدأ بداية طيبة في أوائل الستينات ، الا انه لم يستطيع أن يتطور اكثر من ذلك ·

وتقترب ـ بعد ذلك ـ من محاولة طيبة للقاص محمد عبدالمجيد هى قصة (الهجرة في الايام الموءجلة من زمن السخط) ، وهى قصة تكشف عن لوحة صراع طبقي واجتماعي واضحة · فالبطل الريفي هنا يقرر أن ينتقم بوسائله الخاصة من الاقطاعي · ونجد فى القصة تنمية ذكية لوعي البطل المتمرد وربطا خلاقا للعلاقات الانسانية وللقيم العرفية السائدة فى الريف · ولذا جاءت القصة متابعة لتطور البطل كمتمرد وكثورى بدائي يكتشف عبر تجربته القاسية مع الاضطهاد والعبودية والتعسف طريق التمرد والثورة · لقد نجح القاص هنا في رسم مناخ التمرد فى الريف بشكل طيب ، جعلنا نتنفس الريف السوداني فى كتاباب الطيب صالح ، وبمواجهة صريحة وواعية للمشكلات اليومية والتناقضات المتفجرة فى الريف العراقي · ورغم أن القاص قد حول تمرد البطل وثورته الى علاقة ثنائية بين البطل والاقطاعي متخذة صيغة الثأر الفردى الا انها تكشف رغم ذلك عن الصفة الذاتية ، الفردية لتمرد الانسان البسيط الذى يحس بالمهانة والاضطهاد فى الريف · لقد استطاع محمد عبدالمجيد هنا أن يبرهن لنا على قدرته على التطور فى كتابة للقصة القصيرة وأن يستطيع احتلال مكانة طيبة بين قصاصينا بعد أن جوبهت روايته البكر (عراة في المتاهة) باللامبالاة والرفض بسبب جرأتها التكنيكية وانغلاق عالمها الروائي أمام القارىء · أما هنا ، وفى محاولات قصصية اخرى منها (الانحدار خارج درجات السرطان) و (تقارير خاصة عن سفرة حول الموت والفرح) فقد استطاع القاص أن يضع خطوات راسخة فى ميدان القصة القصيرة · ولا شك فى أن تعمق استيعاب القاص لمشكلات الواقع الاجتماعي والحضارى ، بروح التعلم وبعيدا عن القناعة والغرور ، والاعتناء برسم عالمه القصصى بمواجهة صريحة لمشكلات محسوسة وواضحة بعيدا عن التجريد والتشويه ، سيمنحه فرصا أطيب للتطور فى المستقبل ·

أما فى أقصوصة محمد كامل عارف (الطير الاسود الصغير) فاننا نجد انفسنا أمام عالم مغاير تماما ، نكتشف فيه عالم الغربة الذى يعيشه البطل بشكل حاد · فرغم كل شىء : البهجة ، والمرأة ، الحياة المتدفقة ، يظل البطل ـ الطالب الاجنبي ـ الذى يعيش بعيدا عن وطنه ـ يحس بالحنين والشوق الى أرض وطنه ، وهو حنين يبلغ احيانا درجة الوجد الصوفى ·

ومثل هذا التوق يظل يبرز فى الكثير من معالجات القاص لتجارب قصصية استمدها من تجربته الخاصة خارج العراق ، وهو يقترب كثيرا من الجو الذى قدمه لنا فى أقاصيص اخرى مثل (الغريبان) و (ثلاث قصص عن ليزا البولونية) ٠

في (الطير الاسود الصغير) شفافية وسحر خاصان ، هنا حيث يتطلع البطل الى افاق مسحورة ، ويرحل بعيدا مع الطير الاسود الصغير الذى تبدو حركته وانطلاقته لا مجرد زخرفة خارجية أو ديكور للزينة ، أو استغلال اعتيادى للطبيعة ، بل يمثل اسقاطا ذكيا لمشاعر البطل ، ومعادلا موضوعيا لتوقه وتطلعاته الى حركة الطائر الاسود ٠ ولذا تعجز اللغة عن تحقيق أى تواصل بينه وبين المرأة وتظل الكلمات المنطوقة مجرد قناع زائف ، لان مشاعر البطل تبقى دائما محلقة بعيدا مع حركة الطير الاسود الصغير فى امتداداتها اللا متناهية ٠

يقدم لنا محمد كامل عارف عالمه القصصى بشىء كثير من الحيادية والموضوعية ودونما مباشرة أو عاطفية ، الا انه ينجح بمهارة في التعبير عن القيم الفكرية والوجدانية التي وراءها دونما قسر أو افتعال ٠ وهو قاص ذكي متمكن من أدواته الفنية ٠ ورغم بداياته الخمسينية ، الا انه لم ينشر فى السنوات الاخيرة سوى أقاصيص قليلة جدا ٠

ونقترب من القاص فهد الاسدى في قصته (طيور السماء) التى تكشف لنا عن عالم غريب وفريد ٠ فالبطل ـ حلب بن غريبة ـ هذا الزنجي البسيط الساذج ، القادم من (مسقط) مع أمه ـ غريبه ـ والذى حولته حياة العبودية الى أداة طيعة بين الاقطاعيين ، هذا الانسان البسيط يتحول الى كبش فداء للاخرين ، لانه تعود أن يقول للسادة كلمة (نعم) دائما ٠ ولذا فعندما يمزق (حلب) علم الحكومة تنفيذا لاوامر أبن الشيخ يتحول هو الى كبش فداء بينما يحافظ الاسياد على رؤوسهم وامتيازاتهم ، وتظل أمه (غريبة) التي عرفت فى مطلع حياتها طعم الحرية ، تواجه لوحدها مرارة الحزن والعبودية والموت البطىء وفقدان الامل بالحياة والحرية ٠

القصة التي قدمها لنا فهد الاسدى مليئة بالشعر والتحدى ٠ الا اننا نحس ايضا بان العالم الذى نطمح لاعادة خلقه هو أغنى بكثير من العالم المرئي الذى طرحته ٠ وليس معنى هذا أننا هنا أمام (جبل الجليد) الذى تحدث عنه همنغواى بل نحن أمام اسراف لا مسوغ له في التركيز والتكثيف والبتر ، جعل الكثير من ملامح التمرد الذى ذهب حلب ضحيته مجهولة وضائعة ٠ ويبدو لنا البطل ، لا من لحظة

التمرد بل من اللحظة التى رأيناه فيها يتقبل الموت بصمت فتتحول القصة الى نوع من المراثي الشعرية الغنائية عبر منولوج فردى ، مما أفقد القصة الشيء الكثير من قدرتها الصراعية ومن نموها الداخلى وتوترها · وتغدو الملاحظات والانطباعات الاخرى مجرد تداعيات لا اهمية لها ، واخباءات لمسالة منتهية ·

ان فهد الاسدى قاص واع موءمن بقضية الانسان والمستقبل · وهو ينطلق في أقاصيصه وخاصة تلك التي قرأناها في مجموعته الاولى (عدن مضاع) من روءيا واضحة ، ومن منطلقات فكرية وفنية سليمة وبفهم ذكى للواقعية الجديدة وأمكاناتها ، دونما سقوط فى المباشرة والهتافية ، وبحب غامر للانسان والحياة · والقاص فى جميع قصصه منحاز الى قضية الانسان وهمومه وتطلعاته ، ولا يتهرب من مواجهة التناقضات بصراحة ومن طرح روءياه الثورية للاحداث والمستقبل ·

وأخيرا نقرأ أقصوصة القاص محمد خضير ((الارجوحة) التى أثارت اهتمام واعجاب القراء والنقاد العرب ·

يقدم لنا محمد خضير فى أقصوصه هذه معالجة رائعة وانسانية لجانب مهم من تجربة المعركة ضد الصهيونية والامبريالية · اذ نجد هنا محاولة لتجاوز الموت ، والارتباط بقضية الحياة والمستقبل والامل الانساني · فبدلا من تحويل موت الجندى ـ الاب ـ الى مجرد مأساة تثير الحزن والبكاء ، استطاع القاص ان يكسب القضية وجها جديدا عبر امتداد الحياة باشكال وصور متجددة · وهكذا يستغرق الجندى ـ الرسول ـ والفتاة فى نهر الحياة المستمر ، بعيدا عن شبح الموت القابع فى الحقيبة السوداء ·

يبلغ محمد خضير هنا ذروة رائعة فى الفنية والشفافية والرهافة فى تصوير وجه مهم من وجوه المعركة · فهو لا يسقط في حزن اخرس أمام الموت ، بل يكسب وجها اخر : الحياة المتجددة ، الدائمة التفجر ·

يعد من ابرز والمع قصاصى الشباب فى بلادنا ، رغم انه لم يطبع اية مجموعة قصصية الى الان · وقد استطاع فى كل ما قرأناه له أن يقنعنا بانه قاص متمكن ، بمستطاعه التعامل مع العالم الخارجى وابطاله بوعى وتخطيط ويزيدنا قناعة بانه قادر فى المستقبل ايضا على تقديم عطاء طيب للقصة العراقية والعربية ·

وبعد ···

فهذه بعض الانطباعات والملاحظات التي أثارتها في ذهني قراءة هذه الاقاصيص وآمل ان يجد فيها القراء المتعة والفائدة ·

فاضل ثامر ـ بغداد

الأجوحة

محمد خضير

على جادة السكون المظللة بمراوح السعف ، كان فتى حليق الرأس يتحرك فوق دراجته الخفيفة ، كالنائم ، بين جدول واطىء مزبد بخيوط تشبه رغوة الصابون لليسار ، وجدار من الطين المتهدم لليمين • تبدأ من حافة الجدول المعشب أرض تبعثرت فيها جذوع النخيل واعشاب السوس والحلفاء المتوحشة ، كما كان جدار الطين يحجز أرضا تنخفض عن الجدار تتجاور فيها جذوع النخيل التي تنشق بينها الجداول وتغطيها تماما الاعشاب الدقيقة المزهرة والاشجار البرية الواطئة واشجار الرمان وعرائش الكروم المتسلقة على الجذوع • تنغمر الجادة الضيقة المحاصرة • وكالنائم ، كان الفتى لا يسمع صوتا حتى لعجلتي دراجته العاريتين وهما تدوران على غبار الجادة الناعم ، ولكنه يشم روائح ازهار الدفلى والازهار البرية في المنخفض النباتي أسفل جدار الطين وخلف الجدول المزبد • ومن كسرات الجدار كانت تخطف بصره المبهور باشعة الشمس خلال السعف ازهار الرمان الحمراء المختبئة في كثافة ظل الاوراق ، وحركة الاجنحة الرمادية لطيور (الفاختة) ، غير أن أزهار الدفلى في اغصانها المتدلية في الجدول الواطىء ترتسم في الماء بين ظل السعف كنقوش في ثوب مخطط • وفي منطقة ضوء غزير كانت فروع شجرة توت ضخمة تجتاز الجدار حتى منتصف الجادة ، استند الفتى بقدمه

للجدار بعد أن أوقف حركة الدراجة ، وأخذ يلتهم ثمار التوت السوداء • ترجل عن دراجته واسندها للجدار ، وقطع الجادة منحدرا على ضفة الاعشاب الزاحفة ليغسل أصابعه الدبقة في ماء الجدول ، ثم شرب وبلل رأسه الحليق مغترفا الماء براحتيه المكورتين • انصت لاقدام خافتة ، وظهر ثلاثة كلاب دخلوا من ثقب في الجدار للارض المنخفضة • وثانية حل في رأسه ذلك الغفو المريح حين امتطى دراجته ، وتشرب بالسكون ذى الرائحة الساخنة ، ومن بين جفنيه راقب بعينيه الممغنطتين انفصال اجزاء دراجته على التراب ، وكانت العجلتان المعوجتان تتسلقان الجدار وتتعثران في حفره وثقوبه ، ثم طفتا في السكون بتوازن ، واصبح الفتى يتحرك على قمم النخيل ، منهمكا في غفوة بمراقبة الحيوات المتحفزة المختفية في منخفضى الاعشاب : حياة كرات نبات (الخرنوب) اليابسة ، حياة اثمار الاعذاق غير الناضجة ، حياة بويضات احياء الجداول ثم الحياة الاكثر غموضا وتحفزا في الحقيبة المعلقة بالمقود • وفجأة حدث هجوم الحيوات المختبئة وكادت تلقي بالفتى فيالجدول اسفل الجادة ـ انتهى جدار الطين واعترضت الفتى اسلاك تمتد يمينا ويسارا مثبتة الاوتاد ، وباب نصف مفتوح من هذه الاسلاك • ترجل وقاد دراجته عبر الباب المثبت بين وتدين ، وسار في جادة ضيقة زحفت عليها الادغال الكالحة • بين جذوع النخيل المزروعة في صفوف منتظمة طفحت الجداول القصيرة المسدودة بماء اخضر فاقع ذي فقاعات ، وباوراق الاشجار ، وبفراغات السماء بين خوص السعف • ثم دخل سقيفة من اشجار الكروم لم يكتمل نضج عنقيدها الكثيرة ، وخرج منها لشاطىء يمتد من نهر غير واسع سريع المجرى ، حيث لمح غير بعيدة عنه نارا في تنور على الضفة المقابلة وتنعكس فى الماء ببقعة ثابتة • وبين الخضرة الواطئة قامت غرفتان من الطين وسقيفة من القصب كأنها استخرجت من قاع النهر وبنيت هناك بشكل رقم (٦) غير بعيدة عن الضفة •

سحب دراجته نحو البيت ، وظهرت امرأة ملفوفة بالسواد من خلف التنور الملتهب ، وقال الفتى الحليق عبر النهر :

ـ يا أمي ، ألديك ولد في الجيش ؟

ـ نعم ابني علي .

ـ علي قاسم ؟

ـ نعم هو : أتعرفه ؟

مسح الفتى رأسه ، ونظر للحقيبة المعلقة بمقود الدراجة :

ـ انا قادم من هناك . انه صديقي ، أنا وهو في نفس الوحدة .

ـ كيف حاله ؟ مرت مدة طويلة دون أن يكتب لنا رسالة ، كيف هو ؟

ـ يا أمي ولدك قد ..

التفت الفتى للحقيبة المعلقة في المقود ، وتطلع للبيت والسطح ولمجرى النهر ولوجه المرأة الملوح باللهب ، وقالت المرأة الملفوفة بالسواد :

ـ أهذه حقيبته ؟

ـ هذه ؟ .. لا ، حقيبتي .

ـ لديه حقيبة مثلها . كيف هو ؟

ـ بخير ويبعث بسلامه اليكم ولطفلته حليمة .

انتظر متطلعا حوله ، وكان دخان خفيف رمادي يعقب ألسنة لهب التنور ، ومن زاوية الغرفتين خرجت طفلة في السادسة ، وتقدمت نحو النهر .

ـ انه يسأل عن طيوره .

ـ هناك فوق في البرج على السطح . أترى البرج ؟

ـ أرى جزءا منه كما أرى صفائح التنك المطلة على الحوش . لم اتصور انه يملك هذا العدد من الطيور .

ـ لم لا تعبر الينا ؟ القنطرة هنا ، أبوه خرج لتكريب النخل ومعه زوجة ابنه .

ـ سأترك الدراجة هنا .

أسند الدراجة لجذع ، ثم عبر قنطرة انصاف جذوع النخيل المغطاة

بالتراب المتماسك ، واثناء عبوره الحذر شاهد طيور الحمام تخرج من صفائح التنك المثبتة مع ضلعي الغرفتين وفي زاوية التقائهما . كان الماء يجرى تحت القنطرة في سورات لامعة ، وغير التنور كانت تنبت شجرة عالية عند الضفة ، وثلاث نخلات طويلات ، ربطت بين اثنتين منها ارجوحة تحاول الطفلة التي خرجت من الغرفة الصعود الى حمالتها .

ـ استرح هنا يا ابني . أين انتم الان ؟

ساعد الزائر الطفلة على الاستقرار في حمالة الارجوحة المقتطعة من كيس خيش ، وجلس على الحصير الذى فرشته العجوز تحت الشجرة الواسعة الظل :

ـ نحن الان على الحدود ، تم استبدالنا اخيرا من الجبهة .

ـ ومتى سيحصل ابني على اجازة ؟

ـ اجازة ؟ قريبا . ربما في الشهر الذي يأتي . ألم تسمعوه في الاذاعة ؟

ـ لا . ترك راديوه الصغير هنا ولكن لا احد يفتحه ، دعني اقدم لك شيئا .

قطعت ساحة البيت نحو السقيفة ، ينسحب ذيل ثوبها الاسود على التراب ، وتبعتها دجاجة جاءت راكضة من وراء السقيفة ، وكان الحمام يحلق في سماء البيت أو يلتقط ما يجده في ساحته .

ـ ما أسمك يا بنيه ؟

ـ حليمة .

ـ حليمة ، بابا يريدني أن أقبلك .

نهض الزائر وقبلها ، وكانت تغوص في حمالة الارجوحة المشدودة من اطرافها الى الحبال المتينة ، وتلقى برأسها على عضد ذراعها الممسكة بحبل الارجوحة ، يعكس شعرها القصير موجات حمراء ويكشف عن رقبتها النحيفة المنحنية . نظرت حليمة للزائر بجانب عينيها وطلبت منه أن

يهز ارجوحتها • انحنى خلف ظهرها ثم دفعها دفعا خفيفا ولكنها طلبت أن يؤرجحها بقوة حتى تطير • وتلقى جسدها بعد أن رجعت اليه وأحاط خاصرتها ثم دفع الارجوحة فصعدت خارج ظل السعف فوق الماء ، وغمرت بالشمس ، ثم عادت الوراء فحاد عنها ، ثم اندفعت ثانية خارج الضفة دون أن يمسها •

ـ تمسكي جيدا • سأجعلك تطيرين •

خرجت الارجوحة من الظل بسرعة ، فسقطت الشمس على رقبة حليمة كحد السيف ، واجتازت خط قمم النخيل ، ثم عادت مسرعة واجتازت الظل من الجهة المضادة ، وكان فمها مفتوحا دون ضحك وشعرها ينفر عن وجهها في الصعود ، يزيد الضوء المفاجيء حمرته المتخلفة عن صبغة الحناء ، ولكن التارجح ينطفيء فجأة عندما يرتد الشعر على وجهها في هبوط الارجوحة • واستند واقفا للنخلة •

ـ ما أسم هذه الشجرة يا حليمة ؟

ـ بمبر •

ـ ما أسمها ؟

أجابته العجوز التي عادت بقدح لبن :

ـ بمبر • انها لا تنطق الاسم صحيحا •

وقدمت اليه القدح :

ـ انه بدون ثلج • لا يصلنا الثلج هنا •

ـ اللبن طيب حتى بدون ثلج • كم بقرة لديكم ؟

قالت حليمة :

ـ ثلاث ، خرجت أمي ترعاهن خلف البيت •

يداها ممدودتان الى اقصاهما لتمسكا حبال الارجوحة ، وتدلى شعرها القصير لاسفل لأنها كانت تلقى رأسها للخلف • وتتطلع الزائر بعينيها المقلوبتين كلما هبطت الارجوحة ، بعد أن يثقل هجوم المشاهد وسرعة مجرى الماء رأسها ، لم يمس الزائر ارجوحتها ، وتركها تتأرجح بتوازن •

ـ الشمس تعمي عيوني .

من التنور الذى خبت فيه النار ، قالت جدتها :

ـ انها لا تنطق الكلمات صحيحة مع اننا سندخلها المدرسة السنة القادمة .

قال الزائر :

ـ كثيرا ما حدثني علي عن هذه الشجرة . قال انه كان ينام بين اغصانها في سنيه الاولى .

ـ أنا لا احب ثمرها .

قالت جدتها :

ـ ألم تأكل البمبر ؟

ـ لا ولكنه اخبرني أن البمبر يحتوي على سائل لزج .

قالت حليمة :

ـ نواتها تلتصق باصابعك ولا تنفك عنها حتى ولو نفضتها بقوة .

ـ لكنه ما زال غير ناضج ، كان يظن انه نضج ورغب أن اجلب معي بعض البمبر .

قالت الجدة :

ـ اظنه لا ينبت في مكان اخر .

ـ لست ادرى . وحدثني عن الارجوحة .

ـ لم تنم حليمة في مهد ابدا . سرعان ما كانت تنام في هذه الارجوحة . ست سنوات وهي تنام فيها .

ـ هنا قرب الماء .

ـ كان علي يسبح في النهر وهي تتطلع اليه ويصعب عليها الوقوف داخل الارجوحة .

سألت حليمة :

ـ أتعرف السباحة ؟

ـ نعم أعرف .

ـ ألديكم انهار هناك ؟

ـ كثيرة ولكنها لا تشبه هذا النهر السريع . اتحبين الماء يا حليمة ؟

ـ أخاف الغرق . هزني الان .

تلقى الزائر الارجوحة من الخلف بان وضع راحتيه حول الحمالة الممتلئة بجسد الطفلة الصغير ودفعها بقوة فحلقت فوق النهر وانطبعت على سطحه منسحبة فوق الاشكال الطافية ، وبصوف ثاقب نادته حليمة :

ـ ألم يطلب منك أن تسبح ؟

ـ لا . ولكنه طلب أن اقبلك .

ـ قبلتني ، ولكني اريدك تسبح .

نظر الزائر لامرأة التنور التي كانت تعد العجين ، فقالت :

ـ رطب جسدك بالماء . دائما تطلب ذلك من ابيها .

ـ سأنفذ رغبتها .

ـ ولكن لا تستمع دائما لها . رغباتها لا تنقطع .

خلع (دشتاشته) وفانيلته خلف شجرة البمبر وعلقهما داخل الاغصان الكثيفة . قفز للنهر وسمع صيحة ابتهاج حليمة التي بترت حين غاص في الماء الاخضر . لما ظهر فوق الماء اطلق من فمه الماء ، وحاول ان يقاوم المجرى ليظل أمام حليمة .

ـ لا زال الماء باردا .

ـ أسبح لهناك . أتستطيع أن تسبح للتنور ؟

ـ ذلك سهل .

ـ سيأخذك الماء كبطة .

انسحبت أمامه مسرعة مع تيار المد اللامع للقمم الساكنة المتقابلة الصفي النخل في النهر ، وأعشاب واشجار الضفتين ، وكان النهر ينعطف على بعد خلف البيت ، وفجأة قبل أن ينعطف كانت الجذوع تنهال في المجرى الغامض المظلل أو تتبادل أمكنتها من ضفة لضفة وهي تسرع

في الاختفاء مع النهر • ومن خلال القطرات التي تقفز أمام عينيه وتموه نظره شاهد المرأة تقف وسط التنور كجذع متفحم وحين وصل ازاء التنور آها تخبز العجين بين راحتيها وتمدده على قرص قماش اسود وتنحني لتلصق الرغيف اللدن داخل جدار التنور المقوس الساخن ، وكأنها ستنقصم وتتفتت رمادا في احدى حركات اعضائها المتمهلة • عند الجرف كان باستطاعته أن يمس قاع النهر بقدميه ،وان يكف عن العوم لمقاومة التيار والوقوف في مكانه أمام التنور ، وأخذت ترتطم بجسده الاوراق والحشائش وثمار التوت العائمة مع المد ، وكان يلتقط هذه الثمار ويلتهمها •

ـ لا زال الماء باردا •

ـ كان علي معتادا على السباحة في مثل هذه الايام •

ـ اتعرفين يا أمي ؟ أنا هنا كما لو كان هو • ولكنها أيام الحرب •

وتمهل كي يتأكد كيف تضيع عيناها في وجهها المتضائل ويكاد يختفي فمها في سكونها المريب ، كجذع فحم لن يقوى على الوقوف حتى يتبدد •

ـ لقد أحببت المكان • انظري الي كأني هو الذي يسبح ويحادثك الان • لا تدعي غيابه يهمك كثيرا •

قالت أمرأة التنور كلمات لم تنته محترقة مختلطة انطفأت في النهر وغطت عليها صرخة حليمة :

ـ ارجع لتهزني • اتستطيع السباحة على ظهرك ؟

ـ كالباخرة • ذلك سهل •

وضع رأسه ضد المجرى وجعل يرفس الماء بقدميه ويحرك يديه تحت جسده كي يبقى طافيا فاحدث زبدا كثيفا • سمع حليمة تصوت كالباخرة ، وأطلق من فمه دفقات متتابعة من الماء ، كما شاهد الحمام يحلق على برج السطح ، وأوراق شجرة البمبر العريضة المتراكبة على خضرة معتمة ، واختلاط سعف النخلتين المرتفعتين ، والارجوحة التي تهدأ بينهما يتقلص تحتها ظل السعف • دخل منطقة في الشجرة كانه يدخل بئرا • تمسك بالاغصان المتدلية في الماء ، وسمع حليمة :

ـ أتعرف ؟ كان جدي جنديا ايضا .

سمع جدتها :

ـ ماذا قالت عن جدها ؟

قالت حليمة :

ـ قلت له انه كان جنديا .

قال الزائر :

ـ كل الناس يصبحون في يوم ما جنودا .

سمع جدتها :

ـ حارب في الحرب العظمى . انها تستأنس بالحكايات والاخبار التي يقصها لها .

قالت حليمة :

ـ يا لها من حكايات لطيفة ؟

قالت جدتها :

ـ واخبار ابيك . انتظري فقط كي يأتي في اجازة .

قال الزائر :

ـ نعم ، يا لها من اخبار عجيبة يا حليمة .

سمع حليمة :

ـ فترت الارجوحة . هزني الان .

خرج من ظل الشجرة ، وكان وجهه مبللا ، فسألته حليمة :

ـ هل احمرت عيناك ؟

ـ يحدث ذا لكلمن يسبح .

ـ لا . ابي لم تحمر عيناه يوما .

أحاط عجيزتها داخل الحمالة ودفعها فأفتقدها في الشمس ، واحتواها حين عادت موقفا حركة الارجوحة :

ـ كيف انت يا حليمة ؟

ـ لماذا اوقفتها ؟ كانت دفعة جيدة ، ولم يهزني احد كذلك .

وذابت ثانية في الشمس ، وعادت تضع رأسها على عضد ذراعهـــا الممدودة ، ساكنة الوجه وقد اغمضت عينيها :

ـ أرى ابي ها هو يوءجحني في حضنه . ولكنه لا يتكلم كالاخرس .

حلق شعر رأسه مثلك ، وكأني غريبة عنه ، فهو لا يعرفني ولا يتكلم ابدا .

فتحت عينيها وقالت :

ـ اين ذهب ؟ كان معي يوءرجحني .

ـ لقد اختفى الآن حين تفحين عينيك يختفي .

ـ ايـن ؟

ـ لنبحث يا حليمة . اتسلق النخلة ؟ كلا والا رأيناه هل غاص في الماء ؟ لا والاختنق اذا ما بقي طويلا تحت الماء . اه . . اتعرفين اين ؟ في تلك تلك الحقيبة . أترينها يا حليمة ؟

ـ أية حقيبة ؟

ـ تلك في الضفة الاخرى . الحقيبة المعلقة في الدراجة ؟

ـ الحقيبة الصغيرة . كيف تسع جسده ؟

ـ ولكنه كالدخان . تذكري يا حليمة انه كالدخان .

ـ لم أره جيدا . كنت في حضنه .

ـ أأجلس معك في الارجوحة ؟

أوقف الحبال المهتزة وانزل حليمة ، ثم رفعها لتستقر في حضنه داخل حمالة الارجوحة ، وحاول أن يهز جسديهما بقدميه ، حين جاءت الجدة تحمل رغيفا :

ـ ألم تجوعا ؟ كلا بانتظار الغداء حين يأتي جدها ، وسأصعد لاطعم الحمام .

قسمت الرغيف الساخن بينهما ، وطلبا منها أن تهزهما قبل أن تصعد للسطح .

ـ أأستطيع هزكما ؟

تحركت الحبال قليلا فقليلا ، وأسرعت الارجوحة فاجتازت الفيء ، بقليل ثم حلقت فوق المجرى ، وكانت الجدة تختفي خلف السقيفة .

ـ اتكئي لصدري يا حليمة واغمضي عينيك .

ـ ثوبك مبلل .

ـ لم اجفف جسمي جيدا .

ـ أتحب البمبر ؟

ـ نعم . اشتهي اكل منه .

ـ انا لا احبه . وما هو اسمك ؟

ـ ستار .

ـ كأسم أبن المختار . نحن نلعب خلف المسغل ويريد أن ندخله .

ـ مغسل الموتى ؟

ـ نعم . ارني ابي الان . أراه يخرج من الحقيبة هناك ويأتي نحونا .

بلا رأس ولا يدين ولا رجلين ودون ثياب . كالدخان .

ـ نعم . نعم .

ـ دعيه يقترب . تظاهري بالنوم ولا تفزعيه لانه لا يحب غير النيام كالموتى .

وقاوم الزائر مجرى النهر بيقظة عينيه الواهنة ، يضم حليمة اليه ويحملها محلقا ، يدخل معها الابواب المفتوحة بين جذوع النخيل ذات مراوح السعف العريضة ، حيث شعر بالغفو الجميل اللين المبلل يدنو منه ايضا ، وكانا يخترقان أوراق الاشجار وازهار الرمان واعشاب السوس باتجاه مجرى المد اللامع .

ـ هل نمت يا حليمة ؟

ـ خرج من الحقيبة كالدخان ولم يتكلم .

ـ وأين هو الان ؟

لست ادرى . لقد ذهب . غاص في النهر .

ولم يلبثا هما كذلك ، أن غاصا اثره .

١٨ ـ صوت الراوى :

من مساقط خلجان « مسقط » حتى مداخل حلق « الخورة » زبد البحر العاتي الابيض يلطم الصخور السوداء .. ابصرته في مسيرة المهانة على درب الاقراش والسمك الصغار ، ووعت جيدا السطور ..

وهنا بعد ان تعطي ظهرك لتلك الدوامة اللعينة يصدمك مربع الحبال المشدودة .. وتحت العلم الجديد ، ورغما عن خيوط « نصر » الصارمة تبعج خطوط المربع الى الداخل او الخارج .. تختنق الانفاس ، ويسيل الانتظار بعيدا في العيون ، اذ هنا وبعد ساعة ستأكل الطير من رأس جثة : لا ضحية ام لادمي ـ لا ادرى ـ ولكن ما ادريه : ان هذه الجثة ولدت ميتة قبل الشنق .. أماتها السادة . ولذا فالعدل .. هه .. هه ! هـذا الخنزير الذي لا يرى الا ما امامه ـ لا يربح من القضية غير « القينا القبض على القتيل ، وفر القاتل .. » .

ـ لماذا تشنقوه ؟ ! .. أعيدوه الى القطيع على الاقل .

همس بها بصوت خافت ، ثم التهمه الزحام .. ومات اخر عود من « الرازقي » في نفسها .. وددت لو امتدت الصيحة لتشمل الكون بأسره ،

ولكن ها هي عيناها تبيضان ، والاخرون يحسبونها ألهية حتى وهي تحزن ! .. قبعت في الزاوية القريبة من خشبة الشنق ، وشقت صدرها عن ثديين عجفاويين وانحطت الشمس بكل ثقلها على سوادها ، فلمعت عيناها ببياض السحب .. السحب التى استهلكت امطارها من طول ما أمطرت .. أما في عيون الزحام فلم يكن هناك سوى التسليم ! بعض الفقيرات قعدن حولها ينتظرن ان تنشق السماء عن معجزة .. يونس ببطن الحوت ونجاه الله .. « حلب » فقير عمره ما عملها . لكن الدنيا بلا رحمة .

تعوذت النساء من طلعته ، ونكس الرجال رؤوسهم الى التراب مخافة ان تسقط عليهم نظراته .. هذه النقمة التى أتت بها رعونتهم .. وتستعاد صورة ذاك اليوم . يذكرها الرجال ، فيبتسمون ، والمرارة تملأ نفوسهم : كان يوم حاولوا ان يقلدوا فيه هرج المدن الاخرى .. ركبت رؤوسهم فرحة الاطفال ، فالانباء المتساقطة ارعبت القائمقامية ففرت بكت قضها وقضيضها .. وهجم الشجعان منهم على المركز ، واستسلم الشرط المساكين بلا مقاومة قائلين : « للبيت رب يحميه » ثم تدفق سيلهم الى البنادق فسرقوها .. مزقوا السجلات ، ونهبوا الاثاث ولم يبارحوه الا بعد أن تركوه أثرا خربا ..

ثم توجهوا الى المدرسة ، حطموا ابوابها ونهبوها .. حسان أصر على ان في (كرتها الارضية) خزينة ، وعندما كسرها ولم يجد ، انشقت بطون الناس عليه من الضحك وابنه الخرف لهث كثيرا ، وهو يجر صندوق الطباشير قائلا : المعلم ما اعطاني فرصة للكتابة وراح يتسلى بتوسيخ كل جدران المدرسة والبنايات الاخرى بكتاباته ..

وفي الهجوم على المستوصف شربت احدى الفلاحات كل زجاجة (اليود) ظانة انها شراب يخفف ألمها ، فخف ألمها الى الابد ..

لقد اطبق على المنطقة جنون ، ولم تصح الا على ضربات عصا « نصر » المتينة : جيء به عريفا ، وأوعد بأن تاجا سيلمع فوق الخيوط الثلاثة

الحمراء على ذراع ابن الشمال الذي عجنت طينته من صخور الجبـال كان يرى في شوارب الاخرين تحديا لشاربه الكث المهيب .. أمر يدل على أن في نفوس هؤلاء الفلاحين رغبة بالشموخ واصرارا على العصيان . او ربما فيها ظن بأنه كالعريف الذي ترك لهم سلاحه .. لذا عمد الى طريقة فضلى : ينتف شارب الواحد من جهة ، ويتركه من الاخرى ثم يهتز كرشه بكركرة صافية ، وهو يبصر وجوه الفلاحين - لا بل حتى « السراكيل الصغار » المهانة تقعي بابصارها دون ان تجرؤ على ان « تترس » عيونها بصرامة وجهه ..

ملأه الزهو يوم اخبرته امرأته بأنه عاد خيال مقاتة للاطفال .. وكم انتشى وهو يراهم يعربون من امامه هازجين :

هـذا نصـر هـذا نصـر

صـارت شـواربهم بتـر

شكاه البعض منهم قالوا : هذا نقمة .. طاعون ، ولكنهم ردوا .. قيل : وما بها ؟ انه النقمة التى اعادت العقل الى رؤوسكم ..

وفي كل ذلك المربع المنبعج المتدافع في محاولة للاقتراب من الخشبة كان وصول « نصر » العريف يشكل لحظة الانجماد .. وبعده وصل الموكب : المحكوم عليه بالاعدام مصفد ووجهه الزنجي يحمل استسلاما غبيا ، والثوب يبدو عليه فضفاضا .. يتقدمه شرطيان . بعدهما تجيء هيئة التنفيذ مهيبة : ضابط الشرطة والسركال الكبير ، يتبعه بعض اولاده والشيخ الملقن ..

اشرأبت الاعناق كجمع من الكراكي الصائتة .. ثم سرت همهمة عالية . دارت عصا « نصر » سريعة ، فأعادت صمت الترقب الى الحشد ..

وبدأت التلاوة « ولكم في القصاص حياة يا اولي الالباب » بصوت متحشرج كأنه يخرج من آلة صدئة .. ثم تلى الضابط القرار :

« باسم صاحب الجلالة حكمت المحكمة على المجرم حلب بن غريبة ..

وترتفع الهمهمة مغمغمة : ابن غريبة .. ابن غريبة ، ولماذا ؟
وتنسكب حرارة التساؤل في أذنيها .. الى تهويمة أخرى يا غريبة ..

٢ ـ الفجيعة :

نعم . ابن غريبة ، لانكم لم تعرفوا له أبا .. لكنني أعرفه جيدا .. عرفته أسود مثلي بلون القار ـ كما تصفون سحنتي ... لون القارب الجديد .. وكنا « بمسكت » (مسقط) شربنا الملح ، وجرح عيوننا سفي رمال الصحراء . وعندما يطل تموز وينشف الماء في الكوز تشرب ثابنا رطوبة الخليج الملحية . نرتخي مساء ، ونسمع مواويلهم المطوطة الرخية كرخاوة أشرعة لا تملوءها الريح .. نكاد نراهم يجرون « البوم » ويجرون . قفاه الى السفينة ، وحز الحبال على متنه يعاود وجعه ، وهو يجر ..

يصلني ، فيريح قفاه على الرمال الندية .. اذر حفنة من الرماد على جراح متنه . يلتمع سواده بضوء القمر ، تنطبع على وجهه سحنة باكية ، ويغمغم :

ـ البحر عاقر ، يا غريبة !
ـ الله الرازق .. الله الرازق يا مبروك !

أردت أن أبعث به حميا الحماس ، فقد مللنا أكل بنات عرس .. ثدياى يجفان وهذا (الحلب) النكد يملأ الصحراء صراخه ، فألقمه أصبعي لينام على الوهم .. تصلنا ريح العراق ، فتملأ روحي .. اهتف به برجاء :

ـ النخيل يا مبروك ! النخيل ..
ـ وما به ؟
ـ نفسي (أطوش) هناك .. الطوش ولا هذه المعيشة !

وكنت معهم عندما أجبروه على النزول الى الماء لاصلاح « السكان » كنت اسمع كثيرا عن دوامة المياه في حلق « الخورة » .. كانت الاقراش كرجال الشر تتربص .. تنتظر ولو ظلا لساق متدلية من حافة « البوم » حتى تقرب ، لتضرب ذنبها بقوة .. كان الرجال احيانا يعيشون معها ، فترتطم أذنيها بصفحة « البوم » العملاق .. لكنما ذاك اليوم أجادت خداعنا .. سكنت طويلا .. ثم شربت بقسوة .. تلوى في الماء بعنف ثم غاص ، ولم يترك أثرا سوى دماء كنقيع الحناء كانت تصبغ الماء ..

صرخت فيهم .

ـ قتلتموه ..

لم تجبني سوى الاصداء .. وكان الشاطيء تزحمه النخيل ولكني وجدت منظرها شائما أسود كسواد البحارة ، وهم يتلونون بسخام الفجيعة .

٣ ـ مهاجع الذل :

أكنت ضالا حقا يا حلب . ام انك لم تعرف من البداية الهداية ؟ أمرك بأن ترقى السارية .. ناولته الخرقة التي بهتت ألوانها .. قهقهه مزهوا ولم تكن تعرف لم يضحك .. جرها منك وراحت لبلاها تتقطع بين يديه .. وبقي العمود فارغا كعنق طويلة عارية تشكو الصفعات ..

هر أحد الحكام :

ـ لقد رأوك ، وأنت تصعد .

ـ أمروني « يا سيدى » أمروني .

يصفعك صوت كقرن ثور لا يرحم :

ـ كان يجب ان ترفض .. لقد مزقت أمجادنا ايها التيس !

يريدون منك ان ترفض ، ولكن هل استطعت ان ترفض وبوجه القار هذا أوامرهم ؟ .. الان يحتمون وراء ظهر ابهم ، وها انت ستبق بين الحياة والموت . وقبلا ماتت رجولتك على مواقدهم :

ـ .. حاضر ، محفوظ !

ـ حلب ! صب القهوة ..

ـ .. حاضر . محفوظ !

ـ حلب ! هات العشاء ..

ـ .. حاضر . محفوظ !

ـ حلب ! اغسل الايدى ..

وفي الغرف وتحت نور فانوس يحب الظلال الكثيرة ، كان الشحم يتلوى مغناجا .. تعصف به النار ، والماء يسفح هناك في حياض الاخرين .. يهتف الشحم امرا :

ـ .. حاضر . عمه !

ـ حلب ! اعصر يدي ..

ـ .. حاضر . عمه !

ـ حلب ! ورجلي ..

ـ .. حا .. ضر عمه !

ـ حلب ! أصعد يديك .

وتجوس الاصابع مرتجفة تمسد شحم الليل .. نداء يجر واخر يمنع .. حلب ! تعال لا تخف .. آ .. حلب ! لا تبل في ماعون تأكل فيه ولكن هل استطعت ان ترفض . لم تجرب هذه المتعة .. الامر صارم ، والاناء جوع يفتش عن رواء .. وعلى صفحة البياض الشهي ـ فقط ـ جربت متعة الرفض وعرفت أنك مثلهم ..

في الجوع ابيض وجهك وقلبك ، يا حلب ! .. وعند الامتلاء تعود أسود كالليل .. تنن الرائحة :

ـ قم ، يا صخل لا تقل لاحد ..

لم تقل حتى لها ، وبقيت النساء آمرات وبقيت أمك « غريبة » تروح وتجيء .. يتجمع في موق عينيها حزن كل الايام .. تهتاج أحيانا ، وتصرخ ، لكن هياجها لا يثير سوى ضحك العمات :

ـ غريبة ! هزي .. غريبة دفي ..

ويوم « الفرهود » عنفتك كثيرا :

ـ كل الناس حصلت ، فماذا الهاك ؟

قلت لها : ـ ابن الشيخ أخذني معه ..

صدقتك ، ولكن الحكام لا يريدون تصديقك .. !

٤ ـ الحلم :

تقلص المربع بعنف ، وتسمرت العيون على بقعة التنفيذ . لم تأبه للسع العصي ، والعصي اخيرا صمتت هي الاخرى امام هذا التحدى .. قرب المحكوم من المقصلة ثم أصعد فوق الخشبة .. وتحت الحبل المتدلي انحنت القامة كعلامة استفهام .. شعر القلب الاقرب بالنهاية فصات الصوت عنيفا مزخوما . وجدوا ان صراخ (غريبة) اصداء ريح تردد حزنهم كلهم .. وعندما تعانقت أصوات بيضاء مع صوتها الاسود ، فتابعت العزف بلذة .. وودت لو اشتركت كل الدنيا بصوت واحد لا مجرد أغوار تمور في صمت مبهم ..

وتندى المربع .. لكن الحزن لا يرجع ميتا .. ثم غامت عيناها وفعلا لم تعد تبصر المربع المتقلص .. وهومت من جديد . وجدت وكأنها تطير في اجواء غريبة رحيبة بين مخلوقات اثيرية شفافة تحزن ، ولكنها تعبر عن احزانها بشيء أجدى من البكاء .. وكبر الموكب ، وكبرت صرختها . زحمها الى أرض المربع وحط هناك .. تقدم فارس اثيري لا تميز له لونا معينا ، قطع الحبل ثم خلص الرقبة المستكينة .. وتوزع الاخرون ينقرون رؤوس هيئة التنفيذ ، ثم مسحو الساحة من آثار الحشد ..

وخلا المربع الا من (حلب) فاتحا لها صدره كباب عدن رحيب .. هزتها أكف كثيرة .. حركت جسدها ولكنها لم تجب .. كانت في عناق مع حلمها وابتسامة مضيئة تتوج هذا الوجه المغمض .. ابتسامة لم يفهمها الاخرون لانهم لا يحلمون .

طقوس العائلة

موسى كريديه

ـ هل تخفّ الخيول ؟

ـ من هنا تبدأ حركتها .

ـ متى ؟

ـ في اول الليل .

كانا في نقطة لتجمع الخيول ، ودخلا معاً خلال الحركة ووجدا أنهما بسبيل وضع غير مألوف بدأ يتشكل ببطء عبر أصوات تضج ، ومصابيح صغيرة مثبتة في بضعة مثلثات خشبية مرفوعة ينتظمها سلك كهربائي طويل .

ـ هل تهدأ ؟

ـ انها لا تهدأ ان أصداءها المتبقية في الريح تظل تخاصم أسماعنا حتى في النوم . اننا نحلم بها . فالليل هنا وخلال هذه الايام ابيض لا حدود له ، ابيض رغم سواد منتشر ونافر في أمكنة ضاجة تكاد تحل في الرؤوس . ،

والرؤوس ؟

ـ تهرب بينما يسيل الدم خيوطاً غليظة .

ـ لم اشهدها من قبل .

ـ تعال معي .

وسارا معاً . وحولهما كانت بعض الرؤوس حليقة تلمع تحت الاضواء الساقطة من مصابيح سيارة تمر بطيئة وسط المرائي والشموع المتوقدة وقد صفت على شكل دائري وهي محمولة فوق أكتاف مئات من الصبيان .

ـ والسيوف أريد ان اراها .

ـ ستراها .

ـ متى تشرع عادة ؟

ـ في هذا الليل .

بعضهم في الاكفان البيض . وآخرون من غير ما اكفان . يضربون فيجري الدم خلال الثياب ، والمعاطف ، وفوق الاكتاف ، غير انه يتخثر فيلمح غامقاً لكنه يتجدد في اليوم الثاني عبر الليل حيث يسيل أحمر مائلا للسواد ويسيل كالقيح من أعلى الرأس حتى مهبط القدمين ثم انه يختلط بنثار التراب وقد عفرته الأرجل فأحالت لونه فوق ارض ختمت بنتن قديم ، وقذارة دائمة . واذ تغوص اقدام اخرى حافية في طبقات الوحل المنتشر كالسواد ، يجري الدم بشكل أغزر .

ـ هل يعني اننا سنقف هنا طويلا ؟

ـ لا .

ومشيا متمهلين . وكفا عن الكلام وحين انعطفا نحو زقاق صغير توقفا قليلا .. على يسارهما بركة دم . البركة صغيرة جداً . معتمة جداً . ولكنها رغم ذلك فقد بدت حمراء ، وعلى اليمين طفل يتبول . كان يبرك هادئاً وعيناه باتجاه الرجلين . انسابت المياه الساخنة متعرجة . وصبّ البول في البركة . نهض الطفل وبصق أحدهما . ولم يتكلما . سلّ الطفل خنجره ولوّح به في الهواء . ثم ما لبث ان غاب عنهما فانعطفا صامتين . وصارا قبالة شارع عريض ورأيا متسولاً . كان المتسول ينبش في فتات الطين ، وبقايا الروث بحثاً عن اعقاب سكاير وكان يجمع التبغ ويلمّ

بقاياه منثراً ما تجمع في راحته • وكان لديه كيس قذر بدا طويلا مرقعاً داكن اللون • واذ بدا علق الدم في ثنار التبغ بدت يدا المتسول خشنتين سوداوين •

ـ أريد ان ارجع •
ـ ولكنك لم تر شيئاً •
ـ لقد بدأت الحمى تضايقني •
ـ الا تريد ان ترى السيوف ، والناس ، و • •
ـ لا اريد أن أرى أحداً •

كانا معاً واقنعه على البقاء فعدل عن رأيه وكان الضيف يرى المدينة لأول مرة وقد كان قبل هذا الوقت يود لو يرى بعينيه •• يرى ما يحدث عادة • لذا قرر ان يزورها في الليل متخذاً له مكاناً أراد ان يكون مما تراه أعماقه وهي تحس نبض الاشياء المرئية وكم كان يود لو تتحول هذه الاصوات الى شواهد يقرؤها الناس •• وجلسا في رقعة ما لم تكن لتبعد عن حشود الناس ولن تبعد عما يحدث كالعادة ، وكل عام •• وجلس داخل عقل الفياه يتركب فوق آلاف الاجساد • وراحت الاكتاف تلتف وتلتف بقوة وهي تفد من بعيد ، ومن متفرعات الشوارع ، وفوهات الاسواق • تعالى الصياح وهبت الريح فحركت ما تدلى من عباءات النساء وهن ينزرعن على طول الشرفات في الابنية المتلاصقة • وشاهدا بعض الازقة حمراً بسبب تصاعد لهب المشاعل • وأخذا يرقبان في صمت ذبذبات العصب ، ورعشات الدم قبل ان يتدفق •

في زاوية تقعي أمام زقاق آخر وقفا عند ردهة غامضة هي جزء من الزاوية ومرَّ بهما شاب مجنون • كان أسمر • حليق الرأس • ذا لحية صغيرة • وكانت عيناه الداكنتان لا تنبئان عن ايما شيء • كان ثوبه داكناً • دهنياً • متهرئاً من أسفل • ومشقوقاً شقاً واضحاً من الوسط • وكان شعر جسده وفخذيه كثيفاً • لقد بدا هذا رغم الخرقة التي شدها حزاماً حول بطنه • كان المجنون يقفز قفزات غير منتظمة لم تكن لتتوافق

أبداً مع ضربات الصنوج التي راحت تصاحبها الطبول وهي تدق بعنف • وسحب الرجل ضيفه واختفيا معاً • وشملهما هدوء مؤقت • وكانا متلاصقين خلف جدار شبه مائل • بدا الجدار مثلثاً ومائلاً باتجاه رأسيهما •

ـ أهو شرير فظيع ؟

ـ لا ، على العكس •

ـ أتعرفه ؟

ـ نعم انه هادىء جداً •

ـ فلماذا حبستنا اذاً ؟

ـ سأوضح لك •

زحفت امرأة داخل الزقاق وكان قاعه غامضاً ولم تر أحداً غير ان صوت قدميها بدأ يقترب ومن بعيد بدأ المجنون شبحاً في آخر الزقاق • وكانت المرأة مهووسة تتلفت يمنة ويسرة واقتربت اكثر ، كانت عتبة بيتها تنحدر قليلاً وكانت معظم البيوت في الزقاق تغور تحت الارض وتبدو اقبية غير منظورة تتخفى في عتمة بطول قامة الرجل وكان بعضها يغور بضعة أمتار • وكان الباب المكون غالباً من نصفين لا يبدو الا ثلثه للعيان • رفعت المرأة ذراعها وأمسكت بالمجنون ، وسحبته بقوة وتدحرج هذا وفي لحظة غارا معاً تحت الارض •

ـ لم أفهم شيئاً •

ـ ستفهم •

ـ ما هذا ؟

ـ هذه المرأة ، أرأيتها ؟

ـ نعم رأيتها •

ـ لقد اعتادت ان تستأثر بالمجنون •

ـ تعرفها ؟

ـ أعرفها •

ـ متزوجة ؟

ـ نعم •

ـ لماذا هي تفعل ذلك ؟

ـ لا ادري •

ـ الم تسمع عنها شيئاً ؟

ـ كل ما أعرفه انها تفعل ذلك في غياب زوجها •

ـ وأين زوجها الآن ؟

ـ انه فيما أعتقد يحمل سيفه •

لم يدر لماذا كان يراها واضحة مثل السيف اذ يصعد في الريح او ينزل فوق الرأس • أبتعدا عن الظلمة • وصارا في الضـــوء • ورأيـــا مستطيلات من الرؤوس وهي متراصة في صفوف طويلة وكاد الضيف يلمسها وهي في قمة تموجها ، واحمرارها ، وتقلصها • وكانت الحمى قد باغتته من جديد وأحسَّ بجسده ثقيلاً • والتفت • فرنَّ الصوت ، والتمع في الفضاء سيف • سمعا رنته حين يهبط بقوة حتى لتلامس حافته حافة الرأس الحليق •

ـ هذا رأس آخر •

كان صاحبه ضخماً كتيس جبلي وكان شارباه يتناسبان مع ضخامته • وكان لصوته نبرة خشنة • ولمع رأسه في الضوء • وسال خيـطان مـن الدم • وأنسابا بهدوء وقد عبرا جبهته العريضة • وكان خط منهما قـد اخترق حاجبه الايمن ومر باجفانه متشابكا في أهداب سوداء طويلة • وبدت عينه اليمنى نصف المفتوحة تحت تكاثف الدم غير طبيعية حتى لكأن سهماً قد اخترقها لتوّه •

وضع الضيف أوراقه في محفظته الرمادية • وانغلق وجهـه وبـدا متعبـــاً •

وترامى بصره خارج الطقس • خارج طقوس العائلة عبر الليل • سمع اشياء أخرى سرعان ما زاحمته وكانت أصواتاً متميزة احسها تـدق

في داخله بعنف • وكان صوت لدم آخر انبجس فجأة ورآه يسيل أمام عينيه ، في حين لامست جبهته رملاً أبيض • وكان ثمة ظل دائري استطاع ان يحتمي فيه من الرصاص • ومسحت نظراته ظلاً آخر كان يسقط فوق اشجار محاصرة • حوصرت قربه تماماً •• الآخرون قرب التل يكاد يحس بانفاسهم ورآهم يحتمون وكان بعضهم يحتمي خلف الاشجار وفي اللحظة سمع نزيفاً • سمعه يغرغر ، ويتطامن بهدوء مكوناً بركة دم • نزّت البركة في الرمل الابيض وكان الرمل يجس مقدم رأسه •• وغمره فيض ، ملتهب ، متموج من يقظة لم يكن يحلم بها من قبل كانت قد هبطت عليه من بعيد وكان رأسه حراً • مطلق الحركة في المدى الواسع بينما ظلت عيناه متعلقتين هنالك • مشبوحتين • ترمقان في خجل مشارف الاردان ، وتعبران حشدا هائلا تجمع للتو • واذا يمر الاصيل ، وتنحدر الشمس فلا يرى غير تلال بعيدة وحشداً هائلا •

ـ انهم الآن ثلاثون الفاً •
ـ هذا حشد ضخم •
ـ ترى ماذا يحمل هؤلاء ؟
ـ لا أدري •• لا أدري •
ـ ولكنني أعرف تماماً •
ـ ماذا تعرف ؟

وتابع الضيف :

ـ أعرف انهم لا يحملون السيوف ولا الرماح •
ـ هل اذيع النبأ ؟
ـ نعم •
ـ متى ؟
ـ قبل لحظات •

(صمت) ثم (وقع اقدام) •• ايقاعات موحدة • مجللة بعويل النساء الخفرات وقد تجمعن كالسيوف وتحشرج في اصواتهن طائر

رمادي ، وكانت حناجرهن تتلون بين الحين والآخر ببكاء مخنوق يجري متباطئا كعربة نواح طائرة في الحلم • كان هذا يجري في توتر ملحوظ لحظة التجمع الهائل •

ماذا عن هؤلاء الخمسة والثلاثين الفاً ؟ (ارتفع العدد) كيف تجمعوا ؟ اتعجب ؟ ولم العجب فالاقدام ما تزال حولك تتزاحم وتشتبك فتضيق المدينة بأسرها حيث ترتفع السيوف بيضاء تلمع في الضوء ثم تهبط حادة فوق الرأس • انها تطير وهي على أية حال لا تطوّح بالرأس غير انها تقيم خطوطاً صعبة التمييز •

ـ دم •• دم اليس كذلك ؟

ـ وماذا تريد ؟

وتراءت له البركتان في الداخل ، وفي الخارج • كلتاهما بركتان ليس بينهما غير منبسط من الرمل الابيض يتحرك في لحظة واحدة ، ويموج ، وتغمره الدماء •

ـ لا أريد شيئاً ولكنني اعرف •

ـ تعرف ماذا ؟

وتابع الرجل :

ـ اعرف ان هذا دم •

ـ ومن قال لك غير هذا ؟

ـ ولكنه يختلط • هنا يختلط • يختلط بالبول ، والخراء ألا تفهم ؟

وأراد أن يكمل ما بدأه • وهنا قاطعهما النبأ • لقد اذيع نبأ آخر فازرقّ جلدها ، وخجلا معاً وصارا مأخوذين ثم صار الحشد اربعين الفاً • (لا شك انهم لا يحملون السيوف ولا الرماح) رنت العبارة فأخفاها في صدره ولم يبح بها هذه المرة وبانت البركتان • احداهما في الداخل • والأخرى في الخارج •

رأيا أيضاً أطفالاً في اكفان بيض • التمعت عيونهم • كانوا قادمين في جوقة من داخل الزقاق • وكانوا في لغط وهوس • وتداخلت اصواتهم

فبدت مبهمة وصاروا في الشارع ولم يكونوا ملطخين بدم غير انهم كانوا فرحين وقد تدافعوا وما لبثوا هكذا بضع دقائق حتى غابوا في الزحام .

ورأيا بعد هذا جثة . كانت تتمدد قرب دكة مثلمة الأطراف . مستطيلة ازاءها قشور ، وبقع بلون القيح ، وبصاق وخرق . انها جثة لشاب وجد له مكاناً فارخى جسده ، مستلقياً على ظهره وقد شبك اصابع يديه وجعلهما تحت رأسه تماماً وكان رأسه ملفعاً بشاش ابيض ، وكمادات بدت حمراء وتكاد لا تلمح قسمات وجهه بسبب تشابك واختلاط خيوط الدم وهي تظلل عينيه . وتسائل الرجل الضيف واراد أن يكتب عبارة ولكن صاحبه فاجأه اذ قال له ان هذه الجثة حية ولم يصدق ولكنه تنحنح قليلا وبصق على الارض حين رأى عيني الشاب وهما تنفتحان قليلاً باتجاه الظلمة النصفية التي تشكلت جهة الرأس .

ـ ان رأسي يؤلمني .
ـ من الافضل أن تنام بعض الوقت .
ـ ولكنني لا استطيع فالاصوات تحاصر المدينة .
ـ ما دام الامر كذلك فتعال معي . اتبعني .

وتبعه فوصلا محلاً صغيراً وأستراحا مقتعدين حصيراً ، وأسندا ظهريهما وقد انتصبت دلال القهوة السوداء أمامها . كانت وسط النار بينما أتيح للريح ان تتسرب اليهما مارة بالجمر فيتصاعد لهب أزرق . وبدا لهما صاحب المحل كحارس ليلي . فعيناه الصغيرتان كانتا تتحركان أفقيا . وأما رأسه الملفع بقطعة قماش أبيض فقد بدا حذرا واذ تتحرك عيناه هكذا تحركت اليدان أيضاً وانهمكتا في صب القهوة للرجلين . وكان يصب القهوة بمهارة دون ان يتكلم . كانت الريح هذه اللحظة تهب رخية بعض الشيء . وكانت رائحة البن تملأ المكان . وراح الضيف يرشف القهوة ببطء . وشردت عيناه ، وخفّ جسده وتباعد وصار في الخارج . قرب تل يجاور أشجاراً محاصرة . رأى بركة دم وهي تنطّ في الرمل ، وكان يمد يديه بينما يمر الآخرون . مات بعضهم وكان لابد

أن يموتوا • ثمة تغطية لانسحاب جرت قربه بعد اشتباك دموي • ذلك ما حصل بالفعل فهل يستطيع أن ينسى ولكنه لا يتذكر كل شيء خلال تكاثف الدخان غير انه يتذكر تماماً وجه البركة فهي على مقربة منه • كانت تمثل أمامه • وكان الدخان في الاعالي •• ، وتحركت عيناه ، واصطدمتا فجأة برأس •• أطل الرأس وبدا غزير الدم • ما الحكاية ؟

ـ أمي ••

سمع صاحبه :

ـ وماذا بها ؟

ـ هه مسكينة أمي •

وهزّ رأسه :

ـ لقد كانت تغسل •

ـ تغسل ماذا ؟

ـ لقد كانت تغسل الكفن

كانا يتحدثان بهمس ، وتابع الرجل :

انه كفن خالي • أخوها يضرب بالسيف وعادته ان يضرب رأسه بالسيف حتى ليصبح كفنه الابيض قطعة حمراء قانية وهو عنيد ، كأي بطل لا يلقي بسيفه حتى بعد ان يرى الناس مياه الدم وهي تتساقط من رأسه بغزارة ، واذ ييبس الدم يتحول لونه الى أسود ، فاقع • ثم يجيء بكفنه ويعطيه لاخته ويقول لها : أغسليه •• وتمسك أمي بالكفن وتقول :

ـ ما أغزر هذا الدم !

انني اتذكر انها كانت تضع الكفن في (الطشت) وكان الطشت حديثاً ، مخضر الحواشي ، مستديراً يقعد قرب حنفية ماء كانت تطل معقوفة فتحتها باتجاه بالوعة الدار • وتصب الماء الملون • كنت أرقب أمي وكان لون وجهي يتغير بينما يتموج الكفن في الماء الساخن وكان يحمر •• وكانت يدا أمي تموجان خلال بركة الدم •

قطرّت الكفن ، وزال الدم • أمتلأ الطشت ، فاض ، افرغته بسرعة •

ثم امسكت به ووجهها مغضن ، وعيناها نصف مفتوحتين • واذ تعتلي سطح الدار تعلق الكفن • تنشره فوق حبل مشدود من الجانبين ، وحين تنزل تفرغ السائل الاحمر وكنت أراه ينساب • وسمعت خريره • لقد رأيته بعد انتهاء العملية :

ـ لماذا لا يكف عن فعلته هذه ؟

ـ من ؟

ـ اخوكِ ومن اعني غيره ؟

ـ انتجاهل لماذا ؟

قلت لها بحدة وكأني اعصف في براءة وجهها :

ـ نعم اني أجهل لماذا ؟

فقالت :

ـ أسكت •

فقلت لها على الفور :

ـ لن اسكت •

فقالت بصوت واهن :

ـ ايه ايها الملعون اتريد ان يشبعك ضرباً ؟

وسكت وضاق صدري ، واحمرت عيناي ورغم محاولاتي الكثيرة لانسى كل هذا فقد ظلت الصورة تمط حمرتها في داخلي ، وتسع وظلت أصداؤها تضايقني كثيراً وتلاحقني حتى في المنام وأذكر اني خرجت ساعتها وكنت كالكلب واشتم الناس جميعاً •

• • • • •

نهضا من مكانهما ، ونثر الضيف بعض النقود وكان صاحب القهوة يخفي عنهما ضيفه مديراً وجهه ورغم ذلك فقد شاهداه يتمتم وحده فلم يفهما شيئاً • وخرجا صامتين • ومرا بزقاق آخر يفضي الى مدخل أكبر أسواق المدينة وفي الطريق قال الرجل لضيفه :

ـ ارأيت الرجل ؟

ـ رأيته ان سحنته كئيبة جداً .

ـ انه حزين .

ـ لقد كان يتمتم وحده .

ـ لا لم يكن يتمتم .

ـ بل ماذا كان يدور في ذهنه ساعة خرجنا ؟

ـ لقد كان يسبنا .

وخلال ذلك مرّ ثلاثة اشخاص تعالت أصواتهم في حماسة ظاهرة .. كانوا يتحدثون عن بطولة آخر عزاء أعتاد ان يجعل مقدمة رأسه تطوف حول الضريح بينما تظل مؤخرته تزحف ببطء وهي في هدير الشارع ..

قال الرجل لزميله :

ـ اخف هذا الجهاز

ـ لماذا ألاَ تريد ان تسمع ؟

ـ الا تدري انهم لو شاهدوه لقطعوا رأسك بالسيف .

ـ ولكنني لم افعل ما يسيء ..

ـ نعم انه لا يجوز لك أن تسمع شيئاً وأنت في حرم الطقس .

ـ أي حرم نحن في الشارع .

(صمت ثم وقع أقدام لحصان ، ضخم بني اللون ، عار تماما الا من عرف مسدل ، وسيور أمامية تجاذبتها يدا فارسٍ يرتدي كفناً أبيض . في وسطه حزام . وفي طرف الحزام عُلق سيف مغمد بدا يتأرجح يساراً جهة الخاصرة) .

اغبرت السماء بعض الشيء ، وهبت ريح باردة ودومت قليلاً غير انها ما لبثت حتى تكسرت قربهما وكانا ما يزالان يتمشيان ويضحكان وبصقا عند مرتفع ترابي ينحدر بطيئاً نحو مقبرة المدينة في الجانب الآخر ولم يتوغلا فيها فالظلمة تكتنفها تماماً والطريق اليها بعيد . ورجعا . وكانت أقدامهما ما تزال تجوس أرضاً رملية رغم اعمدة الاسمنت التي ظلت

جدرانها السوداء ترجع صدى اصوات الطبول ، وضربات الصنوج المتجمعة في اضخم جوقة اشتعلت بالحمى وكادا يلمسانها ، وراحت الجوقة تشعل حماها في صدور الخيل وقد أخرجت من حظائرها لتتصدر موكب الحشد وهي خاشعة ، ذاهلة • وتعثرت في مشيها فالزحام شديد جداً ، والاضواء ساطعة ولم تكن تعرف ما يفعل بها سائسوها غير انها بدت تهتز ، وتجفل أمام تفصد النار وقد شبت فوق رؤوس مئات المشاعل وهي تمر في امتداد طولي ينسرح بين منعطفات الازقة وفوهات اسواقها الآهلة بالبشر ، وبالحمى ، وبالدخان ايضاً ، وضحكا وسط الظلمة داخل الحشد وكان الخوف طائراً مسّ اهدابهما مسا رقيقاً ولكنهما تشجعا في النظر عبر الضجة الى الوجوه المذبوحة خلال الاضواء والاصوات المتدلية والمتراكبة غير انهما خافا ان يكونا خارجين على مألوف الطقس القائم بينهما فتلمسا رأسيهما وتحسساه فلم يجدا اثراً ما لدم كان من الممكن وبسباطة ان يسيل •

وفي الزحام • التفت الناس فجأة • وتجمعوا كتلة واحدة • ففي الوسط ثمة اربعة اشخاص كانوا يتحلقون حول بطل عنيد لا يقهر ولا يريد ان يتنازل • انه يصر على الضرب • ولن يلقي بسيفه حتى يصير دماً يريد ان يراه متوهجاً امام دهشة عريضة ستخطر فوق كل الشفاه والعيون ، خصوصاً عيون النساء وهن يطلقن الصرخات الزاعقة بين ايقاع الطبول ، وضربات الصنوج ويرى خلال ذلك الدم وهو يتحدر من الرأس • ومن خلال الشعر أيضا •• وحاول الرجال الاربعة ان ينتزعوا سيفه :

فقال الاول : يا عزيزي يكفي •• يكفي
وتمتم هذا واختلجت عيناه بالدم •
فقال الثاني : ألا تكف عن الضرب ؟
فكانت الاجابة ضربة سيف أشد •
وهدد الثالث قائلاً :

ـ اسمع يا هذا ان لم تلق بسيفك فسنأخذه منك بالقوة .
وراحت يمناه تصعد السيف وتهزه فوق خطوط الدم .
فقال الرابع في يأس : ـ اتركوه يقتل نفسه .
وقال الضيف للرجل :
ـ أيكون هذا زوج المرأة صاحبة المجنون ؟
فقال الرجل :
ـ ربما ...

ولوّح البطل بالسيف مرة اخرى فزعقت النساء وابتعد الرجلان والقيا نفسيهما وسط زحام آخر ، ومرت منهما رؤوس بلا سيوف . ولكن السيف ارتفع فوق مدى الرؤوس الباقية وفي زحام (الصالة الاخرى) وجد نفسه فجأة . ثمة عيون . نظراتها تتجه نحو نقطة الضوء المسلط فوق جسد البطل العاري الا من سيفه . واستقر الناس . وترقبوا اللحظة . أية لحظة ؟ انها لحظة تجسد البطولة حيث ينفرط الضحايا كحبات المسبحة تحت قدمي البطل . لذا فقد هدر صوته في الهواء ، وارتفع سيفه . وسكن الجميع . كتموا انفاسهم ولم يتحركوا . ثم هوى السيف ، وارتفع مثل ما هوى . وتكرر هذا مرات ومرات .. ولا شيء . ويئس الناس وقبل ان يتفرقوا قال واحد منهم (ان دون كيشوت لا يجيد التمثيل) واسدل الستار ...

توالت المواكب ، وخفقت الاعلام والاصوات ما زالت في ذروة توترها . اما السيوف فما تزال مشرعة . كانا يسمعان ويعيان كل شيء ، ويرقبان كل حركة . وكان ليل السيوف لا يهدأ ولكن هل بوسعهما والحالة هذه ان يفلتا من قبضة السيوف وان يدعا طقوس العائلة .

ـ الى اين يمكنك الذهاب الان ؟
فقال الضيف :
ـ في هذه الساعة لا ادري هل ثمة مكان ؟
ـ هناك ضوء آخر .

واشار بيديه ولم يفهم ضيفه فتساءل :

ـ ماذا تعني ؟

ـ هناك شلة أصدقاء

واقتربا معاً ودخلا زقاقاً خرافياً ، اقتربا من أحد الابواب وحال اقترابهما سمعا صوتاً فدفعا الباب فانفتح ولم يستقبلهما احد غير ان الرائحة تسربت اليهما • وكان القبو معتماً الا من أضواء باهتة • كانت الشلة تصخب في الداخل والمكان يغور عميقاً تحت الارض •

ـ لقد جذبتها الى جانبي وكان شعرها نصف المسدل يغمر نصف وجهي تحت عتمة المساء •

فقال الثاني :

ـ لقد كان الطقس دافئا والاضواء تومض من بعيد •

فانبرى الثالث :

ـ أنت تكذب دائماً •

فردَّ عليه :

ـ اتريد ان تقول انك عريتها تماماً ؟

فقال الرابع :

ـ لم اكن في حالة سكر ساعة تعرَّت •

فقال الآخر :

ـ لا بل قل لم اكن كذلك ساعة اندلقت الكأس فوق •••

فقال الاول :

ـ يا لكم من كذابين صغار •

فقال الثاني :

ـ أنت اكبرنا اذن فانت اكذبنا •

وصفعه قائلاً :

ـ اسمعوا يا ••••

فصمت الجميع ، وانتبهوا لنداء سيدهم ولكن هذا تمايل قليلاً وكاد

يسقط على الارض لولا ان أحدهم ارجعه الى مكانه فقال لهم ورأسه يتمايل :

- اسمعوا .

فقال الجميع :

- نحن نسمع

وصاح بقوة :

- حاضرون ؟

فقالوا بصوت واحد :

- حاضرون ..

- والآن قولوا ...

- ماذا نقول يا حضرة السلطان ؟

- هه قولوا (موافقون) .

فقال الجميع :

- موافقون .

وبعد لحظة سمعت صرخة :

- اسمعوا . انني ...

التفت الضيف وقال لصديقه :

- الا نخرج من هذا المكان ؟

- سنخرج .

- عجل قبل ان يرانا احد .

فوافق الرجل وقبل ان يخرجا سمعا اصواتاً اخرى كانت تنبثق من داخل العتمة :

فقال الاول : - نحن هنا أليس كذلك ؟

فقال الثاني : - كلا يا سيدى نحن هنا في الزمان .

فقال الثالث : - ماذا تعني أنحن فوق ام تحت ؟

فقال الرابع : - كلكم أغبياء .

فقال واحد منهم :

ـ ومن ادراك ؟ انك لعراف كبير .

فقال الاول وهو يتحدى الشخص الرابع :

ـ يبدو ـ واكمل ـ انك تتحدث عن نفسك

ـ انـا ؟

ـ نعم .

ـ انا لا اتحدث عن نفسي

ـ بل عمن تتحدث ؟

ـ انني اتحدث دائماً عن ...

ـ عن ماذا ؟

ـ هه . عن شيء كبير لا تدركه ابداً .

ـ كبير ؟

(ضحك ...)

ـ واكبر من رؤوسكم

(ضحك ...)

ـ واكبر من رأسك .

واختلط الصخب .. خرج الرجلان كشبحين يعبران ممر الزقاق الضيق وخلفا وراءهما الظلمة والاصوات واتجها نحو الزحمة فرأياهـا تشتد رغم الليل الزاحف نحو الضوء ، وكبرت حولهما الاصوات بينمـا ظلت الاجساد تتلاصق اكثر فاكثر وتنمو . واذ يجاور موكب موكبـاً آخر يتصادمان كشرارتين كبيرتين . الضغط على اشده ، والسيوف عارية . وهامات الرجال تتوزع في مواكب تفد من هنا وهنالك وتتجمع في الساحات والشوارع ، ومداخل الاسواق . وهدر موكب اخر وفي خيلاء شق الزحام وكانت الخناجر ما تزال تطوق خصورهم وكانوا في ركض متواصـل لا يهدأ ..

وقال الضيف لصديقه :

ـ ماذا ترى ؟

- انا مثلك ارى ما تراه .
- ولكنني لا أرى بشراً
- بل ماذا ترى ؟
- انني ارى قبائل .. قبائل تتجمع .
- هذا صحيح فالسيوف مشهرة .
- انها تلمع في الصخب وهي فضية .

وقال الرجل :

- ثمة صهيل .. ثمة قتال . لنبتعد .
- اي نعم لنبتعد .

ودخلا شارعاً اقل أزدحاماً . اصفر وجه الضيف وبدا متعباً اكثر من ذي قبل . وأحس بصداع شديد يدهم رأسه فجأة . وخلال الضجة سمعا شخصين يتحدثان واستغربا .

فقال الاول : لقد تحشدوا الم تسمع بهذا ؟

فقال الثاني : بلي سمعت هذا قبل ساعات .

فقال الاول : الآن بلغوا خمسين الفاً .

فقال الثاني : انا اقدّر اكثر .

★

ارتفعت أصوات (البيو) وبان لهب المشاعل في لمعان السيوف وهي تعلو وتهبط في حركة ينتظمها بين الحين والاخر صوت لبوق ضخم اعتلى صاحبه مكانا عاليا بحيث صار يشرف على الرؤوس المحتشدة في خطوط طويلة وهو لا يصوت الا حين يتلقى اشارة تبديها ذراع ثم سرعان ما تهبط ضاربة ضربا موقعا فوق طبل جلدي ، مضلع الشكل ترافقه طبول كثيرة ، وصنوج برنزية اللون .

استمر هذا فترة حتى فوجيء الزحام بصوت نافذ . انه صوت نقالة الاسعاف . واذ تسكن عجلاتها ، وتستقر ، يهدأ جانب من الصخب وتسمر الناس في أماكنهم واتجهت رؤوسهم نحو مؤخرة السيارة

البيضاء • وكان لها من الخلف بابان انفتحا في الحال ، وشوهدت ثلاث (سديات) تحمل ثلاث جثث فوق اكتاف ستة اشخاص كل اثنين يحملان جثة • وكان لحاملى السديات تقاطيع حادة ، مغضنة بعض الشيء واعتمرت رؤوسهم باكفان بدت من خلال الدم يابسة وكانت ذات حمرة متخثرة تتسرب منها رائحة غريبة •

قال الضيف :

ـ اني أشم رائحة غير مألوفة •

فقال الرجل :

ـ ولكننا نألفها •

ـ انها مقرفة الى حد فظيع •

ـ انها شبيهة برائحة الموت • انها مسحوق لعظام تحترق •

كان اللغط قد خف وكانت السماء تلك اللحظة بلون الخريف ومرة ثانية دوى صوت نقالة الاسعاف وتحركت عجلاتها باتجاه المستشفى الواقع في طرف المدينة ، وعاد الصخب كاقوى ما يكون ورجع الرجلان وكانا متقاربين يبطآن السير • وقبل أن يصلا عتبة البيت قال الرجل لضيفه :

ـ اتسمع ؟

كان الصوت يأتي من بعيد •• جن •• جن •• جن •

جن •• جن •• جن

فقال الضيف :

ـ انني اسمع •

وَرَقَةُ الأحتجاجِ العاشِرَة

حضير عبد الامير

« كانت الاصوات تتصاعد مرددة وأعدت معهم .. داخليا مع نفسك وفي المرة الثانية انبثق صوتك خشنا كلحن ارغن ولكنه ضاع مع الاصوات الكثيرة شعور بالاحساس النفيس وبساطة الاشياء بدأ يتصاعد ويلف اعماقك »

* *

سطع الضوء أمام عينيك وارتفعت أصوات تصلى على النبي وآله وميزت منها أصواتا ناعمة واخرى خشنة عريضة .. أعلام سود حريرية انسدلت أمام وجهك ، قطعت عنك الضوء والمصابيح ذات الخمسمائة شمعة ، والتفت الى جهة اليمين كانت أربعة أعلام خضراء بنقوش صفراء ذهبية وهمست مع نفسك انها أعلام منذورة ، الجدران مفروشة بالسواد ، وأحسست برهبة المكان ولكن اشراقة المصابيح والثريات الملونة أزالت من نفسك وحشة مريعة ومن زاوية بعيدة انتصب رجل وهو يعالج نصب عدة اسلاك وفوانيس ذات زجاج ملون ومرايا بيضاء وصفراء وخضراء جوانبها مذهبة ومطعمة بالوان الشذر الازرق والعاج الابيض وكانت شمعة عسلية صفراء ذات فتيلة جديدة بيضاء بدأت تشتعل وتملأ المكان برائحة الشمع المسكوب الذائب ، اقتربت مسرعا ومرت بخاطرك هذه

الزينة لحكم جذاب مر في خيالك ذات يوم وامتـــدت يدك وامسكت البرقع الاسود وبجانبه برقع اخر من القطيفة الخضراء وراحت اصابعك تتحسس ذلك المخمل وتلك النعومة الحريرية السوداء .

قلت مع نفسك لعلها قبة القاسم وتطلعت اليها بعمق تستشف منهـــا عبير الاغتراب والرمز الى شيء كان يجب أن يكون وكذلك بالنسبة اليك، أعراس الفرح وزغاريد النساء وولدك يسير بجانب اصحابه ، وليلة ربما كونت معالمهـا انت .. ليلة دون سواد ولا ظلمة ومن بعيـــد تظهـر أمامك عدة فوانيس مشتعلة قرب الباب الواسع والنساء يتراكضن فرحـات يذعر ويقترب ولدك وأصحابه وتبتلعهم الباب العريضة وانت تقف غـير بعيد تتطلع وترتجف اعضاؤك فرحا ولم تعد تتكلم بشيء لان قســمات وجهك ضاحكة ومن خلال تلك الضجة تتصاعد زغاريد انذار وتنتبـــه لنفسك .. ثم تعاود الهمس لا أدري يقال أن اليوم يومه .. لعله كـان ذلك اليوم .. يوم ولدك ايضا وتعاود الهمس ولكنه يوم خيالى لم يـأت ولم تشاهده ..

القبة مزينة ، وأرتعشت في نفسك حسرة ، تصاعد لغط كثير وابتعدت أقدام كثيرة واقتربت اخرى وابتدأ المكان يزدحم واختفيت مع زحـــام الكثيرين من داخلى المكان . انتبهت لصوت عال وهو يهمس في ســـماعة بعـــد ان تطلعت لصفيرها الذى ذاب في ضجة المكان ، طلب رجل منكم أن تجلسوا وتستمعوا ، أولا جلس الكثير وكنت معهم وقلت مع نفسك ، جئت لاخلع ملابسي وألطم على صدري لا لاجلس وأستمع فقط ولكنك كنت كنقطة صغيرة مع هؤلاء ، صعد رجل المنبر وجلس وبعد أن تـكلم كثيرا أحسست به وهو ينعي بصوت جذاب ويشهق وكانت عمامته بيضاء وتطلعت لوجه الرجل اكثر فأحسست به يبكي بصوت منكسـر ، وكانت رؤيا ولدك أمامك لم تبرح وتذكرت الدموع الكثيرة التي ســالت ... وارتفع نحيب رجل آخر بقربك .. رجل سحقته الايام وجردت منه حتى حيوية الاهاب ، ودق رجل كهل صدره بقبضة يده وقلت مع نفسك انـه مثلى فقد ولده ومع ذلك سأدق أنا على صدري .

خرج الكثير من المكان وجاء آخرون وطلبت من صبي صغير قدح ماء شربته ثم تذوقت طعم ماء الورد في فمك وطلبت قدحا ثانيا ، ووقعت في حجرك سكارة واخرى دخنتها ولم تمتص منها نفسا حتى سمعت احدهم يصيح ، رحم الله والدين من يخلع ملابسه ، امتدت يدك لاردان ثوبك وعالجتها راضيا ثم اطفأت بقايا السيكارة بنعالك • حدثت ضوضاء كثيرة وأمتلأت اذنيك بوشوشة أصوات ، كنت تنظر بعمق والاعلام تهتز ، علم أسود وآخر كبير متيل باصفر وآخر الصقت فوقه كتابة بيضاء وهناك اخر وردى ورماني امتدت مته ذيول مطرزة •

كانت رائحة ماء الورد والسيكاير كثيفة وكان المكان أشبه بيوم مشمس هدأت الضجة بعض الشيء ، كانت الثياب سوداء وهي تتهدل لاسفل وتشد فوق البطون وكانت رائحة الاجسام قريبة منك ، رجل بارز العظام وآخر بجنبك يملأ الشعر كتفيه وصدره وانسدلت ثيابه ايضا وبرز صدره عاريا وانتظر جامعا يديه على كتفيه كان رجل قربك يهرش وآخر يدلك صدره بيده ويأخذ شهيقا طويلا وصعد آخر درجات المنبر ، كان مجللا بالسواد يرتدي كوفية سوداء وكان وجهه يغرق بسمرة ثابتة وشاربه حليقة وعيناه واسعتان وتطلع قليلا • هبت نسمة هواء وخفقت الاعلام واهتزت الاسلاك والمصابيح المتوهجة ، تطلعت للقبة كانت منيرة وملونة أشبه بالصور النادرة ، مرايا كثيرة وثريات الامام الحسين في كربلاء وعظمتها ثم اغطيتها الحمراء الغامقة المنسدلة فوقها •

شعرت بالسكون حولك وأبتدأت العيون تتطلع متصاعدة ، تحرك ثوب الرجل ورفع يده الى لاعلى منظما الايقاع واهتزت الكوفية وكان وجهه تحتها يأخذ أشكال اللحن المنطلق • أعادد الرجل كلامه مرة ثانية وثالثة وأحسست بالمكان يدوي •• كانت الاصوات تتصاعد مرددة وأعدت معهم •• داخليا مع نفسك وفي المرة الثانية انبثق صوتك خشنا كلحن أرغن ولكنه ضاع مع الاصوات الكثيرة • شعور بالاحساس النفسي وبساطة الاشياء بدأ يتصاعد ويلف اعماقك •

ساد الصمت مرة ثانية وانبثق صوت الرجل مستعرضا قصيدة طويلة

كانت بيده .. حياة الشباب الزاهية في ظلال الابوة ونعيم الحياة الهانئة . التفت نحو القبة المزدانة بالمرايا واحسست بألم كثيف يتجمع مرة ثانية .. تكلمت مع نفسك .. هذه هي المأساة .. أين منها مأساتي أنا .. ولكننا لسنا مثلهم ، رفعت يدا واحدة وضربت بها صدرك ضربة متوسطة مجاريا الجميع ثم رفعت كلتا يديك الى لاعلى وفتحت كفيك ثم هويت بهما على صدرك فاهتزت بطنك واندفع رأسك الى الخلف وانبثق صوت عريض رنان كان صداه عاريا ضمن ايقاع واحد ، ضربة متوسطة واخرى عريضة عالية كثيفة لكأنها انسكاب الماء بقوة فوق أرض مبلطة بالقار والاسمنت . وكنت هناك في بلدتك معروفا من الجميع لانك كنت في حالة الم كثيفة .. قال عنك البعض مسكين فقد ولده وقال الاخر لقد تحجرت دموعه ولم نشاهده يبكي وكنت أعرف كل شيء عنك ، مدى حبك لولدك ثم احساسك بفقده وفي يوم سمعنا بأنك تريد الهجرة كما هاجر المئات .. وكانت حجتك طلب الرزق ولكني كنت اعرف السبب .. تغيير المكان والابتعاد عن ذكريات عزيزة الى نفسك وانت الوالد الشفوق وحينما وطئت قدماك الارض الغريبة احسست بالتيه وحاولت الانزواء . أردت أن تبتعد عن مكامن الرؤيا ولكنها أبت الا أن تلوح كلون غبشي أمام عينيك وفتشت في أكثر من مكان وكنت تلقي بأوراقك واحدة أثر احرى واليوم قررت أن تذهب بنفسك .. انت الرجل المنذور وانت نفسك الورقة العاشرة ، وحينما عزمت شعرت برهبة كبيرة وكان المكان قريبا منك ومحرم مجلل بالحزن والسواد .. أيام عشرة مرت وانت تفتش عن مكامن السلوى وحينما رميت بورقتك الاخيرة كان الحزن العميق أمامك ولكنك كنت أقوى من الحزن هذه المرة ، تستطيع أن تمسح فوق الجراح باصابعك الالم ، ذلك ما بدأت تفكر به وكانت عشرة أيام نسيت فيها حتى نفسك قال لك البعض ماذا تفعل في هذه الايام .. ؟

أجبتهم راضيا ، كنت أرمي ورقتي العاشرة .. ولقد نذرت الكثير من السكاير والاعلام وعندما سأعود في السنة التالية وأنا احمل طفلي سأفي بنذري وضحكت .. ولاول مرة اشاهد ضحتك عميقة صافية .

الرؤى العمياء

غازي العبادي

يوقظه دوي القطار القادم من كركوك • يفتح عينيه ، يتمطى،ينقلب في فراشه • تطقطق عظامه ، يتثاءب ، يحاول النهوض ، يجذبه النعاس ثانية للفراش •

(قصة نجمة مضيئة)

غلالة الظلام تنتشر في الافق الغربي ، الجانب الشرقي وردى • النجمة الكبيرة الزرقاء المضيئة ، معلقة في مكانها المعتاد ، تشع كأنها الف نجمة يود لو يمسك بها ويضعها في سقف غرفة أمه بدلا من الفانوس الكابي ، فهي تبدو وكأنها مصباح كبير علقه الله في السماء الواسعة للفقراء• أن هذه النجمة تضيء كالقمر ، لا بل انه يبدو احيانا الى جانبها ، شاحبا اصفر مثل وجه انسان ميت •

(وجه امراة ميتة)

هو شاهد وجه انسان ميت • كان وجها لامرأة ارمنية • عندما كانت مسجاة في ساحة الدار مكشوفة الوجه تحيط بها الازهار • تطلع الى وجهها بأمعان ثم غادر مرتعبا • تصور وجهها مثل القمر عندما يكون شاحبا ، أما هذه النجمة فلا ! ترى من اي شيء خلق الله النجوم؟وهذه

النجمة بالذات ؟ من بلور ؟ زجاج ازرق ؟ أم من ضياء متجمد ؟ أم عساها درة سماوية خرجت من بحر القدرة وطفت فوق وجه السماء ؟!

(مجرد احلام)

عندما يستيقظ في الصباحات السابقة كان يحلم بالذهاب اليها ، مرة ، فكر أن يركب متن طائرة ، مرة اخرى على جناح طائر كبير كذاك الطائر العظيم الذي رفع السندباد من وادي الماس واللآلي الى قمة الجبل العالى دون أن يشعر به كما في القصة ! فهو لو ذهب اليها وصار فوقها لتخلص حتما من حياته المرهقة التي يقضيها في منطقة بين السكتين القذرة هناك لا توجد معامل طابوق يضطر المرء أن يقطع نومه اللذيذ فوق السطح منذ نصف الليل ليصل اليها ! المفروض ، أن الاب هو الذى يقوم بهذه المهمة لا الولد الصغير ، كما يفعل هو ! لكن والده هرب من البيت وتركه وأمه وحيدين بلا معيل وعليهما أن يتدبرا أمر معيشتهما بدونه ! أن كل ما يعانيه بسبب والده ! فلو لم يهرب من البيت لظل الى الان بالمدرسة كبقية زملائه الذين أخذوا يستعدون لاداء بكالوريا السادس • ولما اضطر للعمل في معامل الطابوق البعيدة !

(يوم من ايام الجحيم)

في ذهنه برقت ذكرى آخر يوم قضاه في معمل الطابوق ، في نهار ذلك اليوم شاهد نار جهنم بعينيه ، وأحسها تحرق جسده • كان طوفان الشمس يغرق الارض • الارض تلتهب تحت الاقدام ، الهواء الحار يصفع الوجوه اشبه بسنان نار ، كأنه يهب من فوهة تنور • السكة الحديد التي تتدحرج فوقها العربات الصغيرة تحولت الى حجر كاو • الخشبة المثبتة في خلفية العربة كانت تحترق ، عربته المثقلة بالواح اللبن تنساب خفيفة ، وقدم فوق اللوح الخلفي واخرى تضرب الارض لتدفع العربة للامام ، منطلقة نحو الشابين الباسمين اللذين يقفان ملثمين كعمودين من آثار مندثرة وسط بحيرة الشمس ، ولم يبد منهما الا عيونهما السوداء اللامعة وسط وهج الظهيرة • يستقبلانه مازحين «آه» انت ايها الحضري !

تموت من أجل الطماطة ! يفرغان عربته يصعد فوقها يدفعانه بقـــوة الى الجهة المعاكسة ، الى الماكنة التي لا تتعب .

(احساس بالصداقة والعداء)

تغمره سعادة ، يود لو وقفا هذان الشابان عند فوهتها ، بدلا مـــن المسطحات لدفعا له عربته وهي مثقلة بالواح الطين وليس وهي فارغـــة ، فهما اكثر طيبة من الخنزيرين الواقفين عند فوهة الماكنة في الظل يشربان المـــاء ويصرخان بمن يتأخر ولو لثوان كالكلاب . ود لو يلعنهمـــا ويسبهما ثم لا يعود الى هنا ابدا . ولـكن لا بأس يا طالب . فانت الان الرجل الوحيد في البيت ! بعد أن هرب القواد الكبير ! » هذه جملة امه التي تكررها أمام الاخرين كل يوم .

(الشمس والفولاذ)

العربة تقترب من مفرق السكة ، تمر فوقه عليه الان ان يعيد التقسيم الى وضعه الاول ، لتمرعليه العربة التالية . عادة،القدم اليمنىتوءدى هذه المهمة ، فلذا يجب استخدامهما بمهارة وذكاء . فجأة تغيـم فى عينيـه . يمتلىء الفضاء بنار حمراء . كتلة كبيرة حمراء تملأ السماء تهوى فوقـه تغمره . الدنيا كلها تصبح حمراء ، التراب تحت قدميه جمر ، العربـــة تحولت الى كتلة ملتهبة من نار . يحس بنفسه يسقط الى جانب ، صرخته تلاشت وسط هذا الأتون ولا يعود يذكر شيئا لقد صهرت شمس ذاك اليوم جوانب قضبان السكة الفولاذية الدقيقة وجعلتها اشبه بشفرة حادة ناتئة انغرزت حتى العظم بقدمه الحافية !

اليقظة !

يفيق ، يفتح عينيه ، قدمه ملفوفة بضماد ابيض . وهو يرقد فـى الظل وفى المساء يأخذه جارهم الاسطى ابو شاكر معه فـى الصـــندوق الجانبي لدراجته البخارية ، وكان ذلك منذ اسبوع .

والان ؟ لا بد !

وكان بوده لو يظل اسبوعا اخرا راقدا فى فراشه • فهو يحس بان قدمه ما زالت توءلمه • يحس بداخلها شيئا يحفر فيها • امه تقول له هذا الصديد يجب ان يستخرجه بالابرة المحماة ! قال لها انه سيموت لو تلمسها • وعند المساء سمع امه تعتذر لجارتهم صاحبة الدار عن اجرة الغرفة ، انها ستدفعها لها عندما يعود طالب للعمل ثانية • الجارة قالت بأن هناك من يريد استئجارها من اقربائها • عرف طالب بان هذه المرأة القحبة تكذب ! تألم جدا وقرر ان يخرج الى العمل منذ الغد مهما كانت النتيجة سيدبر أمره عندما يصل الى هناك وقد يساعده ابو شاكر والا فأنه سيضع قدمه المصابة فوق لوح الخشب ويدفع بالقدم السليمة •

((المتعة الموءجلة))

لقد حرمته هذه الحادثة من انباء كثيرة • أهمها مشاهدة الفصل التالى من مسلسلة فلاش كوردن فى سينما الملك غازى • لقد حطم فى الحلقة الماضية الرجال الاشداء ، ذوى الانياب البارزة الذين اطلقهم عليه الملك ـ كالا ـ عندما جيء به اسيرا اليه فى قلعته الرهيبة ! وقد اعجبت به ابنته الجميلة ذات الحواجب المقرونة مثل الجنيات ، واخذت تحتال لاطلاق سراحه من الاسر فى القلعة • لقد عشقته عندما رأته كيف يكيل الضربات القاتلة لمهاجميه السبعة الذين اسقطهم واحدا بعد الاخر • كم يتمنى الان لو كانت لديه قوة فلاش كوردن ؟ لصفى حسابه مع الكثيرين فى هذه الحياة واولهم والده !

(خطة لانقاذ الحال)

قرر ان يجمع نقودا كثيرة ويذهب الى فلاش كوردن فى امريكا ويتوسل اليه ان يأخذه وامه معه الى تلك النجمة فى رحلته التالية ، ان هناك دنيا ثانية ، يعيش فيها الناس فى بيوت نظيفة جدرانها من الزجاج

او البلور · شوارعها من مرمر والناس فيها يرتدون الملابس الجديدة لا كملابسه وامه وجيرانها · ملابس عمال معامل الطابوق والطين البالية · هناك لا يترك الاباء ابناءهم وزوجاتهم يتضورون جوعا ولا يملكون اجرة الغرفة التى يقيمون فيها ، ويهربون الى اماكن مجهولة ليعيشوا مع القحاب · فلو لم يترك المدرسة وتأخذه امه الى جارهم الاسطى ابى شاكر وتتوسل اليه ان يأخذه معه لمعمل الطابوق لماتا جوعا · اول الامر اعتذر ابو شاكر عندما رأى جسده النحيف مدعيا بان العمل فى معمل الطابوق مرهق للغاية وليس هناك من مكان لمن هم فى سنه ، لانه حتى الرجال الكبار لا يقاومون اكثر من اسبوع الا العمال الموسميين «الشراكوه» ! امه بكت وندبت سوء حظها واعادت أمامه قصتها مع زوجها الهارب والتى كان قد سمعها من اهله والجيران مرارا حتى سئمها · وقد بكت وغمغمت (ولم يبق لنا الا الله وانت يا أبا شاكر · فما كان بودى ان يعمل فى معامل الطابوق ان جماعته فى الصف السادس وتأثر ابو شاكر ووافق على اخذه معه !

(فى القطار عبر الجسر)

ينقلب الى الجانب الاخر · انتشر شعاع وردى خفيف فوق صفحة السماء الزرقاء من جهة الشرق ، تماما مقابل عينيه · امه قد استيقظت واعدت له الفطور كما اوصاها الليلة الفائتة · دقائق وتصعد لتوقظه · منذ زمن وصل قطار كركوك وبعد لحظات سيترك القطار الصاعد اليها · سينهض ويتناول فطوره ويقف بانتظاره عندما يمر بالمحلة ثم يتعلق به كبقية عمال معامل الطابوق صباح كل يوم ·

لقد مضى اسبوع لم يتعلق بالقطار ! يالها من متعة ان يركب المرء قطارا وينطلق به باقصى سرعته · جميل ان يظل الانسان طوال حياته راكبا قطارا لا يتوقف ! اية سعادة يشعر بها المرء عندما يمر به القطار

فوق الجسر الصغير ؟ لو كان تحته ماء لقذف بنفسه اليه وظل يسبح حتى المساء لتذهب العربة الخفيفة التى يسابق الاخرين من اجل الحصول عليها الى الجحيم · ولكن لا : كيف ؟ انه سيعود بلا اجرة مساءا الى امه وهو لا يرغب برؤيتها تبكى ثانية امام صاحبة الدار التى اخذت تتذرع بمختلف الحجج الواهية لطردهما من غرفتهما البسيطة لتأخرهما بدفع الاجرة : لا لن يسبح سيمضى رأسا الى المعمل ! ان عربته الخفيفة المدهنة الناعمة تنتظره بشوق منذ اسبوع !

(عندما يتذكر المرء خصومه)

يود الساعة لو ينام ، لمدة طويلة حتى توقظه الشمس ثم يستفيقه وقد شفيت قدمه تماما والتام جرحها واصبحت قامته طويلة وصدره عريضا مثل طرزان وفلاش كوردن ، بل حتى مثل العامل الشركاوى الذى كان يدفع العربة امامه مباشرة دون ان يضع قدمه فوق مؤخرة العربة الصغيرة كما يفعل غيره · لقد كان ابن الطلب يقطع المسافة بين الماكنة والمسطحات التى فى العراء بركضة واحدة وكان يترك اثار قدميه الحافيتين تراب السكة · قال عنه هذا الشخص ليس انسانا انه ثور هائج · فى ذلك اليوم ترأف به القدر وجاءت عربته امامه والا لقتله · انه لا يدرى من اين ياتى هؤلاء الكلاب الى بغداد بهذه الكثرة الا توجد مدينة اخرى يذهبون للعمل فيها ؟

(مزاح الجارات)

تقطع امه عليه خواطره ، يتطلع الى يدها المعروقة ويشعر بالم (صاح القطار) آه لقد بدأ العذاب · لام نفسه لانه الح عليها بان توقظه ليذهب الى العمل · قدمه ما زالت متورمة ، حول عينيه المفتوحتين اليها وجلس فى فراشه متثائبا لقد استيقظت بعض الجارات وهبطن الى ساحة الدار لاعداد الفطور · سكان الدار الاخرون مكدسون فوق السطح

مثل مسافرين فى محطة ! الازواج ما زالوا يغطون بنوم عميق · كل عائلة جعلت بينها وبين العائلة الاخرى ستارة واهنة من بطانيات · فى بعض الليالى عندما يستيقظ كان يرى الستائر تتحرك · رغم عدم وجود هواء · البارحة سمع جارتهم تمزح مع الجارة الاخرى وتقول لها بانها قد احست بهم الليلة الفائتة عندما عملوها · لماذا يعملون هكذا مبكرين · الافضل ان ينتظروا حتى ينام الاخرون · الجارة الاخرى انكرت وقالت عابثة بانها واهمة ربما الريح هى التى تحرك البطانية ، فالرجل المسكين يجيء متعبا ولا يكاد يضع رأسه فوق المخدة حتى يغفو مثل قتيل !

(النهـــار)

عندما يتطلع الى صفحة السماء الشرقية يجدها وقد اشتعلت كلها بنور الشفق الاحمر · واختفت نجمته المفضلة الجميلة لا يدرى الى اين ، لقد انطفأت حتما فقد طلع النهار ·· ولكن لا باس : ستظهر ثانية غدا فهذه ليست المرة الاولى التى تختفى فيها ·

(اساطير عن الرجل الهارب)

الرجل الوحيد يحب ان يكون الضحية دائما · هذه قاعدة · وانت الان الرجل الوحيد عند امك بعد ان هرب وللابد الرجل الكبير · وانت موءمن بانه هرب للابد · رغم ان الناس يتحدثون عنه دائما · مرة قالوا بانه يعمل حمالا فى علاوى الحلة · وقد تزوج واحدة ويسكن معها الان فى محلة الشواكة · اين محلة الشواكة ، يقول العارفون ان محلة الشواكة فى الجانب الاخر من الشط · وقد عبر مع امه الجسر الى محلة الشواكة عندما ذهبا للبحث عنه هناك · كان يسير امامها فهو يعرف اين يقع الجسر الذى يوءدى الى الشواكة · لقد سار فوقه مرات مع ابناء الطرف عند ذهابهم معا الى سينما الارضروملى لمشاهدة فلم طرزان هندى · كان هذا الطرزان يعتمر الكوفية والعقال ! انه اول طرزان يرتدى العقال

مثل العرب · والحقيقة كان طرزانا رائعا · فقد رفع سيارة رئيس الشرطة بكل من فيها وقذف بها من اعلى الجبل الى اسفل الوادى ·

لـــو !

تمنى الان لو كانت لديه قوة طرزان هذا ، لاوقف الساعة عربتـــه واعترض طريق عربة العامل القروى الذى ما زال يطارده منذ الصبـــاح ويشتمه كلما لحق به ورفعها ثم قذفها عليه وقتله ! ليس هـــذا فقط لضرب والده ايضا حتى يعلمه كيف يمـــكنه ان يهرب من البيت ليعشق واحدة قحبة كما يوءكد الاخرون · انه اردأ اب · من يقوم بهذا العمـــل يهرب من البيت ويترك زوجته وابنه الوحيد لوحدهما بلا معيل ولا يكون قوادا ؟ لقد سالا عنه فى علاوى الحلة فى كل مكان ، ولم يجدا احـــدا يعرفه وعادا وقت المساء بعد ان كلت اقدامهما عبثا عنه لابد وان اختفى عندما راهما ! ولكن هل يظل طوال حياته متخفيا · ســـيترصده كـــل جمعة ، وحتما سيلتقى به مهما تنكر وانذاك سيعرف كيف وباية لغـــة يتحدث معـــه ·

(عيـــون المـــوت)

لقد كان يخاصم امه كل يوم ويهددها بالاختفاء عن وجهها الكالح الذى يشابه وجه بومة الخرائب · امه كانت ترد على ابيه بانه انسان لا اصل له ولا فصل · وانها صنعت معروفا وقبلت به زوجا لها والا لظـل الى الان مشردا فى الطرقات مع الكلاب والشحاذين يملاء فمه الذباب ولكن الموت لا عيون له والا لجاءه منذ زمن بعيد ·

متـــاعب الام !

كان يتألم احيانا عندما يسمعهما فيتخاصمان بهذه الصورة ولـكنه كان يقف الى جانب امه خاصة عندما تبدأ بتعداد المتاعب التى تلاقيها مع هذا الزوج وتوءكد بانها تتحمل كل هذه المتاعب من اجل ولدها العزيز

طالب · امه على حق فهذا الرجل الذى كان اباه يناقرها دائما ويهددها بانه سيتزوج واحدة غيرها ويأخذ طالب اليه · انذاك كانت تضحك منه وتقول له بان يذهب ويشترى بعقله حلاوة فطالب الان رجل ولم يعد صغيرا ولن يتخلى عن امه المقطوعة المسكينة انه افضل منك ايها الخائب · ايها العار ، السارح فى الطرقات ! جد لنفسك قبرا خاسفا وتوارى بداخله ولا تظهر وجهك للناس ·

(الاخذ بالنصيحة)

ذات صباح غادر ابوه البيت ولم يعد فى المساء · جاء بعد اسبوعين ثم خرج ولم يعد الا بعد شهر وغادر مرة اخرى وعادل بعد شهور · كل مرة كان يعلل غيابه بالركض وراء لقمة الخبز والابتعاد قدر الامكان عن وجهها المشوءوم · واخر مرة غادر بها البيت كانت قبل سنة ولم يعد لحد الساعة ·

بكاء فى غير محله !

وقد بكت عليه امه كثيرا ولكن هو ايضا ، فقد احس بشوق اليه · ليعد ويجلس فى البيت فقط · انه لن يسمح لامه بعد اليوم بمخاصمته او اهانته علنا امام الناس · فهو رجل مسكين لا يعرف كيف يحصل على لقمته اليومية ·

(اشاعات)

فيما بعد دارت حوله اشاعات كثيرة · قال بعضهم بانه غادر الى الكويت وسيأتى بثروة طائلة · فرح طالب بكل هذا فلو عاد حقا بثروة كبيرة لعاد لمدرسته ثانية · ولكن بعد مدة سمع عنه بانه يعمل حمالا فى البصرة · اخرون اقسموا بانهم شاهدوه يشحذ فى مرقد الامام الكاظم · اما اخر الانباء عنه فقد اكدت بانه يعمل حمالا فى اسواق علاوى الحلة ، وقد اطلق لحيته وارتدى اسمالا بالية · غير ان طالب وامه لم ياخذا

بكل هذه الشائعات · واعتبراه ميتا · او ربما سافر الى بلد بعيد وسياتى يوما ما لقد شعر هو بنوع من الزهو الخفى الذى ملاء اعطافه لان لديه مثل هذا الاب المغامر الذى لا يعرف احد مكانه !

المطـــاردة !

كرة الشمس الملتهبة مالت عن سمت الراس وتعلقت اشبه ببرتقالة كبيرة فوق الجانب الغربى · اشعتها لما تزل تحيل الفضاء الى أتون ملتهب · وهو منذ الصباح هدف مطاردة لا تنقطع من قبل العامل القروى الذى يدفع العربة باعقابه · انه يركض ، يركض ولا يفعل شيئا غير الركض والغناء ، عاشق ابن الكلب ، حين تنظر اليه يركض ولا يكل ولا يمل ولا يمرض ولا يختطفه الموت العاجل ولا تسقط فوق راسه صاعقة من السماء وترسله الى جهنم ! من اين لهذا الحيوان كل هذه القوة ؟ ما دام لا يأكل وقت الغداء الا التمر والبصل والماء واحيانا يشرب طاسة لبن ؟ ماذا يفعل لو يأكل يوميا ارزا ومرقا ، انه يقلب الدنيا حتما !

على المرء ان يتدبر امره !

قدمه المصابة فوق اللوح الخشبى المستطيل منذ الصباح · قدمه السليمة تضرب الارض فتدفع العربة للامام · عليه ان يقوم باكثر من عشر دورات قبل ان تتعلق كرة الشمس فوق النخيلة المنفردة البعيدة · انذاك يتوقفون عن العمل · وعندما يمر قطار السادسة القادم من كركوك يتعلق به ثم يقفز منه عند مروره بمحلتهم · مثل كل مرة ! ولكن كيف يتسنى له هذا اليوم ؟ ماذا يحدث لو ارتطمت قدمه بالارض ؟ حتما يموت من الالم ! ولو ظل متعلقا بالقطار حتى المحطة ؟ اه حتما لامسك به المراقبون وسلموه لشرطة المحطة التى تحبسه حتى الصباح فى المركز !

عندمـــا تنقلب الدنيا !

وعندما التفت ناحية الطريق شعر فجاة برغبة فى البكاء · لاحت له

فى الافق سيارة صاحب المعمل · فى تلك اللحظة ود لو يصرخ يتمرغ على الارض ، يتضرع الى الله ان لا تصل سالمة لتحترق ماكنتها مثلا ينفجر اطارها ، تنقلب ، تصطدم · فهى لا تكاد تظهر فى الافق حتى يتحول العمال وخاصة عمال العربات الى خيول جامحة لا تعرف التعب · ينطلقون بعرباتهم كما لو لم يشتغلوا طوال النهار · ترى من اين يجيئون بهذه القوة اخر النهار ؟ هذا البغل الذى يركض النهار باكمله ويغنى وخنجره الطويل المعقوف مشدود الى حزامه ! ماذا سيفعل به الان عندما تقترب سيارة صاحب المعمل ؟ انه حتما سيرفع العربة بالواحها فوق رأسه ويركض بها ليظهر شطارته ! لقد تطلع بوجهه عن كثب ساعة الغداء · كان منزويا يداعب بائعة اللبن وهو يقضم رؤوس البصل بشهية باضراسه الصفراء الكبيرة التى تشبه اضراس الحصان · كانت رؤوس البصل تتفتت تحت ضغط فكيه مثل كرسى خشبى يتحطم تحت ضغط ثقل كبير · وجه الكالح لم يغسله منذ اسابيع كما يبدو ! لا يدرى لماذا ؟ لا يغسل الانسان وجهه ما دام الماء متوفرا فى كل مكان ؟ انت يااابن الكلب ! ايها الشركاوى ·· كم اود لو تموت الساعة ؟ او تمرض · أو · أو ·

الجحيم ثانيـــة !

يمتلىء الافق بنار حمراء تملاء عينيه سكين حادة تغور فى قدمه المصابة · تند عنه صرخة وحشية تنساب العربة يقف لحظات ، يتنفس بقوة يمسك ساقه قافزا على السليمة · تكاد العربة التالية تصدمه · يلتفت يرى غريمه هذا يهدر وراءه مثل الحصان الجامح ، وقد غدا كتلة من التراب والعرق والطين ، يصرخ به راعدا ، (انت ايها الصغير يا ابن الكلب لا ترتفع شبرا عن الارض وتشغل مكان رجل ، ماذا ستفعل لو كبرت ؟ يشعر طالب بالاهانة يبكى ، لماذا تشتم والدى الميت ؟ انا اعيل امى العجوز ·· يتردد الصوت الخشن ثانية فى اسماعه ، يوصمه بالجبن

وانه يبكى مثل النساء ! ماذا ؟ هل طعنت بخنجر ؟ جرحت قدميك وماذا يعنى ذلك ؟ انتم أهل لولاية نساء ! لماذا لم تبق فى البيت حتى يلتئم الجرح ؟ لكن من الذى يدفع اجرة الغرفة التى نقيم فيها ! والطعام ٠ و ٠٠ و ٠٠ و ٠٠؟

متع الحياة الاخرى !

بالاضافة الى ذلك هناك اشياء كثيرة لا تعرفها انت ! مثلا متعة مشاهدة الافلام ، طرزان ، فلاش كوردن ، وابن الحداد ٠٠ وهو يطرح الرجال ، ولكن اتدرى ماذا فعلت بنا ؟ يتردد الصوت الوحشى الهائل ثانية ٠ لقد جاء صاحب المعمل وانقلبت الدنيا وانت تفعل هذا فى هذه الساعة ٠

(عقاب محتمل)

كانت العربة قد خرجت وسقطت عند التقسيم ٠ عاملا الماكنة بدءا يصرخان بحقارة ، العربات الصغيرة المثقلة بالواح اللبن تحملت وراء عربته التى انغرست عجلاتها الاربع فى التراب وسوف يرى صاحب المعمل الواح اللبن المكدسة عند فوهة الماكنة ويعرف السبب لتأخير العربات ويطرده بدون اجرة او ربما يطرد ابا شاكر الذى وافق على قبوله مع العمال وحتى يطرد الجميع او يخصم من اجورهم جزء وكل هذا بسببك انت ! بسببى انا يبكى تتفجر الدموع فى عينيه ٠

(موقف أول

يتطلع الى العامل القروى ٠ كان يعالج العربة ليعيدها فوق قضبان السكة احس طالب بانه امام بطل عظيم ٠ بيد واحدة رفعها ووضع عجلاتها فوق القضبان ! ان فلاش كوردن لا يستطيع ان يأتى بمثل هذا ؟ يقفز الى العارضة الخلفية ، دفعة واحدة من يد العامل القوى توصله الى عاملى المسطحات المتوفزين يفرغان عربته يدفعانها دفعة واحدة تنطلق به

تسابق الريح اللاذعة يحس كانه يطير ، يحلق الى اعلى يبسط يديه مثل جناحى طائر يهم بالهبوط ! قرب الماكنة يرتجف جسده · ثم يشعر بالاطمئنان لم يكن صاحب المعمل هناك ، جاء بدلا عنه ولداه · ابنه وابنته وراهما كان يقف السائق الانيق او هو شاب حليق الذقن دقيق الشارب

شىء عن الصبيين !

الصبى كان ولدا سمينا وجهه احمر ، جسده مترهل يضغط على بنطرونه القصير الى وراء عنقه الغليظة تدلت خوذة بيضاء مثل خوذ صيادى الافلام · اصابع يده السمينة تلعب بنظارة سوداء · ود طالب لو كانت لديه واحدة مثلها · وقد فكر ان يشترى واحدة عندما يتسلم اجرته ويضعها فوق عينيه طوال النهار لتحميها من الغبار والشمس · الصبية كانت بنية نحيفة شاحبة (حتما مريضة) هكذا ظنها · شعرها الطويل كورته خلف رأسها انها لا تاكل كثيرا كما يبدو مثل اخيها · ومع ذلك تمنى لو تصبح زوجته · لن يضربها ابدا كما يفعل ابوه مع امه او كما يفعل بقية الازواج مع زوجاتهم انه يقبلها فقط تماما كما يفعلون فى السينما ·

تصرف السيد الصغير !

يفيق الى نفسه · يصرخ به العاملان الملوثان بالنفط الاسود والطين الواقفان عند فوهة الماكنة (لماذا تأخرت) ولكن لماذا هذا السوءال الان ايها الكلبان الا تعرفان بان قدمى مصابة ؟ اين تقع الالواح ؟ لقد تكدست لدينا واخرت الجميع ! لم يشأ ان يخبرهما بسبب تاخره · يتطلع اليه الولد السمين ويبصق عليه (لماذا تعطل العمل) لا يصدق عينيه ، لماذا يشتمه هل اساء اليه ثم انه يكاد يكون صديقه لا بل زميله فى المدرسة ابناء المدارس لا يشتمون الناس بدون سبب ولا يبصقون فى وجوههم ، يشعر بتألم تتكسر العبرة فى صدره · يتطلع الى الصبيين بوجه محتقن

فجأة يرى الصبية تعنت اخاها فى الحال يعرف اسمه صوتها لا يكاد يسمع المسكينة (لماذا تشتمه اسامة) انه صغير آه حقا لماذا يشتمنى الم ير قدمى المصابة ! أنت ايها العجل السمين .. أمك انت ام الجميع انتما ايها العاملان القذران الجبانان .. الدموع تغشى عينيه . تمنى لو يقبل الساعة الصغيرة المريضة .. فقد عرفت سبب تأخره . لقد شاهدت قدمه المصابة ملفوفة .

(موقف ثان)

ولكن ماذا قلت انت ايها الكلب ؟ يتساءل السائق الانيق ، من شتمت ؟ ترتفع يده تسقط بقوة على وجه طالب ، ترتفع ثانية ، لكنها تتسمر فى الهواء يشعر السائق بجسده كله يرتفع فى الهواء ثم يسقط كالكرة ، في بركة النفط الاسود الذى يغذي الماكنة . والذى يرش رذاذه الحاضرين . العامل القروي الذى كان يدفع العربة وراء عربة طالب مباشرة يعرف سبب تأخره . قدمه مصابة ، وقد داس عليها سهوا قبل دقائق وكاد يموت من الالم . ثم هو ولد يتيم والده متوفى ويعيل امه العجوز وليس لديه القدرة على الركض مثل البقية من الصباح حتى المساء ، ألا تعرف هذا أنت يا ابن القواد ! أيها المخنث ؟

((اضطراب))

تصرخ الصبية مرتعبة يهرب الصبي الذى تلوثت ثيابه برذاذ النفط الاسود مرتعبا يهرع عاملا الماكنة الشريران بعد أن أوقفاها الى بركة النفط الاسود التى يتمرغ فيها سائق السيارة الذى اصيب برعب ، يمدان اليه أيديهما ، تحدث ضجة هائلة يأتي الاسطى أبو شاكر راكضا يتبعه ميكانيكي الماكنة ومهندسها يظن البعض أن الماكنة قد التهمت عاملا آخر وهرسته مثل ضحية الامس ، عندما سقط عامل موسمي في فوهة الماكنة واختلط لحمه بالطين وخرج اللبن الطري ممزوجا بالشعر والعظام وقطع اللحم والدم ، وظل جسده يخرج أجزاء مع قوالب اللبن حتى

الظهر ، ترى من الضحية التالية هذا اليوم ؟

ذهول !

طالب يقف ذاهلا • مبهورا لا يعرف ماذا يفعل لقد شلت الدهشة حركته وفكره • لم يقدر أن يهرب • لقد رأى كيف رفع العامل القروي سائق السيارة في الهواء وطوح به في بركة النفط الاسود عندما حاول أن يصفعه ثانية ! لقد تم الامر بسرعة متناهية بحيث لم يتمكن أحد من أن ينقذه من بين يديه ! أي انسان رائع أنت أيها القروي ! أي بطل !! خسىء فلاش ، طرزان وابن الحداد وحتى عنتر ! يحس بزهو ، بفرح داخلي يملأ نفسه يكاد يخنقه •

((الاصدقاء !))

حاول البعض الانتصار للسائق عند مجيء مهندس الماكنة الا أنهم لم يقتربوا من العامل القروي المتوفز حركة واحدة من يده نحو خنجره أوقفتهم عند حدهم • (من يقترب ؟) كان يزوم مثل حيوان جريح اثير • آه ، حقا من يقترب أيها الجبناء لم يجبه أحد • ساد سكون مطبق ما عدا همهمة القروي ونشيج طالب وعواء الصبي السمين • ضحك عامل عاملان • ضحك الاسطى أبو شاكر تبعه مهندس الماكنة جاراهم الاخرون امتلأ المكان بالضحك أخرج عاملا الماكنة السائق من حفرة النفط الاسود وهو يتلوى ألما ويمسك بذراعه المحطمة ! غريزيا لاذ طالب وراء العامل القروي الذى أعاد خنجره الى غمده ! أوصلك الى امك ! هز طالب رأسه موافقا !

جلس العامل القروي القرفصاء أشار الى طالب بأن يتسلق فوق كتفه لف طالب يده النحيفة المضطربة حول عنقه الغليظة صدمته رائحة العرق والتراب العفنة نهض متجها به نحو بوابة المعمل العريضة ، صفق عامل ، تبعه الاخرون امتلأ المعمل بالتصفيق ، ومن ثم اتجه به ناحية سكة القطار وبدءا يثرثران •

الصورة

غانم الدباغ

سأذبحك .. أبوه قال .. سأذبحك .. وترك البيت ، وأثر الصفعة ما زال على خده .. ونداء امه يرن في اذنه :

ـ أحمد ، ارجع بعدما ينام هذا أبوك ، ما يخالف ..

وتلاشى صوتها ، حين انتهى الى عطفة الرقاق ، ووصل الشارع .. الاسفلت يغلي تحت رجليه ، وأشعة الشمس تصلي قمة رأسه .. بعض الحوانيت أقفلت ، ليس ثمة الا السيارات الكبيرة الحمراء تهدر مسرعة .. ورجال يبدو أنهم موظفون يعودون الى دورهم وعلى رؤوس بعضهم قبعات بيضاء وبأيدي الاخرين مناديل يمررونها حول رقابهم أو جرائد يستظلون بها ...

وقف ... ها هو الاستوديو وقد اغلق .. ورأى بجانبه دراجة تستند على دكة الرصيف (لخدمات مطعم الافراح) .. لم يتغد .. حذرته امه حين كانت تقطف رؤوس البامية ، بأنه سيطرده من البيت اذا أصر على طلبه ... وفتح عينيه بذعر ، وضربها على كتفها :

ـ أنت تكذبين ... !

لكنها لم تكن تكذب ... فقد التقط السكين من يدها .. وأوشك أن يمسك به ... وكانت هي تصرخ وتدفعه .. ثم هربت به الى السطح

لانه كان قد أغلق باب الدار فقبع في المرحاض .. وكان اخر صـــوت يسمعه منه قبل أن ينام ، ويصل اليه مدويا من قعر الدار :

ـ يعني قابل ما راح ينزل ؟

وجاءت اليـــه :

ـ أبوك نام ، يلله انهزم ..

ونزم السلم على أطراف أصابعه وتسلل من الدار .. يحبها .. امه لولا نصائحها التى تخرق اذنه ليل نهار :

ـ ابني ادرس ، الامتحان قريب .. اترك الرياضة ..

لماذا يدرس ؟ ومعلم الحساب أقسم أن يرسبه في درسه .. كم مرة صفعه عـــلى قفاه :

ـ حمار ..

ويوم توزيع المعدلات السنوية ، لم يذهب الى المدرسة .. ذهبت هى وعادت بها .. وكانت النتيجة كما توقع .. عشرون شـدما كره هـــذا الاصلع .. يكفي أن يتعلم كتابة الارقام ، كان رقمه في سباق الركـض السريع سبعة ، رقم كبير يلمع على ظهره وصدره بلون أحمر ، يـــوم الاستعراض .. عظمة ، كشخة .. المشية الرائعة أمـــام المتصـــرف في الساحة الكبيرة .. ثم ايعاز معلم الرياضة :

ـ يمينا ، انظر .. !

ورأسه يرتعش فخرا .. وهتاف من زاوية عالية في المدرج :

ـ تعيش مدرسة الصفاء ... كلش زين أحمد ..

عرفهم ، زملاؤه في الصف ، وأولاد المحلة .. ثم حين بدأ السباق ووصوله النهاية قبل الجميع ووقوفه أمام المتصرف ، وهو يعلق عـــلى صدره المدالية .. لقد خشي أن يخز الدبوس صدره ثم مصافحته له .. بيده هذه .. لقد شعر بالزهو حينذاك .. كم أصبح كبيرا .. ! وأكبر من معلم الحساب الاصلع .. كانت يد المتصرف لذيـــذة ، طريـة .. وابتسامته عذبة .. وبذلته الانيقة .. والرائحة النفاذة تعبق من كل شيء

فيه .. والواقفون وراءه كانوا كلهم ينظرون اليه .. وسمع أحدهم يقول :

ـ بطل !

وابتسم الاخرون .. وهو ؟ كان يتهيب تلك اللحظة .. لكنها حين انقضت ، ود لو تعود وعندما استدار .. رأى المصور يسلط ضوء مصباحه القوى عليه ، ويبتسم في وجهه ..

وعصر اليوم التالي .. هرع يبحث عن الصورة في واجهات المصورين ، لانه نسي أن يسأله عن محله .. ورآها وراء الزجاج .. تلتمع كاعلانات السينما .. وسأل عن ثمنها :

ـ مائة فلس ...

ـ لا درهم .. ؟

ـ السعر محدود ابني ..

ومر اسبوع ، وهو يقصد المحل .. ويحدق في الصورة ويبتسم ، وعرفه المصور ، وكان هو الاخر يبتسم له ، حين ينتهي من بعض أعماله ، ويقف على الباب ..

وراح يطالب امه بالمئة فلس :

ـ صورتي .. صورتي عند المصور .. المتصرف يصافحني .. معقولة ما أشتريها ؟!

ويسمع أبوه من الغرفة .. ويصرخ من مكانه :

ـ ولك الصورة متفيد .. اهتم بدروسك .. !

أمضه الانتظار .. فجلس على حافة الرصيف .. وأصبح اطار الدراجة الامامي بجانبه تماما .. لو كانت له .. ! لنشل الصورة عندما يفتح ويهرب بها .. من يدركه ؟ وزكمت أنفه روائح الطعام ولطمته من الوراء .. قرقعة الصحون وأصوات تنادي :

ـ تمن على بامية ..

- حسابك .. ؟

- والله ما ياخذ بهـ..

- باذنجان عـــلى تمن ..

ازدرد ريقه .. وبدأ يحس بالجوع .. وانهمرت رشقة ماء وسـخ تحت قدميه .. لقد فر من الدار حافيا كما رأى مرة في الحلم .. كـان يبحث عن حذاء .. نعال نايلون .. أى شيء ليلبسه .. وكانت الاسواق مغلقة .. الا واحدا على وشك أن يغلق دكانه .. أسرع يســتوقفه .. التفت هذا اليـــه :

- امشي ولك طرطور ..

شتمه .. ضربه صبي المحل .. وحين هم برد الصفعة ، كانت امـه توقظـــه :

- أحمد .. أحمـــد .. ليش تضـــرب .. انهض ، راح وكت المدرســـة .

وقص عليها الحلم ...

- تعوذ من الشيطان ، يا ربي هذا حلم خبيث .. حـــافي ؟ يعنـــي فضـيحة ؟ عـــار ..

وحين طالبها بحذاء مطاطي أبيض .. وقال :

- سأشـــترك في السباق ..

أجـــابته :

- لكن أبوك ما يقبل .. يكول يحفظ دروسه أحسن .. لا ترسب ابنـــي ..

ضربها وقـــال :

- منو يرســـبني ؟

ولكن الاصلع ذا الارقام اللعينة رسبه .. لم يمرض يوما أو يتغيب عن المدرسة الا في الاعياد .. كم يكونون سعداء هو والكثيرون من طلاب

الصف ، وتهزهم الفرحة لغيابه .

سأل معلم الرياضة يوما :

ـ استاذ .. استاذ الله يخليك ..

ـ ها أبو شهاب ؟

ـ المعلم يوسف .. درجاتنا كلها كسرها .. واحنا جماعتك ..

ـ بسيطة .. اهتموا بالتمارين والباقي علي ..

هل كان معلم الرياضة يخدعهم .. ؟ لقد كان هو وسالم وعبدالموجود وشاكر ، يتشاورون على ضربه فاقترح هو :

ـ لا نتوسل به ، ونقنعه بالحيلة ..

أجاب شاكر :

ـ لا ... ولك هذا نحس ما يقنع ..

فقال سالم :

ـ زين .. يرانا في الاستعراض ويخجل ..

لكنهم لم يشاهدوه في الاستعراض .. كما فشلت خطة الاعتداء عليه ، لانه كان يخرج بصحبة المدير كل يوم ..

أعرابي يخرج من المطعم .. لو .. !

ـ عمي ، ماذا سقط منك ؟

ويضع رجله أمامه .. يعثر .. فتسقط دراهمه .. ولكن لا .. أصبحوا شياطين .. شاكر حدثه .. أبوه اطراقجي في السوق .. يذهب الى الدكان كل جمعة .. وفي العطلة بالصيف .. ورقة مكورة .. يرمونها وسط السوق تنتهي بخيط نايلون أبيض في يده .. يضع فيها أي شيء .. حصاة ، خنفساء ميتة ، روث بهائم .. يراها الاعرابي ، يدنو من الارض بحذر .. تفر اللفافة نحو الدكان .. يبهت الرجل .. يتراجع :

ـ عويذة الله ..

الصحون تقرقع .. وحوله على امتداد الشارع وانعطافه نحو اليمين ،

كان الصخب قد خف .. الناس يقبعون الان في دورهم .. في السراديب .. تحت المراوح .. والرائحة تخز أنفه أكثر :

ـ كاسة طرشي يا ولد ..

دفقة لعاب يزدردها .. والاسطة يدق على المنضدة .. قطة تقفز .. الزنخ يقترب منه .. خادم يركض وراءها .. عاد .. حدق فيه ، ولج المطعم .. تيار منعش يلفح ظهره ، عندهم بامية اليوم .. أبوه لا يأكل الا في السرداب .. امه سوف تأكل في المطبخ وتبكي .. وسيسألها :

ـ ها .. ؟ ما رجع المدلل ؟

لا تجيب ولكنها ستذهب الى بيت شاكر .. او تقف في عطفة الزقاق عند المساء .. أو تقصد مخفر الشرطة :

ـ نعم صغير اثنتي عشرة سنة .. طالب بالمدرسة ـ ..
ـ ندور عليه ونخبركم .. أوصاف اخرى .. ؟
ـ يلبس بنطلون رياضة أسود .. حافي لونه أبيض ..
ـ بسيطة ..
ـ عيني انخاف . ! تعرف الدنيا ..

الى اليسار .. بدا له سقف السينما الوطني عاليا .. وشخصان يحدقان في الصور الكبيرة الملونة فوق المدخل .. ثم يدلفان .. حفلة نهارية ..

في الفلم الذى رآه صباح الجمعة .. البطل كان في مثل عمره .. لماذا لا يخترق هو الغابة الكثيفة وراء النهر .. قد يجد ثورا يختبىء فيها .. ثم يعود منتصرا حاملا رأسه على سرج الحصان وراءه .. وفي جيبي البنطلون مسدسان يهدد بهما أعداءه ... المعلم الاصلع وأباه .. بسرعة يسحبهما .. واصبعاه على الزنادين :

ـ هاندز أب ..

ويستسلمان .. فيقبله الشيرف ـ المتصرف ـ ويقول :

ـ لقد أنقذت المدينة ..

تماما .. كما قرأها على ترجمة الشريط في فلم الفارس الوحيد .. ثم يؤدي له التحية .. ويتراجع ، وأردافه تهتز داخل البنطلون الضيق ، ويمتطي الحصان الذى يرفع قائمتيه الاماميتين ويلكزه هاتفا :

ـ ها .. هـ ... ووو ..

وفي قفص حديدي ، يقبع المعلم الاصلع ، منزويا ، ذليلا يتوسل :

ـ أنطيك مية ..

ـ لا .. اتفقنا انا والمتصرف على الغاء درس الحساب ، وأنت محكوم عليك بالحبس المؤبد ..

طقطقة الملاعق تدق صماخ اذنه ، وسيل المياه القذرة في ساقية الرصيف يلكع قدميه .. وخرج الخادم .. وعبقت انفه روائح مطبوخة ، وانفرش ظل صينية فوق رأسه .. بيد واحدة يمسكها وبالاخرى أدار الدراجة ، ونظر الخادم اليه ، ثم انطلق .. الاطباق لا تسقط .. ليته كان هو ، انه يجيد ركوبها ، لكن هذا ؟ .. تماما كما في فلم (أعظم استعراض في العالم) .

عادت القطة تمسح الارض بأنفها .. ورمقته بعينين حذرتين .. طرطش الماء بقدميه توقفت مدهوشة .. ثم هربت ..

وأصغى وظهره يتلقى لفح المبردة .. الى الاصوات داخل المطعم .. كانت الضجة تعلو حين يصر الباب الزجاجي ، ثم تخفت حين يسكن .. والتفت حين صر الباب ، فرأى مكان الاسطى خاليا .. وعميقا خلال العتمة لمح أحدهم يأكل بيديه .. فأزدرد ريقه وعاد الخادم ، والصينية فارغة .. فأوقف الدراجة بعيدا عنها ، وحدق في ساقيه ، وفكر هو لو ارتدى دشداشة ؟ ثم وضع يده في حجره وانطوى قليلا الى الامام ..

مرت تحت قدميه أعقاب سكاير مبتلة ، انتفش تبغها .. لو يجمعها ؟ بعض الصبيان يفعلون هذا .. لا .. ! عيب ، طالب مدرسة في السادس ،

والمتصرف صافحه .. صورته معلقة وراء الزجاج .. هنا في هذا الاستوديو ..

زقت اطارات سيارة بشدة .. ومرقت طفلة نحو الرصيف المقابل .. ثم بصق السائق بحدة ..

- كلبة بنت الكلب .. أنت عمياء .. يخلفون ويتركون أولادهم في الشوارع ..

ولحظ بزاوية عينيه القطة تمرق داخل المطعم .. وصفر طنين في اذنه ، وارتفع من بعيد صوت مؤذن .. وبدأت حركة جديدة في الشارع ..

سمع وراءه :

- يمكن غريب ..

- لا كل يوم أراه ..

- اليوم اتأخر .. من بعد الظهر كان هنا ..

- هيه الدنيا ، تخوف ..

ابتعد الصوتان .. وأمست كل حركة تصدر خلفه ، كأنها صدى لصوته في بئر قديمة في دارهم القديمة .. ولم يعد يزدرد لعابه ، لان كان قد جف ، والروائح لم تعد تثير شهيته الى الاكل ، فهو يصارع الان شوقا الى النوم ، والماء يتسلق قدميه وقد تخدرا فشعر براحة ، الا أن ذاكرته عن الاشياء لم تكن تستجيب الا لاخر الصور .. أبوه والسكين في يده نترها من امه .. ثم وهي تتسلل به خارج الدار .. ابعد من هذا قليلا .. المعلم يختفي مع المدير في عطفة الزقاق .. هو وشاكر يسبحان في النهر .. والان والقطة وعيناها الحذرتان وهي تتلصص وراءه بخوف ، كل شيء يمجه ، لعنة الله ، صانع المطعم .. كلب بن كلب .. لو يملك مسدسا وبنطلون كاوبوى ليسيطر على كل المطاعم ..

- طاق .. طاق .. طاق .. هانزاب . گير أوت .

يضرب المصابيح والثريات .. فيتراجع الزبائن الى الوراء مذعورين رافعي الايدي ثم يغلق كل المدارس أو عطلة .. عطلة لا تنتهي أبـــدا والاستوديوهات له هو والمتصرف .. وامه .. ؟ لا .. يحبها ! ..

ووقفت سيارة .. مرسيدس بيضاء .. يعرف كل الماركات ونـــزل شيخ .. عباءة سوداء كوفية بيضاء .. عقال كبير معه رجل أسود اللون ، طويل ، أين .. ؟ نحو الاوتيل ، فـــوق .. ؟ لا .. دخـــلا المطعم ، ســـمعه :

ـ عطية ، غلقت باب السيارة .. ؟

أجاب الاسود الطويـــل :

ـ نعم يا محفوظ ..

رأى واحدا يشبهه .. يقف بجانب المتصرف صافحه ، أيعرف هذا أنه صديق المتصرف .. ؟ فيدخل المطعم ويقول له :

ـ ألا تذكرني .. ؟

ـ لا منو أنت ؟

سيضحك عليه .. ويطرده العبد الاسود لكنه جوعان .. ويكـــاد يبكي .. وفي جوفه شيء يتقلص .. وكأن نملا يقرص أحشـــاءه .. انصفق الباب الزجاجي وهبت دفقة هواء تحمل معها زنخ طعام جديد ..

وســـمع صوتا :

ـ اثنين قوزي على تمن مع لبن ..

وانطوى على نفسه أكثر حينما مر حذاء أسود ضخم يـدق الارض بقربه ، تحوطه فتحتا بنطال خاكي ، ارتعب قليلا .. هل بدأوا يبحثـــون عنـــه .. ؟ وحين ابتعدت طرقات الحذاء رفع رأسه ونظر الى اليسار .. هناك أمام السينما يدور شرطي تحت المظلة ويده ترتفـــع وتنخفض .. والناس بدأوا يكثرون وهو يراهم من مكانه وكأنـــه شيء ... وشـيء صغير وصغير جدا ، هم فوق وهو ينحدر .. ينحدر .. وعاد الطنـين في اذنه وهربت القطة .. وخرج الشيخ والعبد الاســـود .. المرســـيدس

تتحرك ودفقة من الماء فيها رغوة (تايد) .. تغسل قدميه .. امه تبكي الآن وهو .. الشيء مازال ينحدر .. وعاد الحذاء الاسود الضخم وتوقف بعيدا عنه .. صاحبه يتحدث مع اخر لا يفهم ما يقولان .. رأسه ينام على ركبتيه .. الندبة الصغيرة فيها أصبحت صفراء .. حين سقط في الساحة أيام التدريب على الاستعراض لم يشعر بها .. ستزول بعد سباحة اسبوع في النهر ..

اوه .. الجدار قرب باب البيت فيه شرخ طويل .. لو يثقبه يوما .. يدخل ويخرج من هناك دون أن يراه أبوه ، مسدس وبنطلون كاوبوي . ويغلق جميع المدارس .. وطلقة في صلعة المعلم الاصلع من وراء قضبان الزنزانة التى حبسه فيها :

ـ لا .. حتى ولو انطيتني مية ..

طاخ .. طاخ ويمسح جميع الارقام من الكتب .. يكتبونها بالحروف فقط حتى رقمي بالاستعراض وكل الدروس بعد أن تنتهي العطلة الطويلة تلغى .. ما عدا الرياضة ، معلمها أحسن واحد ..

ظله الصغير ، بدا يستطيل ويتراقص أمامه اذ يهز رأسه ومرت سيارة فدهسته ، ولكنه مرق سريعا فوق جسم السيارة ..

أقوم .. ؟ لا ميذبحني .. هي قالت وسمعه يصرخ والسكين مشرعة في يده .. لكنها ستحميني التفت .. عادت القطة ، فطرطش الماء بقدميه ومد يده كأنه يتناول حجرا .. قفزت بعيدا ثم وقفت تتحداه بعينيها الخضراوين ! ما أكبر بطنها ..

أمسك بخاصرتيه ، ثم نهض واستدار نحو باب المطعم ، وأشار الى خادم مر أمامه جامعا أصابعه على فمه .. وقال الشيء في داخله :

ـ ماء الله يخليك ..

لم يره .. اوه .. المسدس وبنطلون كاوبوى وهانز أب ..

صاح الاسطى الذى كان يعود الى مكانه :

ـ تعال يا ولد هذا الصغير شيريد .. انت ما عندك أهل .. ؟

عالج الشيء الذى في داخله أن يتكلم .. فازدرد ريقه ، لكنه لم ينطق .. وفاه في داخله مرة اخرى ، وأشار الى فمه :

صاح الاسطة ثانية :

ـ تعال ، هذا يمكن أخرس يريد ماء ..

وتناول القدح وشرب جرعة .. فأحس بحلقه يتمزق .. ثم يسقط الماء في فراغ بطنه فكاد يقيئه .. وأعاد القدح ..

سأله الخادم .. وهو الذى كان ينظر الى ساقيه :

ـ ما تشرب .. ؟

هز رأسه .. وانفتل متكئا على الجدار لحظة .. ثم ابتعد ، وكان الظل قد غمر الشارع والرصيف المقابل ، وتسلق البنايات .. فسار قليلا .. خمسين مترا ، مائة .. يكفي .. نفس المسافة التى ركضها في الاستعراض .. ثم عاد وهو يفكر ، لا بد أن الاستوديو فتح الان .. وان المتصرف ينتظره وراء الزجاج .. ورأى نفسه أمامه ، لقد اهتز وتدفق فيه فرح صغير ، حين رأى الباب مرفوعا الى الاعلى ، وقد اضيئت واجهة الاستوديو الزجاجية بانبوبة نيون زرقاء كبيرة وحدق في الصورة .. وهى تتوسط وجهين كبيرين ، أحدهما لفتاة في ملابس الزفاف .. والاخرى لرجل ينظر الى الصورة والفتاة ...

وغطى بظل رأسه الصورة بكاملها ، لانها كانت تسطع بلون فضي يمنعه من رؤيتها بوضوح .. المتصرف ما زال يصافحه ، والبسمة الانيقة على وجهه والمنضدة أمامه ، وفوقها الكؤوس والمداليات .. وواحدة منها معلقة فوق صدره وهو في نفس البنطال الاسود الذى يرتديه الان والرقم الاحمر ، واضحا على القميص ، لكن الذى على ظهره لا يبدو في الصورة والذين وراء المتصرف ، ما زالوا يبتسمون ، وأيديهم خلف ظهورهم اثنان منهم يرتديان الزي العسكري .. وصبي أصغر منه بكثير ، يضع ذقنه على حافة المنضدة وينظر اليه .

لو .. المسدس ، ويكسر الزجاج بمقبضه دون أن يطلق ، فينتزعها ويركض ولا يقف الا عند خط النهاية ، أمام بيت صديقه المتصرف ، يعرفه .. هناك ، يطل على النهر ..

ـ سيدى هذا المصور .. صورتي ، لا يعطيني اياها ، أنا العداء المشهور .. وقد صافحتني .

ـ خذها ابني ..

ثم الى المصور :

ـ انت .. ولك امشي ..

ولكن قواه .. انها تفر منه الان . ليست معه .. تركض .. تركض وركبتاه ترتعشان ، فتح الباب الزجاجي وخرج رجل وامرأة ثم برز هو ، المصور ، وابتسم له وكأنه يسلط أشعة مصباحه على وجهه ، وكان يعلك ويداه في جيبى بنطاله واحدى ساقيه تهتز ..

وراح ينظر اليه كما في كل يوم .. الا أن عينيه كانتا تسلقان فخذيه العاريتين مثل خادم المطعم وازدرد ريقه وأشار الى الصورة .. ونطق الشيء في داخله وسمعه يجيب :

ـ ها ... صورتك ؟ تريدها .. ؟ بعدك ما حصلت على مائة فلس ؟

حرك رأسه الى فوق وأشار اليها مرة اخرى .. وكان الشيء قد بدأ يزداد به انحدارا الى تحت ويرى الناس من فوق .. فوق .. وكان المصور أكبرهم .. ضخما .. مروعا .. وأكبر من المتصرف ورآه يرمقه ، وعيناه تخزان لحمه شديدا .. فأقعى مخذولا ، وتهالك على الحافة تاركا الرصيف وراء ظهره ..

وتناهى اليه بعد قليل صوته .. فالتفت ،كان يشير اليه بيده ويغمز بعينيه ..

حين دلف خلال الممر الخشبي الضيق .. كان الشيء فيه يبتسم بضعف ، وكان يتألم ..

نزهة في شوارع مهجورة

أحمد خلف

في الشارع ثمة موكب يتقدم نحوي الان .. أنا الاخر أتقدم نحو الموكب .. كلانا يسعى جاهدا لاختصار المسافة . نحاول الوصول الى لحظة الالتقاء ، هذا ما ينبغي تحقيقه : أنا أعرف أن الطرفين يشتركان بتقليص المسافة ، لكن في حالة عدم انسجام أحدهما مع الاخر ، فماذا ينبغي اذن ساعتها ؟

أدركت في اللحظة الاخيرة أني لم أعد مقتنعا بعملي ازاء الموكب . بدأ يتكاثف حول بعضه . يلتم كجدار يتحرك صوبي . ابصر مسيرته تتلاحم ، تستحيل الى كتلة صلبة ، بسبب المكان حيث يحتم عليه اتخاذ وضعية كهذه .

ثلاثة أشياء تبرز أمامي الان :

١ - جمهرة تحمل جنازة على الاذرع ، تسير فيمقدمة الموكب .

٢ - فتاة تتخبط في المسيرة ، دون أن يلتفت اليها أحد .

٣ - شاب يتصدر عملية التشييع يرفع ذراعيه ويقود المسيرة نحو مكان ما .

الى جهة ما من الشارع ، استدرت دفعة واحدة ، الشارع يمتد حتى اخر المدينة . حيث يشطرها الى نصفين ، كنت ذا معرفة بالمكان ، الاقدام

موزعة على جانبي الطريق ، في المقاهي العديدة المتراصة كعلب السردين • في المحلات التجارية الضخمة •• أسفل العمارات المرتفعة أيضا وقبل وقت قصير ، غادرت غرفتي المعلقة في احدى هذه العمارات بعد أن تأكدت من وضع الاشياء ، في موضعها ارتديت ثيابي كاملة ، بعد حلاقتي لذقني ، هبطت السلم الى الارض ، وحين تذكرت عملية الحلاقة •• انتابني ذعر شديد كنت (تلك الاونة) أوشكت على غرز آلة الحلاقة في اللحم • ساقي تبركان ، أسندت كتفي الى دعامة من الاسمنت ، ثم حررت جسدي من الخوف •

عند مواجهتي لمسيرة الموكب الجنائزي ، فكرت بالعودة الى الغرفة فكرت بالذهاب اليها ، لكني ماذا سأفعل هناك • بين أصابعي المزيد من الوقت ، ترى ماذا يفعل شخص مثلي بالوقت •• البعض يقول : اقتله • هل يمكنني ذلك فعلا ؟ هل هو حيوان يمكن اغتياله • وهذا الموكب المتقدم تجاهي • يزيدني ارباكا • ماذا عساي أفعل ازاء هذا الحشد الهائل من الوجوه والاقدام الصارخة في الهواء •

بجانبي •• أسفل احدى البنايات العصرية الطراز ، ازدحم بعض المارة ، بعض العيون المحدقة بالموكب ، بعض الكيانات الادمية ترتعش داخل ملابسها ، كنت أقف معهم ، وبغتة صرخت فتاة : دعني أيها الكلب القذر ••

بالتأكيد لم أكن مقصودا بالشتيمة لم أكن بمعرفة بالفتاة الغاضبة •• تحريت عن المعتدي •• تحريت عن المعتدى عليه • راقبت الوضعية لكليهما من خلال وقفتي •• قطب الشاب وجهه ، اعتلت وجهه خيوط غليظة من الكآبة (كان شابا منمقا ، دقيقا في اختياره لثيابه ، يضع سيجارة بين شفتيه) تقدم الشاب من الفتاة أصبح الواحد ازاء الاخر •

قال الشاب : معذرة يا انستي •• لم يكن قصدي ايذاءك ••

قالت الفتاة : كنت على يقين من حدسي •

قال الشاب : أي حدس تعنين يا انستي ؟

قالت الفتاة : أن تكون مهذبا مع السيدات .

قال الشاب : تلك هي الاخلاق العصرية .

تبسمت الفتاة : هل تعلمتها من الكتب يا عزيزي ؟

فرك ارنبة أنفه : تقريبا ، اذا شئت ذلك .

أخذ يدها وحدق بها مليا .. أمام الحشد المراقب لهما . للموكب أيضا فسأل الشاب : هل تدعينني اقبلها ؟

لم تفعل الفتاة شيئا ازاء ذلك .. أخذ يدها وطبع قبلة فوق الاصبع .. بعض الحشد صفق لهما بانبهار .. البعض الاخر بصق على الارض ، بينما استمر الشاب وصديقته ، يتهامسان برهة من الوقت .. كنت هناك اشاهد فقط اراقب الوجوه والاذرع . اذناي تمتلئان بالصراخ .. جسدي يغص بعاطفة باردة ازاء كل شيء .. في المسير حاذيت الفتاة ، بجانبها كنت أسير ، واضعا يدي حول خصرها تارة .. وامسك كف يدها تارة اخرى (كان ذلك بتشجيع منها بالطبع) فأتلمس أصابعها الرقيقة ، الناعمة قلت لها :

ـ كم رقيقة وعذبة أنت ..

تواصل ضحكها بشكل واطيء . رغم ذلك الهدوء الواضح على مسيرتنا ، فقد قالت الفتاة :

ـ انهم يشهدون اتفاقنا .

قلت : أخشى ألا يزعجهم ذلك .

بدأت المسيرة تتقدم نحو المقبرة .. الجثة محمولة على الاكتاف .. كنت والفتاة تتصدر الموكب ، كنا نقطع الشارع ذاته . الفتاة مندهشة ببهجتها ، انتابني شعور بالوحشة المغيظة ، حين طرق ذهني ، أني نسيت هويتي الشخصية ، يقينا ان أحدا ما سوف لا يعترض بسببها . فاجأني صوتها مرة اخرى .

ـ لماذا تسكت ؟

ـ افكر بغرفتي .

- هل تسكن وحدك ؟

اعترض طريقي شخص ما . تقدم مني وقال :

- دع هـذه الفتاة .

- لماذا أدعها ؟ انها صديقتي .

اعترض أحد الرجال الوقورين : دعهما وشأنهما .

تراجع الشخص ، وواصلت السير مع الفتاة ، قالت بفتور :

- لا تأبه له ، انه فضولي ، بالتأكيد !

لقد أثارني اعتراضه ..

من داخل الموكب صدرت عدة أصوات مبعثرة :

- أتدري كيف مات ؟

- لم يصلني خبر الموت . الا الان .

- كيف حدث موته ؟

- كان موتا شنيعا .

- أتقصد في الحمام ؟

- كلا . أمام التلفزيون .. كان يشاهد رقصة مثيرة ..

- لقد شاهدت الرقصة أيضا . لكني لم أمت .

ضحك الاول ، تجاوب معه الثاني ، وغاص الاثنان في قلب الموكب. حافظت على موضعي ، حيث تشاركني صديقتي مكان الصدارة . جاء الشاب المعارض لي .. في السابق وقف أمامي حدق بي والفتاة ، عوى بشكل ممتعض :

- دع هذه العاهرة يجب احترام الجنازة .

- لم نفعل ضدها شيئا .

اعترضت صديقتي : نحن نتفق على الزواج ، هل يضرك ذلك ؟

قال الشاب : حسنا ، سأستدعي الشرطة ..

أمسك الرجل الوقور بذراع الشاب ، دفعه بعنف جانبا . تشبث الشاب به ، وصاح بغيظ :

- انهما يحيلان الحزن فرحا .

قال رجل اخر : فعلا .. قلبت هذه الصفيقة ، الاسود أبيض .

صوت اخر : اطردوهما بعيدا عن الموكب .

اعترض رجل ثانوي : كيف للاسود أن يصير أبيض ؟

علق الرجل الوقور : يقصد أنهما يساهمان بتحرير الزنوج .

ـ اخرس أيها القذر ، لتعلم أنك لم تعد شابا .

تشاجر الرجلان ما بينهما ، سدد الشاب للرجل الوقور لكمة الى فكه الاسفل . سقط الرجل ، نهض كالجبل ، وضع أصابعه حول عنق الشاب . أخذ يهزه بعنف ، كاد لسان الشاب أن يتدلى فوق شفته السفلى ، انقسم الموكب على نفسه ، تحزب البعض للشاب .. والبعض الاخر ساند الرجل الوقور .. حاولت الذهاب الى مكان منعزل ، ذلك انى لم افكر (في أي وقت كان) أن أصير طرفا في قضية .. أية قضية .

أخذتْ صديقتي نحو الرصيف ، وحول خاصرتي ربطت ذراعها :

ـ اني خائفة لنهرب .

ـ كلا الهرب يعني الموت .

ـ على هذه الصورة قد يكون أفضل .

ـ لماذا أفضل .. شيء واحد لا يختلف بكثير .

ـ لنهرب ، بدأوا يقتلون بعضهم .

ـ ليس ذنبنا .. اختلفوا حول قضية مهمة .

ـ بسببنا اختلفوا ، سيميتوننا بالتأكيد .

لم أعد أرى التابوت ، اختفى عني أصلا . حدقت في المكان عبر جهاته الاربع ، ليس هناك مجال للهرب . هكذا فكرت في قراري . ينبغي لي معرفة الارض التي أطأها . لقد أخطأت في المجيء الى هنا . هكذا خرجت من غرفتي ، والتقيت بالفتاة التى فزت بها بعد اهانة بسيطة ، ولكن الموت كان يحدق بي الان .. في جهة ما من المكان ، يقف سور المقبرة الواطيء ، سألت الفتاة عنه ، فقالت : انه السور . لم اشاهده من قبل ولكني سمعت عنه كثيرا .

ـ حسنا اني لم أسمع عنه شيئا أبدا .

ومن جيبي أخرجت ورقة صفراء وبدأت أقرأ لها ، كانت تحدق بي فقط ، بينما صوتي كان يجيء اليها حزينا :

« مخذولا أنا .. لا أهل ولا حبيبة[1]
أتسكع كالضباب المتلاشي
كمدينة تحترق في الليل
والحنين يلسع منكبي الهزيلين
كالرياح الجميلة والغبار الاعمى
فالطريق طويلة
والغابة تبتعد كالرمح
مدي ذراعيك يا امي
أيتها العجوز البعيدة ، ذات القميص الرمادي
دعيني ألمس حزامك المصدف .
وأنشج بين الثديين العجوزين
لالمس طفولتي وكآبتي » .

حين انتهيت من قراءة القصيدة نظرت الى الفتاة ، كانت عيناها تدمعان . كان وجهي حزينا . وقعت يدها على ذراعي . قالت :

ـ متى كتبتها .. هل أنت شاعر ؟
ـ كلا .. ليست القصيدة لى .
ـ حسنا ، انها كئيبة حقا .
ـ هل أنت خائفة .. سنغادر المكان .
ـ فعلا : أين سنذهب ؟
ـ أين ترغبين .. سنتفق أيضا .

أمسكت قميصى ثم لفت ذراعيها حولي ، قالت بيأس :

ـ قبلني اني خائفة فعلا .

قبلتها ، كنت احس أننا نسافر في الريح .. هكذا خيل لي .. كما

(١) القصيدة من ديوان « حزن فى ضوء القمر » للشاعر محمد الماغوط .

خيل لها .. كنا نهرب فعلا . فجأة صاح رجل من الحشد : انتبهوا .. القاتل الخفي ..

توجهت مجموعة العيون الغاضبة الينا .. تهامس بعضهم وتقدم الشاب المعترض على اتفاقنا ، نحونا يجر وراءه حشدا كبيرا من الرجال .. لوح الشاب ذراعه أمام الموكب قال بغضب : (أيها الناس . المتآخين المتآلفين في السراء والضراء دخل هذا الرجل واشار نحوي - صفوفكم ، متفقا مع هذه العاهرة (واتجه اصبعه يتهم الفتاة) دخل دخول السرطان الى جلدة الجسم ، يقرض تآلفكم ويمزق لحمكم حتى تمكن منكم وجعلكم تتقاتلون ما بينكم ، تمكنوا منه قبل أن يكون منتصرا وساخرا من مسيرتكم ..)

صوت مذعور يعوي : ماذا تريدنا نفعل بها ؟

صوت (٢) : يقتل أو يسجن .

صوت (٣) : تحرق جثتاهما معا .

صاح الشاب ذاته : كلا .. فرقوا ما بينهما أولا .

نفذ الرجال ما طلبه الشاب ، أخذوا الفتاة مني دفعوني بعنف نحو سور المقبرة ، ضربوني بكل شيء قريب منهم . ركلوا عظامي وبصقوا بوجهي ..

وبعد وقت قصير ، أحاط بي ثلاثة رجال غلاظ ، سحبوني نحو جدار السور ، وأسندوا ظهري اليه ثبتوا في أعلى الحائط حبلا من المطاط . جعلوه يتأرجح كخرطوم طويل ، ينتهي بحلقة دائرية فارغة ثم طلبوا مني (باسم العدالة كما هتف بي أحدهم) ادخال رأسي في الحلقة الدائرية . بهدوء تام فعلت ذلك .. تركت جسدي يهتز في الريح ، بينما كانوا يتجهون الى الشوارع . الان فقط : اختفوا جميعا ، كما اختفت الفتاة عني نهائيا .

ملاحظة :

عثرت سلطات البوليس (خلال دأبها على القاتل الفعلي ، المسبب الاول في أحداث الشارع والمقبرة) على حزمة أوراق . أثناء تفتيشها

الرجل الذى شنقوه ، بتهمة التحريض ومع أن رجال الشرطة لم تحصل على هوية الرجل المشنوق الشخصية لمعرفته والذهاب الى مكان سكناه ، فانها اكتفت بأن وضعت هذه الاوراق بين أيديها للتدليل على سر القضية وجوهرها الحقيقي معتبرة اياها أساسا مفيدا في تقصي امور متلابسة مع بعضها .

أوراق خاصة :

١ ـ ليلة الجمعة : قررت عدم مغادرة غرفتي ، حدث ذلك في منتصف الليل . فاجأتني الرغبة في عدم الخروج ، لحظة دخولي الحمام : حين وضعت الماء على جسدي ، شعرت كم يكون المرء غريبا ومنعزلا عن الاخرين . وحين يجد ما يشغله عنهم فعلا ، فليس ثمة ما يوجب علاقاتهم تركت جسدي يغرق بالماء الفاتر ، ومع ذلك فاني لم أشعر بحاجة ضرورية لاستدعاء أحد . فقط ، كانت بي رغبة صميمية للنوم . ولو قدر لي الخروج فماذا عساي أفعل ، السير في الشوارع ورؤية المارة من الناس ثم مضاعفة الهموم الشخصية ليس الا . لكن ها أنذا أشعر كم جميل أن يجد الانسان نفسه في حالة من النظافة ، ذلك انه لم يغير شيئا ولم يتغير فيه شيء . انها حالتي الحاضرة .

٢ ـ الصباح بعد الحادية عشرة : ثمة شمس تسقط ضوءها المتوهج على عتبة الباب . الارض تلتمع مثل قطعة نحاس ارتديت ثيابي لدونما غاية ، فكرت في الفتاة التى رفضت العودة الي ، الفتاة التي أحببتها قبل ثلاثة أعوام على وجه التقريب انى لم أعد أعرف أين أصبح مصيرها كنت انذاك ما أزال في التاسعة عشرة من عمري ، غادرت قريتي وجئت الى لمدينة ، انقطعت أخباري عن أهلي ، فعلوا معي بالمقابل بعد أن يأسوا من رؤيتي اخر رسالة تلقيتها من أبي تقول : امك ماتت .. حزنا عليك أنت السبب الاول في ذلك ستحل لعنة السماء عليك .. قتلتها بذهابك الى المدينة .. ترى هل نسيت تعبها وليالي السهر التى أمضتها بجانبك تمسح مخاطك . أنشأتك ليتقوس ظهرها ، وتحل بها شيخوخة مبكرة . اعلم

أيها النذل الصفيق ، اني أعلنت براءتي منك أمام الملأ .. فلست أبا لك ، ولا انت ابنا تمنيت لو كنت انثى ليس ذكـــرا ، لعرفت كيف اهديـــك السبيل المستقيم ..

انتهيت من قراءة الرسالة ... بقيت هكذا صامتا .. لم أبك .. لـم أغتظ لكلماته ، بل داخلني ضباب أبيض من الحزن .. وقـــررت ألا أسأل عنهم بعد الان وأن أعتبر قضيتي معهم منتهية ، ذلك افضـل الحلول كمـــا أرى ..

٣ ـ الرابعة بعد منتصف النهار استيقظت فجأة على صراخ فتـــاة في الحلم ، بعد أغفاءة قصيرة ، ظهر خيط من الحلم يركض خلف جـــدار جبهتي : رجل يحاول اغتصاب فتاة في عربة قطار . تمانع الفتاة بقوة وهي تصرخ ، يتجمع بعض الركاب .. في العربة . يقف الشاب ازاء ثلاثـــة منهم كانوا يتقدمون منه لالقاء القبض عليه ، يقفز عبر النافذة ، يؤرجـح جسده في الهواء ثم يلقي جسده نحو الارض ، يظل يتدحرج في الوحل ثم تظهر جثة جامدة بلا حراك ، يبصق أحد الحضور بوجه الفتاة ويضع يدها بيده ، ثم يغيب في الممر الطويل في القطار .

حين استحضرت صور الحلم ، أدركت أخيرا أنها كانت لقطـــات سينمائية لفلم أجنبي شاهدته قبل ثلاثة أيام اجتاحتني رغبة قوية للذهاب الى السينما .. الخروج الى الشارع وملاقاة الناس .

ارتديت ثيابي واتجهت لاحلق ذقني هناك أمام المرآة كدت أغـــرز الموسى في جلدة الوجه .. وجه الشاب في الحلم يتابع حركة يـــدي .. ارتدت الفتاة الى الوراء ، وصرخت سال بعض الدم على خدى ، فـزعت ارتبك الوضع بين يدي ألقى الشاب جسده عبر النافذة ، كدت أســـقط على وجهي وأنا اسند ظهري الى أسفل العمارة في الشارع الممتد حتـــى اخر المدينة ، كان كل شيء هادئا تماما ..

آذار ـ ١٩٧٠

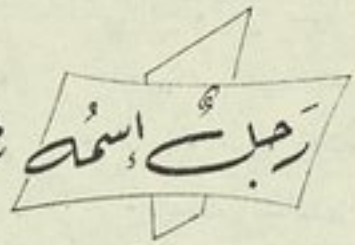

عبدالستار ناصر

قالوا لي ان (شريف نادر) يبحث عني منذ ثلاثة أيام وانه قد فتش في الكازينوهات والبارات وفتش في دليل التلفون ، فلم يجد لي من أثر فيها ، وبالتالي عاد الى منزله بحقد فائر .

وشريف نادر صديق عرفته في القطار العائد الى بغداد على بعد يتجاوز المائة كيلومتر من الحدود العراقية التركية ، وكان آخر مارأيت في عينيه خيال ابتسامة لم ادقق في معناها فقد تعبت يومها من الحنين الى بغداد .

ثم نظرت في عيون الرجال وكنت قد حاولت أن أضحك لو لم أتحسس في داخلي عروقا يتصبب منها بخار مملح نفث من جسدى بعد هياج أصابني عند مجيء الرجال . وتأكد لي أن ما يصيبني من رعشة مبهمة ليس غير شيء طفيف سرعان ما يزول ، حيث تمكنت بشيء من الرجولة وبشيء من الحذر أن أسأل :

ـ ماذا قال لكم شريف نادر ؟

وكان الرجال الاربعة يجيبون على سؤالي بنظام دقيق كأنهم مدربون عليه من زمن طويل أو أنهم ـ كما يبدو ـ نتاج تربية عسكرية :

قال الاول : انه يريد أن يراك الليلة .

قال الثاني : يجب أن تكون حاضرا .

قال الثالث : كان يبحث عنك منذ أيام .

قال الرابع : ماذا نقول له يا سيد ؟

لمحت عند ذاك مجموعة من الرؤوس الهشة تنتظر الجواب . قلت لهم بأني سوف أكون في منزله عند الساعة العاشرة ليلا . وعندها سقطت آهات نظيفة من رقاب الرؤوس وهم يقولون بارتعاشة خلتها لخادم ـ ذى حنجرة انبوبية ذات أربعة أصوات ـ يخاف سيده الجديد :

ـ نحن جميعا متفقون على أن نشكرك الان .

ـ سوف نقول له ان مجيئك في العاشرة .

ـ ان هذا مهم كما تعرف ؟

ـ لم تكن متعبا كما اعتقدنا سلفا .

وهجست فوق لساني حروفا كادت أن تنزلق ببطء بارد :

ـ لكن .. ؟

تساءلت برعب بالغ : كيف يحدث هذا بعد فراق خمسة أعوام وشهرين ؟ ثم لماذا يبحث عني ؟ هل من السهولة ـ هكذا ـ أن أذهب اليه وفي منزله أيضا ؟ ان هذا كله بالنسبة لي أعمق من رمز عابر يمكن اغفاله . ثم هجست من جديد أن هناك ما يشبه اللعبة السافرة تربطها برأسي مجموعة من الرجال ربما دون سبب ، الى الحد الذى التهبت فيه كالغاز السائل حيث يمكن أن يراني أى فرد منهم ويمكن أن ينقلني من وعاء الى وعاء وأنا ملتهب بالنار الزرقاء الجميلة . حينئذ فقط عرفت ما تعنيه اللعبة ، أو ربما تعمدت تفسيرها مع نفسي كى أجد الراحة والهدوء. فقد أصبحت في ثوان معدودة أشبه ما أكون بهيكل ميكانيكي يقطع المسافات البعيدة دونما حس ينوء بثقله ، ودونما شعور معين . انها لعبة

سهلة يمكن أن يفعلها أى انسان فكيف اذا كان شريف نادر هو الذى يمتهن اللعبة ؟!

أدركت عندها بأني سوف أهمله ولن أذهب • غير أن خوفا مبهما يجرني الى هذا الموعد • ربما كنت أخافه بشيء من الطفولة والهوس ، فأنا أذكر جيدا بأني كنت ضعيفا أمام عينيه • أمام اخر التفاتة منه • وهذا يعني لدي الكثير • ان شيئا مبهما يربطني الى الشارع الذى يؤدي الى منزله • هناك أستطيع الولوج الى نهاية الموضوع مهما كان شائكا ومهما كان غريبا فأنا أعرف جيدا بأني مهما فعلت ومهما اختفيت لن أستطيع اغفال عينيه أو نسيان الرجال الذين أرسلهم • فما يفعله شريف نادر يعجز الاخرون – مهما اختلفت مزاجاتهم – عن فعله دون شك ، لذا كان علي أن أقطع الطريق بصمت • يكفيني ما احسه من شرور يغلفها وجود هذا الرجل المبهم •

خطفت أمام عيني صورة دقيقة لوجه صديقي شريف نادر : شاربان رماديان يقطعهما من الوسط = خط من اللحم يتصل بنتوء أنفه الحاد حيث المنخران الواسعان وقد برزت منهما شعيرات فحمية وأنفه على طوله وبشاعته أيضا لم يقلل من قوة عينيه فهما ان حاول البعض أن يراهما بدقة فلا بد أنه سيخجل من سحرهما أو يجفل منهما ذعرا وخشية قد يفهم سرها وقد يخسر فيهما بعضا من رباطة جأشه • ذلك كله باستثناء مايملك من غرابة في الحديث عن نفسه ربما لكونه مملوءاً بهذه الطموحات العجيبة المبهمة فقد يقول في لحظة أنه سيرحل الى باريس دون عودة ، ثم يقول ان الرحلة قد تأجلت ريثما ينتهي من قتل تاجر معين أو قتل رجل بارز من رجال الدولة •

لن يستطيع فرد ممن عرفتهم مطلقا أن ينساه مطلقا ، ولم يستطع أحد أن يكذبه علنا ، كما انه في أحيان كثيرة جدا يفعل ما يقوله تماما ، فعندما كنا في القطار قال لي بشيء من الهزل أنه سوف يوقف القطار وانه بعد أن يوقفه ستحدث في المقصورة رقم ١٢ جريمة قتل لم أشهد مثلها ،

وبعد ساعة واحدة وعندما انتهينا من شرب شيء من الخمر السيء قـام شريف نادر الى قضاء حاجة ملحة ولم تمض غير دقائق حتى وقف القطار بين ذعر الركاب وهياج الصافرة القوية ، وحين حدق الركاب من نوافذ القطار وجدوا ان شيئا لم يحدث . ولما سأل المسؤول العام عن سـبب ايقاف القطار أشار عليه شريف نادر ان ثمة جريمة قد حدثت في المقصورة رقم ١٢ وكانت هناك جثة طويلة تغرق في الدم الحار ،يتدفق من ناحيـة الرقبة كنافورة عتيقة يتقطع فيها جريان الماء .

يومها نظرت في عينيه ، سألته عن السر في هذا الحـدث المروع ، فقال لي ان ما يقوله شريف نادر لن يخيب مطلقا ، كما وانه لن يحتمل الشك غـير ان ما أحسسته رغم ذلك في شريف نادر انه يكذب أيضا ، فقد حاول أن يفعل شـيئا معينا قبل أن أفارقه في المحطـة ولم يستطع فكانت خسارته مخجلة ، أو مضحـكة فيما اذا قورنت بما رأيتـه في مقصورة القتيل رقم ١٢ .

ربما كان هذا شيئا موجزاً عن شريف نادر ومايعرفه الاخرون عنـه محض ادعاء كاذب فقد يسمعون عنه شيئا ثم تزداد حماوة الرغبة في المبالغة السيئة حتى بدا بين الناس الذين يعرفونه مثل طيف اسطورى يرفض أن يكون فيه عيباً ، ومن هنا أصاب شريف نادر نوع شاذ من الغـرور الذى بدأ طافحا في عينيه مثـل النمش ، فهو كما سمعت عنه قبل عـام واحد تمكن أن يراهن على قتل عائلة برمتها في ليلة عرس يشهدها غالبية أهل المحلة وكان قد استطاع ذلك مع بعض رفاقه المتهورين دون ان يترك خلفه اشارة تقول ان الفاعل هو السيد شريف نادر ، وما ان سمعت هذا الخبر وانا اتحسس في داخلي نهاية اشياء كثيرة ، فأنا الوحيد الـذى يعرف ان جريمة القطار تمت على يديه ، واثبات هذا كله بسيط جداً ، غير ان الرجال الذين جاؤا قبل ساعتين والرجال الذين يسندونه بقوة مريعة والذين يجهل الجميع العدد الحقيقي الذى يشكلونه يجعلني كل هـذا عاجزاً بل شبه ميت يحتضن الجريمة بل ويشارك فيها ، سواء برغبته أو

دون رغبته ، فماذا يمكن أن يفعل انسان مثلي بين حالات همجية كهذه ؟

ـ أنا عاجز . هذا شيء ليس من شك فيه ، وأى واحد آخـــر في مكاني يعجز ايضا ، فهذا كله اقرب مايكون الى الحلم العابر .

وقبل أن يجيء المساء كنت مرتخيا على جدار متهالك ثم ذهبت الى بار قريب شربت فيه قنينة من البيرة الجيدة . توالت في الكأس الدبق ايام طفولتى منذ أن فطنت على هذا الكون الغريب . جعلت أنظر في فقاعـات البيرة نافخا برذاذها على سطح المنضدة . مرت في الكأس وجوه الناس الذين اعرفهم ، اصدقاء واقارب ، أبي وأمي وأخوتي ، ثم وجه شريـف نادر رافعاً يديه الى اعلى فقاعة في الكأس يقول لي ان الدنيا لم تزل بخـــير وان الشر لن يتحول الى هيكل يدمرني .

ـ مثل محتال بائس ياسيد داوود .

ثم خرجت بالتواء بسيط في العمود الفقرى نتيجة اني لم أعتـــد الشرب جيداً . ضحكت لنكتة قالها النادل ربما كان معناها (ان مجموعة المطربين العراقيين كلها تتناول نصف مكافآت البيتلز على أغنيـة واحدة) وكنت احد الذين يكرهون هذه المجموعة العجيبة من البشر ربما لكونهـا أكثر مني شهرة وأكثر مني مالا ، وكانت الضحكة التي رميتها في وجوه الزبائن تشبه الى حد ما وقوفاً مفاجئاً لسيارة عتيقة ، ولكن ليس هذا ماكان مهما بالنسبة لي فأنا اعرف لون هذه الاشياء وأعرف (سُلم الشهرة) في العالم ، وكيف يمكن أن تتسلقه النساء مهما تسابق فيه الرجال العظام ، ورجعت بذهن منهك الى شريف نادر اتساءل برغبة مريضة عن الســـر الذى يدفعه للبحث عني ؟

كنت أعرف نوعية التجارة التي يمارسها صديقي هذا . كنت اقول له بعناية كاذبة ـ أو منافقة ـ ان الدولة سوف تشعر به ذات مرة وتشنقه كما يشنق اللصوص والجواسيس ، فقال لي ان القطار الذى عاد بنا الى بغداد كان مليئا بالتجار الذين يمارسون تجارته ، وان القتيل الذى رأيتـه

أنا كن واحداً من منافسيه الخطرين ، وان مايمكن ان يفعله في رجال الدولة يشبه طقطقة الاصابع ، ثم اغلقنا الموضوع وضحكنا معا بخبث قذر وتركته لخمسة اعوام وشهرين كنت خلالها أتسقط بعض اخباره المهمة ، بعدها جاء يبحث عني كقط جائع .

كدت يومها اغرق في عتمة فاسية من الغموض الذى يفرزه شريف نادر في رأسى ورغم ان الساعة اصبحت الثامنة والنصف ، ولم يبق على لقائي به غير ساعة ونصف فقد حاولت اللجوء الى قنينة ثانية من البيرة فأنا اعرف مايعنيه التعامل مع هذا الرجل ، ، ودخلت البار من جديد وتسلقت العتبات التي تسبق البار ورغم أني لم اقع كما تهيأ لي فقد سمعت من يقول لي بتجشوء كريه :

ـ هل أنت داوود ؟

قلت له :

ـ أعتقد اني داوود ، ماذا تريد ؟

قال بعد ثانية واحدة وهو يرفع اصبعه الى السماء :

ـ هل أنت متأكد ؟ أم انت تعتقد ؟

قلت له وانا احاول الابتعاد عنه :

ـ أنا متأكد بأني داوود ؛ لماذا ؟

ولم يجب عن سؤالي ، أهملني بشيء من الهزء ، مما دعاني أتحسس هيأتي بخوف زائد وربما بخجل ثم بدأت اشرب القنينة التالية ،أرى في فقاعاتها وجه شريف نادر يكبر ، يكبر مثل بذرة عباد الشمس وهو يحذرني من عدم المجيء . وتشقق الكأس عن جريمة القطار وجريمة العائلة في ليلة العرس مما دعاني الى مراقبة الساعة كيما تصل العاشرة .

لم أكن هادئا مع اني حاولت هذا ، وبدأت أسقط في هوة مخجلة ، تزاحمت الخواطر الغبية في ركن معتم من رأسي . مددت يدى الى رأسي، شنقته بين اصابعي بقسوة . ان شرف نادر لن يرحمني من الهواجس

التي تأكلني . أعرف : ان شريف نادر رجل مخرب يتجول في رأسي مرتديا أخشن الثياب بحيث انه استطاع قبل مروره الى عنقي أن يفتت ما أملك من عواطف طيبة ثمينة .

– هل أنت داوود ؟

حقا ، ان شيئا باهتا وغير ذى قيمة يجعلني أجزجز خلف ظهرى هذا الرعب الخفيف والعار الذى بلامعنى لمجرد أن احداً يسأل عن اسمي ، وهذا كله من جملة اشياء ليست عذبة تتقعر لحظة بعد لحظة في هوة واسعة من اعماقي ، فماذا يعني أن أكون داوود أو غيره بالنسبة – لعابر – لم أكن قد رأيته في حياتي أبداً .

اذن قد يكون ثمة مايساعد هذا الشريف النادر على أزدياد خوفي منه ، فربما كان هذا تابعا غبياً من أتباعه العاديين جاء يؤكد الذل في رعشة عيني وفي اهتزازات هيكلي تجاه اسئلة جاهزة وسهلة . انها اللعبة التي يعشقها شريف نادر فلم تعد في جعبته أيما رغبة في اللعب العادية التي يمارسها بقية خلق الله في كل مكان . انه يعشق هذه الخصوصية البوليسية وباستطاعته أن يحرق الوجوه الضعيفة وجها بعد آخر كي يضحك ملء حنجرته ، كي يضحك هذا القاتل المنحط .

– هل أنا داوود ؟ نعم داوود ، ثم ماذا أيها المعتوه ؟

وكالعادة ، ليس من جواب ، فأنا اغرق تماماً في غباوة تلح على عقلي ، أعرف جيداً أن الشارع خال ، وان الناس في هذا البرد القارص يدسون انوفهم في خصلات النساء تاركين داوود تحت رحمة هذه اللعبة .

– ماذا دهاني ؟

شريف نادر يسقط في رأسي ثآليل مزحومة بالجراثيم البيضاء ، يتسابق مع نفسه الى شرايين رأسي ، يمحوها وريداً اثر وريد ، يضحك للجروح التي نزفت ، يضحك ، شريف نادر يجهل كيف هو الحزن .. يمد يديه تحت الدم ، فيسبقه الحقد الى رؤية الشرايين المفكوكة عن

نادر موجود في رأسي بهيئته الانيقة الرائعة ، مرتدياً بدلته الثمينة كما ان حذائيه يتأرجحان في المسافة مابين عيني ، تتزاحم عند المنخرين وجوه الرجال الذين يسندونه بمثل هذه القوة المريعة .

آخرها ، فيفك أسنانه عن لهف حاد ، ورغبة تطفح بالرعب المميت ، شريف.

كانت القنينة قد انتهت من ثلاث رشفات ، نزلت بعدها عتبات البار متجهاً الى منزل شريف نادر . الشارع يضيق بي وليس من أحد هنا . الدنيا برد والعالم مملوء بالماء ، تبللت ابتداء من الرأس ومشيت هادئا انظر الى كل شيء حولي ، اعرف ان الشمس قد اختفت منذ حين كما اعرف ان الماء الذى غطاني بحنان موجع قد تسلل الى طيات ثيابي . اعرف ان شريف نادر يجلس الآن خلف مدفئة رائعة ، وانه مطمئن تماماً الى مجيئي .

ـ لماذا يلعب الاغنياء هكذا ؟ أوربا مليئة بكازينوهات اللهو والمتعة ، لماذا هنا فقط ؟ ! تهويمات كالسديم الذى يلفني ، اذا رجعت الى الوراء أسقط في مدار من الاجابات واذا مشيت اليه سأركع في صدأ الذل الذى يعلق كالسخام في جبهتي ، مثل السخام بالضبط (هل يمكن أن تهرب ياعزيزي داوود ؟) فهناك لن يجيئك أيما سؤال ولن تجد النهار الذى طال عليك ، شريف نادر يرفض أن يعطيك فرصة، أن فرصتك الوحيدة في أن تهرب (هل يمكن أن تهرب يا داوود ؟) .

ـ لن تستطيع .

ـ مهما حاولت لن تستطيع .

كما لو أني فشلت ، فهأنذا قد ارتضيت بعقلية مريضة أن أفكر في الهرب ، كأني ـ بين هذه الاصوات المدمرة ـ لم أجد غيرها فكرة بعد ، ونسيت بين حفنة مانسيت من أشياء ، هذا النداء الخفي الذى يزعم لي بسذاجة طفولية ان خوفي مرده الوسواس الذى يعبث بي ، فمن تراه يكون هذا الرجل الا صديقا وصديقا يعرف ان يبتسم بحلاوة ، ربما كان قاتلاً ـ أجل ـ وربما كان مدافعا عن نفسه ـ لاريب ـ فما تراني

اعيب عليه ذلك ؟ وماذا دهاك اذن ياداوود ؟ .

قلت لنفسي تباً لهذه القدرة الفتاكة على خلق هذه التهيوءات البلهاء، كلها مسافة أمتار وتعرف لون الحقيقة ، التي لوثتها قزحيتك الحولاء ،انك في منزله سوف تكون محترما ، فهناك اكثر من رجل واحد سوف ينظر اليك بخشوع ورهبة تفوق حد التصور ، بل سوف يقال عنك (صديـــق شريف نادر) وهذا شرف اكبر من تصوراتك العريضة ، واكبر مـــــن طموحاتك الساذجة البريئة .

ـصديق شريف نادر ؟

ـنعم ، وماذا ينقصك ؟ لاشيء ، أنت كامل ، أنت مثله تماما .

ـمثل شريف نادر ؟ ماهذا الكذب ؟

وفي غمرة هذه اللوائة الحمقاء ، هجست أن يدى تمران في جيوب البنطلون ، ثم أقطع الشارع بارتضاء مكذوب ألوح من خلال الضباب الجميل كأي (مقتنع) من الرهط الذى كان يسير في الصباح ، مثل أي موظـــف مقتنع بتوقيعاته على سجلات الناس والدوام ، قانع ؟ ؟ كم يبدو ثقيلا هذا القناع الذى أخذ يغمرنى ، ثم يجعلنى ـ رغم أنفي ـ منفرج الفكين كمن يضحك لنكته معادة الف مرة ، ثم فى لمحة عين أدركت مرة واحدة انى خائف ، وانى أسقط من جديد في تلك الهوة البشرية الواسعة .

كان الطريق الى شريف نادر يفصله الجسر العريض . عندما مشيت من أوله كنت أرى لون السماء ولون الماء ولون الحجارة، تتشـــابه في شيء ما، بدا كأنه خليط من لحوم الكلاب ولحوم الخراف ولحوم البشر ، تتشابه في كونها لحوم ، تتشابه في انها ذات ألوان لم تقع من العين بسهولة ، وتأكـد لي ـ رغم انفي ايضاً ـ بأني قد جننت من تلك الهواجس التي تناثرت في مسامات رأسي كبثور نمشية تلقفت جميع أوردتي ، وريداً اثر وريد ، مثلما مزقها شريف نادر عبر مخاوفي وسقوطي ، فلم يزل السيد المرعب يضحك من هذه اللعبة التي يدورها في رأسه ، لعبة كبيرة ليس من ألـم يوخزها غير وجوده فحسب ، شريف نادر يعرف نوعية هذه اللعبة ، فهو

يملك أن يقتل متى شاء ، يملك أن يضحك كيفما شاء ، يملك أن ..آه .

*

فجأة وبعد وقت طويل كما أظن ، نهضت عن الرصيف بعد ما أيقظني حارس المنطقة ، قال لي :

ـ أما يكفيك شيئاً قليلا من الخمر ؟

وأظن اني فتحت عيني فلم اتبين شيئا من ملامحه ، وكدت أسقط من جديد فأسندني اليه بقوة وأخذ يجرني الى مكان اكثر عتمة ، وهناك بانت لعيني كومة عيدان غليظة متشابكة على هيئة كوخ جلست في ركن منها دونما أي حس معين ، ليس من خوف ، ليس من هواجس تسقطني أو ترفعني ، نسيت في لحظة ما ان الحارس هو الذى جاء بي الى هنا لو لم أسمعه يقول :

ـ مابالكم تكثرون من الشرب هذه الأيام ؟

ـ عمن تتحدث ؟

ـ أتحدث عن شباب هذا الشارع ، انهم يشربون بلا اهتمام لشيء .

ـ .... ؟ !

نظرت الى مكان الصوت ـ بأنهاك وعجز ـ فلمحت وجهاً هادئاً وعميقاً . علامة تشبه الوشم في الجهة اليسرى أسفل العين . أنف متآكل من جهة الفاصل مابين المنخرين ، تقاطيع لحمية كالجروح على امتداد الوجه العريض ـ وجه هادىء عميق ـ أيقنت عندها اني قد صحوت . سألت عن الساعة ، قال انها الواحدة بعد منتصف الليل ، سألته باغفاءة تأرجحت بها الى اليمين :

ـ متي تأتي الساعة العاشرة ؟

هز الحارس رأسه ولم يجب ولما سألته ثانية حدق مابين عيني بشيء من الهزء وأجاب ان الساعة العاشرة قد مرت منذ ثلاث ساعات ولم أكن اريد أن اصدقه ، رفضت ـ رغم ايماني بما قاله ـ أن اصدق ان الساعة العاشرة قد مرت . مسكت معصمه وقبل أن أحاول فعل شيء معين أخذت

أبكي دونما حرج ، واثقلت رأسي بما يشبه كثبان الرمل تتوالى كالسهام في اذني :

– شريف نادر لن يصدق هذه الأعذار .

تتبلور هذه السحب القريبة في رأسي وتندلق كالجرار المائية في أدق عروقي فتجعلها مثل شيء باهت ليس ثمة مايعنيه ، تتبلور في رأسي أخاديد كالعروق المنفوخة تنسل من أمعائي كشيء مضغوط يتفتت ويدخل جمجمتي ماء فاتر كان قد تبخر من جراء خوف طويل وفقاعات مريضة ، شيء ما يساعدني على أن أكون هادئاً . لم يبق غير أن أجرجره الى جسدي كي يرضيني ، فها أنا اسقط في مدار من الاجابات الوقورة الغامضة كما اني سوف أركع في صدأ الذل الذى يعلق كالسخام في جبهتي ، اسقط مثل خليط اللحوم جاهزاً للتلوث والمضغ ، جاهزا لكل فعل يومىء به شريف نادر ، فهنا فقط تأكد لي بخواء وعجز وبحق اني قد جننت من تلك الهواجس وهذا هو السيد شريف نادر يشير بسبابته الى داوود . يومض في أذهان جماعته ان يموت هذا الداوود فهو قد أخرق موعده بعد تأكيد سابق وبعد ان جاءه الشهود الأربعة :

– شريف نادر لن يصدق .

– من يكون شريف نادر ؟

اووه لم أزل اذن مع هذا الحارس ، أنا يقظ من غفوتي ، لماذا بقيت بجانبه كل هذه لمدة ؟ كان أجدى بي أن اخطو الى شريف نادر ، أقول له أى شيء فمهما أقول لهو أفضل من رفض موعده بهذا الشكل الذى انتهيت اليه ، وسمعت الحارس يقول لي بهدوء غريب وطيبة غير طبيعية بالمرة :

– من تراه يكون هذا الرجل ؟ كنت قد سألتك هذا السوءال ولم تجب .

انكسرت لحظتها عن عينيّ أشياء موخزة ، وانحدرت صوب عالم كنت أجهله ، تساءلت لماذا الخوف ؟ بل لماذا كل هذا الخوف ؟ ماذا يمكن أن

يفعله هذا الشريف النادر ؟ كان ـ بمعنى ـ صديق ، أغمرني يومها بأهتمام طافح فلماذا يكون هذا الخوف كله جسرا الى رأسى ، وماذا تراني أقول لهذا الحارس الطيب ؟

بوقار تلوكه الدقائق ، انتهيت الى ابتسامة صفراء يحسها الحارس مثل الكذب الطافح من جلدى فيسألنى ، وأغفل مايقول ، يسألنى أكثر من مرة بنفس البرود ، ثم انحدرتْ كالماضي سيول من الدمع . ويسألني أرى الآن أن الساعة تمر دونما أمل في شيء ، يأتي الصباح رويداً رويداً وكنت قد أخطأت في اشياء كثيرة . لماذا لم أجب على هذا الحارس ، ربما لا أملك ما أقوله وانا مغرق في هذا السيل الجارف من البكاء الـذى أنخرطت فيه ؟ وتطلعت جيداً الى ملامحه كأنى أتأكد أن يكون هذا نفس الرجل الذى جاء بي الى هنا ، فكان هدوئه وعمق صمته ونفس العلاقة التي تشبه الوشم في الجهة اليسرى أسفل عينيه دليلاً على ذلك ، وازداد بيَ الحرج ، فقد انتهت مع هذا الرجل حدود قوتي ، فهو يراني أحدق في عينيه ، ويراني أبكي ، ويراني أتمخط ، وأنا بعد هذا كله نطقت بأشياء ربما نسيت ماتعنيه بالنسبة لهذا الرجل الغريب عني وانبثقت خلال المتاعب الصغيرة رؤى مشوهة تلاعبت بين عينيَ وخلفهما تومىء بأنى لن أحتمل البقاء وحدى وتأخذ مني بين ثانية واخرى عذوبة هذه النسمات التي كانت ترد عليَ من جانب النهر . ثم توضحت هذه الصورة التي اعاني منها ـ أن أكون وحدى ـ وقد تدفقت شوائب هذه الروءى الصغيرة كلمحات هائجة لوجوه الناس الذين عانيت منهم ، ووجوه أحبائي الذين يهملونني غالبا قبل اهمالي لهم . وكل هذا يوزن جلدي مع قوة هذا النكران البائد ، وتنتهى الصور القبيحة الى سؤال عادى يوصمنى بالذل كلما هجسته في خلايا جهتي المعروقة :

ـ هل أنت داوود ؟

وتعود الصورة ، وتراني أقول بلهفة تعوم بي في كتلة الماء الـذى يمطرني من فوق فأغرق فيه بلا ضحك ، وبلا بوءس ، وبلا احساس :

ـ اذا كنت داوود ؛ ماذا تراك تريد مني؟ وان لم أكن داوود ؛ ماذا علي أن أفعل ؟

كل الوجوه تعني شريف نادر ، الحراس الليليون ورجال الاعلانات الملونة وانتهاء بالشحاذين المشردين على طول الشارع ، كلها تعني ان شريف نادر موجود فعلا ، وانه يراني ويتبني سواء رضيت أم ابيت ، فهو يدرك الآن وفي هذه الساعة بالذات ان لعبته تجيد الرقص أمام ذهنه :

ـ أنت ترقص ياداوود ؟

ثم حدقت في عيني الحارس وقلت لنفسي :

ـ هذا يكفي أيها المجنون ، شريف نادر رجل طيب حتى انه لايجيد أية لعبة .

ولكن ما الذى يحدث بالضبط ؟ فهذا رأسي يحترق ، يتوزع بين البلل والثياب الباردة والشارع الخالي ، أرى من بين هذا كله يدين أنيقتين ووجه سمين مملوء بالخبث ، فهل تراني أجرأ ؟ هل أستطيع أن أكظم انحدارى الى أسفل من هذا الدرك المعيب ؟ ألست مثل الآخرين ، رجل رجل يشرب من قوهة قناني البيرة ، رجل ملء عظامه ولحمه رجولة ، ما الفرق بيني وبينهم ؟ اترى ثمة فرق بيني وبين شريف نادر ؟

ـ ان كل هذا يدخل في باب العار فأنت مثل الآخرين تماما .

ـ هل أنا مثل شريف نادر ؟ هذا هو المهم .

ـ ليس مهما ان تكون مثله بالضبط ، فكل انسان في العالم له شخصيته وادراكه ومزاجه الخاص ، انت داود وذاك شريف نادر ، ان الفرق بينكما اشبه بالفرق بين اسميكما .

واستمرت هذه الدغدغة الدقيقة من الحوار تلف شرايين رأسي فتنفك تارة ثم تعود الى تشابكها كي ازداد رعبا تارة اخرى ، وبالتالي أقف كأي عاجز عن الفهم اتابع رصد هذه الدغدغة المعيبة ، عل هناك ما أستطيع الانتهاء الى الايمان به ، ثم كالعادة تراني أخسر نفسي وأحس

بالمرض في أجزاء مهمة من هيكلي فأندس في كتلة السديم الهائلة اغرق فيها كي أبتعد ما استطعت البعد عن الاحساس ببقية جلدى وبقية اعضائي التي أراها بشفافية وذعر ، ثم أنهل بعد لحظة نثار من البرد طـــواني بعشق قاس ، حتى وجدت ان عظامي قد انكمشت في مكان ضيق ككتلة واحدة غير مجزأة وقلت للحارس بذل لم أدرك سره :

ـ أشعر بالبرد .

ـ ماذا قلت ؟

ـ أشعر بالبرد يفتك بي .

ولم انتظر غير ثوان حتى وجدت معطفه الشتوى الخشن يرحمني من نكاية البرد ، ولم أقل له اى شيء فقد اهتممت عندها بكتلة العظـــام وقد انفكت بهدوء ساحر لذيذ ، حتى وهي تعود الى هيأتها الاولى بقيت صامتا لم أقل كلمة ، حتى اني كنت أقول في ذات نفسي ان (شـــكرا) بسيطا يمكن ان يظهر الآن فوق شفتي بهذه البساطة التي اتحدث فيها مع نفسي . ان هذا الرجل الهادىء العميق يزيدني في كـــل ثانية تمر بمشاعر لم أعشها من قبل مطلقا ، كما اني اعرف جيدا ان ليس لقنـاني البيرة التي شربتها من أثر معين بهـــذه الترسبات الوجلة الموجعة التي تجعلني مثل طفل أجهده الخوف ودمرته هواجس عقله بوعي مغلوط فارغ غير واضح .

ـ سألتك من يكون شريف نادر ؟

الآن : يجب أن أقول له ، ان الصمت هذه المرة يسقطني تماما من عيني نفسي فكيف بي أحمل معطفه تاركا جسمه البـــارد المسكين تحت رحمة هذه النثارات الجليدية المتساقطة مثل الرعب الكابوسي ، وقلت له بتقطع بارد ربما بدوت به مضحكا أو سخيفا :

ـ شريف نادر صديق عرفته قبل خمسة اعوام ، في القطار الـذى عاد بنا الى بغداد ، وكنا قادمين من تركيا .

قال لي بنفس الهدوء ولكن بشيء من الدهشة التي علقت في أسفل عينيه دون ارادته :

ـ لماذا تخافـــه اذن ؟

ـ هل قلت هذا عن شريف نادر ؟

ـ لم تقل شيئا معينا ، غير ان شريف نادر هو الاسم الذى نطقت به أكثر من مرة وبخوف غريب .

ـ نعم ، نعم ، هذا أمر حقيقي .

ـ صدقنى ، لم أفهم منك شيئاً منذ أن جئت بك الى هنـا .

بدأت ملامحه العميقة تنفك بشيء من الحذر ودون ارادته أيضا ، ثم انهدرت خيوط من الشك أحسستها في عينيه ، يجرني بها الى واقـع اغفلت ما عمقه وما نوعه ، وحاولت ان اجاريه في اسئلته وان اجيبه عـلى ما يريد ، فقد أحسست توا بأني اقابل وجها يشبه في حدود ما وجـــه شريف نادر الغامض رغم هدوء هذا الرجل ورغم هيـــاج شريف نادر ـ هذا الفارق العجيب ليس ذا بال في مخيلتي ـ انهما حقا غير متشابهين في بعض العادات التي يمارسانها غير انهما متشـــابهان تماما بالنسبة لي ، أو ربما هذا هو الشيء الوحيد الذى بدأت افكر فيه ، كنت أهرب مـن شريف ندر ، وأنا الآن بين يدى شريف نادر آخر ، وبدأت اخوض في ما يشبه التجارب الميكانيكية ، بين آلات حادة جارحة ، بين آلات دقيقـة لم أهجس منها غير الوخز المدمر ، كما لو اني هذه اللحظة اندثر مثـل ابرة صغيرة بين آلات عملاقة مرعبة . وفطنت الى اني لم اكبر منذ عشرة اعوام خلت . كان هذا بالضبط نوع احساسي قبل عشرة اعوام وأنـــا امارس الخوف من أبسط ما يمر بي ، لم اكن غير لعبة بسيطة يتناولهـــا من يشاء ويطيح بها من يشاء حتى انتهت كبريائي بين عدد هائل مـــن الناس والشياطين التي تعاد على مخيلتي في الكوابيس ، وفي اليقظة . وقد تكون هذه نهايتي ، فكيف بي أرى شريف نادر أو نسخة طبق الاصل من شريف نادر بينما كنت أهرب منه في الخمر وأهرب منه في جعجعـة

الذكريات من حلوها الى مرها ، رغم اني اعرف ان ذكرياتي قد انتهت مع الرشفة الثانية من قنينة البيرة واني هنا رجل بلا ذكريات وبلا خدع عادية احيط بها جسدى . فمنذ عشرة اعوام بالضبط وانا واقف بلا حراك امام قوة هذه الاشياء التي أجهلها ، واقف كلعبة سخيفة رخيصة الثمن ، رغم اني استطيع المراقبة وأستطيع التفكير كأى انسان آخر في الدنيا ، ولم ادع لنفسي فرصة أن احارب في مكان من الكون ، سلطت على نفسي هذا الشكل الساذج من القناعات التي أبحت بها لنفسي أن أهدأ ، أن أركن في زاوية معتمة مثل هارب جاهل ، لا يعرف من أين يهرب ولا الى أين يتجه . وانحسرت كما في كل مرة بين ألوان هذه الزاوية السوداء ، أتعشق اللون الاسود . الاسود طوال عشرة اعوام . أى طعم هذا ؟ يتسلل كالبخار الى أنفي فأشم احتراق شيء كالشواء المنسي ثم المح بوعي دافيء انى قد انتهيت الى حالة من الاستقرار الطيب اكون بها (مقتنعا) بهذه الحالة التي رفضتها في ظروف اخرى ، وذلك قد يعني آخر خيط من حقيقتي ـ أنا مذبذب بين حالتين ، أستقر مرة واهتاج مرة ثانية ، أرتضي لحظة معينة سرعان ما أسبق نفسي الى رفضها بوعي أو بغير وعي مني ـ وهذا ليس له من معنى غير الفشل :

ـ أكون قد فشلت فعلا ؟ ان هذا رهيب .

ـ ولكن أى فشل تعني طالما أنت تهرب ؟ ان الانسان الذى يهرب هو فاشل بشكل مسبق ، أنت لم تفشل انما أنت حقيقة كنت فاشلا ولم تعرف غيرها من حقيقة .

ـ نعم ، قلت ان هذا رهيب ، حتى اني كذبت على نفسي حين ادعيت مرة بأني أعرف لون الاستقرار ، انني مثل قنفذ بلا غطاء شوكي يحميه ، يزداد رعبا كلما لمسته الريح وكلما لمسته العيون .

ـ أى طعم هذا ؟

ان عيني شريف نادر تشرب عني هذه النداوة التي انبثقت من جلدى الى الدجة التي أصبحت فيها ازداد جفافا ، بل ان ما يتهيأ لي أكبر من

قوة التصور التي أفهمها في نفسي (أنا أحس الآن ان الفشل الخارق الذى أدركته كحد مطلق هو الذى يخلع عني نداوتي فلم تكن تلك النداوة الرائعة الا ايماني بكبريائي وايماني بوجودى وها أنا كما أعرف لون انتهائي : جافا مقرفا يدفعه الفشل الى الرعب المطلق) الرعب فحسب كحقيقة أعجز عن ردها مهما حاولت ، أتنى أبكي من جديد :

– ماذا دهاك ؟ أرى ان خوفك من شريف نادر بلا حدود ، وأنت تقول لي ان شريف صديقك أنت حاولت اكثر من مرة فعلا ان اقول له ما يرضيني – هذا الحارس الذى يمد عنقه الي – أو اقول ما يرضيه على احتمال ابسط ، غير اني لم أفعل غير اهانه وجهي أكثر وانحداري الى هاوية من العتمة الزائدة .

– نعم ، قلت ان شريف نادر صديقي ، لكنه .. لكنه نوع آخر غير ما تعرفه من الاصدقاء .

– اقول ايضا بأني لم أفهم ، حتى اني بدأت اشك في وجود (شيء) اسمه شريف نادر .

– سوف تسمع اسمه دون شك ، فهو موجود فيهذه المدينة بالذات .

ثم يضحك . استطيع ان اصدق أى شيء الا ان يضحك – هذا الحارس الذى كان طيبا وقورا وكان هدوؤه يعني لدى الكثير – بدا يضحك في خشونة عائبة ، حتى اني ابتعدت الى الخلف بحذر . بهذا الحذر الذى اقتربت منه الى شريف نادر ، ورأيت أسنانه وهو يضحك ، كان بعضها مقلوعا من الجذر ، وبعضها متآكل في اجزاء مهمة . وامتلأت القرف ، بدا لي من جديد أن اسنان الحارس ستظل مفتوحة هكذا طوال الليل ، أو انها لن تغلق الا على شيء طرى قد يكون لحمي ؟ وكان هذا وحده يكفيني ويقنعني بالهرب – نعم اريد أن أهرب منه – أنا أحس الآن كل قرف العالم من بين فكيه ، فان بقائي هو النهاية الجائرة التي أرفض أن اعيشها على يديه .

جذبت المعطف عن ظهرى وألقيت به عند رجليه ومرقت الى الخارج

أركض ، أركض بقوة مريعة لم تصادفني في زمن ما حتى ولا قبل تلك الاعوا م العشرة • نظرت الى الخلف فلم اجد غير طيفه يتبعني بنظرة بلهاء عاجزة عن الفهم ، وتهيأ لي اني سوف لن أكف عن الركض فان هـــاتين الساقين تسابقان الهواء البارد دونما عجز حتى اني بعد دقائق قليلة لم أعد أحس بهما فراحا يطيران في حماوة ممتعة عظيمة • كنت وحـــدى في الشارع ، وحدى في المدينة ، اركض • ولم أعد التفت الى الوراء ، بدأت أهرب بقوة ، كنت أملك في أعماقي الليل الذى أهملته خلفي ، وأرى في هذا السباق العظيم وجوه النساء ، وعذوبة المطر ، كنت أدخل في مملـــكة خاصة ، وحدى فقط ، الكل نيام في هذه الساعة من الليل ، ليس من أحد لم أكن لحظتها افكر أين بيتي ، أين الجسر الطويل الذى يؤدى بي الى منزل شريف نادر ، أخذت اركض بقوة خارقة غير مألوفة أحس بهـــا كأني اسابق اللهفة ، اسابق الحب ، اسابق التلفون ، اسابق الفضاء ، ولم اعرف السبب ، الا انها كانت أعظم لحظات عمرى حتى الآن •

عبدالستار فاضل

١-١٢-١٩٦٩

الدائرة لا باب لها ..!

عبد الرحمن مجيد الربيعي

محمود يتحدث :

الخواطر تترى كثيرة ، والليل يلف بيوت الناصرية بحذر وظلام كئيبين لا يسمع فيهما الا صوت حذائي وهو يضرب اسفلت شارع الهواء (اصبح اسمه الآن شارع الحبوبي ، بعد أن قطعت كل اشجاره ، ومنح شهيا لفوءوس الحفر ليكون مرتعا جيدا للمياه وفضلات الطعام) وأنا انقل خطواتي المتعبة نحو مقهى الحاج كاظم المنزوية قرب المسجد العثماني الكبير (كانت مقهى واسعة الا ان ندرة الدكاكين في المنطقة قد جعلت المالك يقتطع جزءا كبيرا منها ويحيله الى محلات لبيع الصمون والفواكه والانابيب ودكان للحلاقة فيه واجهة زجاجية انيقة كتب عليها بخط كوفي: صالون حلاقة كامل للرجال) . وهذه المقهى هي المفضلة لي بين مقاهي المدينة وقد أدمنت الجلوس فيها للثرثرة وشرب الشاي الساخن والحديث عن أفلام الجنس والمعلقات السبع . وكذلك للحلم بالآفاق الواسعة البعيدة التى تمناها قدماي ، والتى لم تعرف طعم هوائها رئتاي وهما تستنشقان روائح المدينة المنزوية منذ عشرين عاما ، وللرسم أيضا ، نسيت أن أقول بأنني أعلق في غرفتي الخاصة شهادتين توءكدان اختصاصي في الرسم ، ولكن

من المضحك انني مرة عجزت عن رسم حمار وكم حاولت ذلك ولكنني لم افلح مما اضطرني لأن اقول لمدرسي آنذاك (وهو فنان لم يشرق أسمه رغم ايماني بحرارة حروفه) : لقد عجزت عن رسم هذا الحمار العاق • وها أنا ارسم لك حيوانا بلا فصيلة ولك ان تتصور بغلا او حصانا او كلبا أن شئت الأسوار ، مما اضطر المدرس لان يضحك ويعلن :

ـ انت عاق كالحمار يا محمود !

ولم اعتقد ان في الامر اهانة اذ كنت أحمل من القوة في ساعدي مما يؤهلني لان أضرب رأسه في الجدار • ولقد ضحكت من تعليقه ورد هو الآخر على ضحكتي بالمثل (وأظنه قد أحس بأنه لاول مرة قد اصبح خفيف الظل) •

في مقهى الحاج كاظم ارسم كل مساء (تقريبا) وجوها اعتدت ان اراها في تحنيطها الابدي على ارائك المقهى وهي وجوه عمال ومتقاعدين وباعة • ومرة رسمت وجه ابي الذي اندس بين هذه الوجوه (انه رجل اسمر ، انفه طويل ويميل الى اليسار ، وقد ورثه عن أمه كما يقول ، نساؤه الثلاث اللواتى تزوجهن اخيرا يصغرنني سنا • احداهن ماتت في ولادة عسيرة ، والاخرى طلقها لانها عاقر ، اعتبرتها نكتة لانها كانت تمهيدا ليتزوج الاخيرة التي كانت مطلقة ومعها ثلاثة ابناء ، وكان لديه خمسة من ترسبات زوجاته الاخيرات فاصبح حاصل جمع الشركتين ثمانية اولاد والبقية تأتي • كان قد تخطى الستين عندما فعل ذلك) وقد همس لي خالي بعد زواج ابي بيومين :

ـ اسمع يا محمود ، ان اباك فحل جيد ، لقد واسدها تسع مرات فى اول ليلة !

ثم انطلق ضاحكا وهو يتابع :

ـ ان هذه هي المهنة الوحيدة التي يجيدها أبوك !

ثم اخذ يمسح نظارته الطبية ويرفعها الى اعلى ليتأكد من صفاء زجاجها في الضوء • يعيدها الى عينيه ويبتسم • ثم يقول :

ـ اما انا فلم أنم الا مرة واحدة في اول ليلة مع زوجتي الثانية ولم اكرر الجولة الثانية الا بعد اسبوع ، علما بأنني اصغر من ابيك بعشرين عامـــا .

ونادى على ابنه طالبا قدح ماء ، شربه بتمهل وتابع :

ـ انفقت حوالي السبعمائة دينار على زواجي الثاني ولكنني لم أستوف نقودي ، لقد كانت طلقاتي خائبة .

ثم قهقهة من جديد وهو يربت على كتفي ويقول :

ـ البركة في أبيك .

في هذه الليلة كنت مدفوعا بشوق لمقهى الحاج كاظم حيث وفد عليها قبل أيام رجل لم أره من قبل ولم أعرفه أبدا ، وكان قد لفت نظري بسلامحه الغريبة ، ولم أثر عندما مزق دفتري قبل يومين عندما رآنـــي ارسمه ، مزق دفتري دون ان ينبس بأية كلمة او يظهر على وجهه تعبير عنف او ضجر غير تعبير اللامبالاة والبرود الذي عرفته فيه منذ ان حط على احدى مقاعد المقهى المنزوية .

كانت له نظرات تائهة لا تستقر على شيء (تذكرني بنظرات ممثـل امريكي راحل ، اسمه على ما اعتقد مونتگومري كليفت الذي أحببته بعد ان رأيته يتألق في فيلم مكان تحت الشمس) . وكان يحدق في فـراغ مبهم كبير ويبدو عليه برود ذاهل غريب . لا يسلم على احد وغالبا ما يرد تحية الاخرين ، وان فعل هذا فبجمود أخرس عجيب . وكنت أطالـــع مرات على وجهه الشديد السمرة تعابير تعب وخذلان وقنوط شدني ليه وجعلني اطيل النظر نحوه وأتوق للتحدث معه . وكنت اعتصر تفكيري لاجد وسيلة ما تقربني اليه (وقد اكتشفت انه قد أثار فضول عبدالرحمن الربيعي أيضا الذي كان يعمل في مدينتنا آنذاك ، وكان يتطلع لان يكون كاتب قصة ، وقد حاول معرفة شيء عن هذا القادم ولكنه لم يفلح وعندما عجز تركه بعد ان شتمه مرة، وقد غادر المدينة قبل ان يكتب شيئا عنه ، وعندما التقيت به بعد ست سنوات في احدى مقاهي بغداد ذكرته بالقـادم

الغريب فهز رأسه وهو يقول : أعاهدك على أن اكتب عنه يوما ، وسأكون مسرورا ان زودتني بالتخطيطات التي رسمتها لوجهه ويديه ، ووعدته بأن أفعل ذلك ولكنني لم أف بوعدي ، وسأشعر بالخجل حتما ان جمعني الدرب بعبدالرحمن الربيعي يوما وطالبني بالرسوم الضائعة) .

وأخذت مكاني بجانب القادم الغريب عامدا (رغم ان المقهى كانت خالية ولم يبدأ زحف الرواد صوبها) ، وحييته بود وانبساط ، واكتفى بأن أدار وجهه الي وابتسم ابتسامة باهتة فارغة فسكت ، وبقيت انقر بأصابعي على مسند الاريكة العتيق باحثا عن موضوع اكلمه به ، فأدرت وجهي نحوه وقلت :

ـ لقد ندمت كثيرا لما فعلته بك قبل يومين ، أرجو ان تصفح عني ، انها العادة التي نكسبها من امتهان عمل ما ، واعلم بأنني لم اقصد الاساءة اليك من وراء رسم ملامحك على الورق .

واستمر في اطراقة رأسه وكأنني أخاطب انسانا غريبا لا يعنيه بشيء ، وحرك اصابع يده اليمنى بعد لاى وهو يتمتم بتكاسل ونظراته ما زالت تحوم في فراغها :

ـ لا تهتم ، ليس هناك من شيء بيننا .

وكنت اراقب حركة شفتيه الجافتين قليلا واللتين تنبثقان كالورم من وجهه الكث الشعر ، وتصورت ان كلماته هذه مفتاح لحديث طويل يرضي فضولي العارم نحو هذا القادم الغريب المرمي بجانبي دون أن أعرف عنه شيئا . وبعد أن لفظ كلماته استخرج سيكارة وزرعها في فمه وأخذ يدخن .

وقلت :

ـ في الحقيقة يا صاحبي ، لقد وجدتك غريبا وهذا مما دفعني لان افتح معك أي حديث عل به بعض السلوى لك .

وقال بلهجة قاطعة :

ـ اولا انا لست بصاحبك ، وثانيا انا لا أريد السلوى من أحد .

ثم استلقى في شمس الصمت قانعا ، وأخذ يراقب يده وهي تنقل السيكارة الى فمه بتمهل وعندما انتهت سيكارته رماها تحت قدميه وسحقها بقوة ، وكنت اراقبه وهو يكز على اسنانه عندما فعل ذلك ، ثم هب واقفا وحمل بيده جريدة قديمة كانت ملقاة بجانبه (ولم التفت اليها) ، وشق طريقه بين المقاعد وأرجل الرواد ، وسقطت نظراتي بحدة على ظهره العريض ، ولاول مرة اعرف لون بدلته الرصاصية المتآكلة ، وتابعته عن مبعدة وهو يغوص في بركة الليل تدريجيا ، ونهضت وأسرعت بخطواتي وراءه فرأيته يدلف الى فندق منسي اعتاد ارتياده بعض سكان القرى المجاورة للمدينة كلما حضروا لبيع انتاجهم وشراء بعض الحاجيات وتعذرت عليهم العودة في اليوم نفسه .

وأحسست بالضجر يجثم على صدري وينفل ضياعا وملالا وانسربت في الطريق .

* *

أخذت اجهد نفسي لاحضر لمقهى الحاج مبكرا لالتقي بلغز المدينة الجديد (وما اكثر ما عرفت مدينتي من مجانين وألغاز ، أحدهم كان يحمل عصا ليقطع اسلاك الكهرباء وكانت أمه تركض وراءه باكية ، واخر كان يكتب العرائض للقرويين في باب دائرة البريد ، كان قصيرا ومفتولا كأنه نابت في الارض ، وكان ينهي عمله في الساعة الثانية بعد الظهر ويحمل معه اوراقه وكرسيه ومنضدة الكتابة ويبحر صوب شرقي المدينة ، وقد حاول ان يكتب عنه كاتب ناشيء اسمه عبدالرزاق الناصري قصة وعندما عرف بذلك لكمه على فكه مما اضطره لان يبقى يعالج هذه الضربة اكثر من اسبوعين ، وقد عرفت ان عبدالرزاق الناصري قد كتب عنه القصة الموعودة فيما بعد لكنها لم تكن بالدرجة التي تعادل صمت هذا الرجل الذي لم يعرف أحد شيئا عنه سوى انه كان جنديا في الجيش العثماني . ان المجانين في مدينتي نعمة مباركة وقد زودتنا المدن المجاورة بقسم منهم ، كما اننا قد ارسلنا ايضا نسخ التبادل كذلك ، وقد أخذ احد اصدقائي مهمة الكتابة لي عن كل مجنون جديد ولكنه مل من ذلك ولم يكتب لي منذ

ثلاث سنوات علما بأنني قد عرفت من خرين بأن المدينة لم تنقطع عن انجابهم) .

وعندما اقتربت من المقهى وجدتها مزدحمة وشعرت بالاطمئنان وأنا أرى الغريب مندسا في الزحمة . وكان يجلس باسترخاء وقد وضع ساقا على اخرى ويده ترتفع وتهبط حاملة السيكارة ومؤدية طقوس التدخين ، وشققت طريقي بين الجالسين وجلست بجانبه بعد ان حييته فرد علي بحركة من شفتيه دون أن يلتفت صوبي وعجزت عن فعل شيء وشعرت بالضجر من هذه المتابعة الساذجة فقد اكتشف انه مجنون وعند ذلك تصبح حكاية مضحكة (ولكنني عللت نفسي بأن اكتشاف مجنون جديد في هذه المدينة هو عمل عظيم ايضا ومن شأنه ان يشحن حياة الناس المخدرة بدم جديد يدفع بالبسمات الى وجوههم الراكدة) .

وأخذت الهي نفسي بمراقبة الصور المعلقة على جدران المقهى كانت صورا كثيرة مستلة من المجلات المصرية الملونة تمثل فاتن حمامة وشادية وليلى مراد ويحيى شاهين ، وهناك ايضا قطع مكتوب عليها بخط ردي بعض الحكم ابرزها حكمة تقول (هذا من فضل ربي) وقد علقت فوقها مسبحة سوداء طويلة أذكر ان الحاج كاظم قد قال لي بأنه قد جلبها معه من الحج قبل أربع سنوات ، وكان يرفعها بين وقت واخر وينظفها ويستبدل خيوطها كلما تهرأت ويعيدها الى مكانها ، وكانت بعض الصور معلقة بصورة مائلة جعلتني امتلىء رغبة في النهوض وتعديلها ولكنني كففت عن هذه الرغاب السخيفة . ولفت نظري وجود دفتر كتابة ممزق الغلاف بجوار القادم الغريب مما أوقد في أعماقي كل نيران الفضول الخامدة وكان مفتوحا على صفحة فيها سطور مبعثرة . مددت ساقي وأرحت ظهري على متكأ الاريكة ، وملت بجذعي قليلا فقرأت :

(دينار ونصف : سيكاير)

العمل من اجل ابتياع جذوة دخان ليس يعادل الرحيل كالسنونوات التائهة .

ماجد قاسم كان ذليلا بعض الشيء .

ماجدولين ..

المنفلوطي ، طه حسين ، صيدلية الناصرية .

السيد المتصرف يرجى الموافقة على نقلي الى ...

٤٧٦ × ١٢

صحتي .. لماذا تسألون عنها ؟ !

اشياء كثيرة تحدث وتنتهي ثم نسدل عليها ستارا من الصمت ، انا اجوف ، روبرت براوننج كان محقا عندما حاذر ان تكون حياته على خطأ في النهاية ، فتبدو وكأنها غالبا قضاء محتوم .

تفاهات ..

الشموع + النار + الناصرية + فندق الاحرار .

سعر المنام ١٠٠ فلسا ..

ع .. س)

أعدت قراءة هذه الكلمات المرصوفة بأهمال على الورقة ، وحاولت ان استشف منها معنى لم أصل اليه ، ولكنني عجزت عن ذلك مع انني كنت واثقا بطريقة ما ان هذا الرجل لا بد وان يحملني جرحا اوسع من الفرات الذي يسقي المدينة منذ دهور .

وانسابت نظراتي الى وجهه . وألحت علي فكر متناقضة عديدة ، لا بد وأن لهذا الغريب ماضيا ما ، ولكنني لن أعرفه مطلقا ، من أين جاء ؟ وكيف يريد ان ينتهي ؟ وشعرت اكثر من أي وقت بالرغبة في اطلاق أية كلمة تبعد عني هذا الوضع الغائم الذي اخذت اغوص فيه تدريجيا وأنا ألاحق هذا القدم المستكين في المقهى الجانبي دون ان اعثر على أي خيط يمكن ان يجعلني اتزود بمعلومات اكثر عنه تطفىء نهم الفضول المتأجج في أعماقي . قلت له :

ـ لا اظنك من الذين يرتادون السينمات ، ومع هذا هل توافق على مصاحبتي لمشاهدة فيلم جديد تعرضه سينما البطحاء لاول مرة هذه الليلة !

وخرج صوته هادئا من بين اسنانه المصفرة ليقول بلهجة متقطعة :

ـ افـلام !

ثم هز يده ضاحكا بانغلاق .

وأردفت :

ـ انه افضل من المقهى على أية حال .

ـ أتبحث عن المفاضلة بين الاشياء ؟

ووجدت نفسي حائرا عن اعطاء جواب ولكنني قلت :

ـ ربما .

ـ اذن انت ساذج !

وضحكت وانا أقول محاولا تشجيعه على مواصلة الحديث :

ـ ابهذه السرعة تحكم علي بالسذاجة ؟

وقـال :

ـ أتريد ان اصفق لكاذ ن ؟ !

ـ ولكن .

ـ نحن أمام عناق الاضداد ، أتفهم ؟ ووحدك الضحية المائلة كالجدي المقرور ! أتريد اضافة أخرى ؟ !

ولم أرغب في اضافة أخرى ، ولكنني شعرت هذه المرة بأنني أرتمي في قرار من السماح والطيبة ، وبأنني مأخوذ بهما .

ومد الغريب يده في جيبه واستخرج عود ثقاب وراح ينبش اسنانه ، وتركني أفرك ذقني براحة يدي واجدا في عملي هذا هروبا من الحيـرة التي زرعني فيها .

تنفست بارتياح ، فبصقت وأنا احس برائحة المقهى المتعفنة تمـلأ صدري ، وأخذت أتأمل حارسا ليليا يجلس قبالتي يكرع شايه بشـغف وقد تمددت بندقيته على ركبتيه بينما تعبث يده الاخرى بعصا خيزرانيـة طويلة أظنه يستعملها لطرد الكلاب خلال تجواله الليلي في دروب المدينة وأزقتها ، وكان يرتدي معطفا عسكريا ويلف رأسه بشـماغ عتيـق ،

واستخرجت دفتري من جيبي وأخذت أخطط، بأناة ، وكنت أشعر أن الغريب يراقب ما أفعله بين وقت واخر .

ثم نهض بدون انذار مسبق وهو يتمتم :

ـ منسيون ، منسيون !

وزرعني وسط عتمة اكثر حلكة من ظلام كل العصور .

صوت الغريب :

قال الحاج كاظم :

ـ لماذا تلح عليه هكذا ؟ اتركه ، انه مخبول !

ثم قال ثانية بلهجة الناصح :

ـ لقد مزق دفترك ، ألم تتعظ منه ؟

وعندما أطلق الحاج كلمة دفتر هذه انتبهت الى أن الغريب قد نسي دفتره على المقعد وغادر المقهى .

التقطت الدفتر مسرعا وكأنني قد عثرت على الباب الذي سيقذفني الى لجة مدينة هذا الغريب الغامضة ، وشعرت بالاحراج لانني قد سطوت على ثروة هذا الرجل الخاصة (وأقسم بأنها أول محاولة فضول عارمة امتطيها في حياتي الطويلة ، وعذري أنني قد أجد في هذا الرجل شيئا عظيما لا تعرفه المدينة ، وقد يكون رجلا مهما بصق تاريخه وانحدر الى شوارعنا الضيقة ليندمج في هذه العتمة الطيبة ويذوب فيها) .

تصفحت اوراق الدفتر ، في الصفحة التي تعقب الصفحة الاولى التي قرأتها في بداية دخولي المقهى ، كتبت مقاطع من قصيدة « الارض الخراب » لأليوت ، وقد لاحظت أنه لا يعتني بكتابته جيدا . وكأن الكتابة عبئا يؤديه مرغما ، أما الصفحة الثالثة فقد تركها بيضاء ما عدا رسم مصغر لرأس دجاجة ، وفي الصفحة الرابعة كتب :

(عندما يريد هاملت أن يغير مجرى ما كان وما حصل فانه يشعر بالسذاجة حتما ولكنه رغم هذا لا بد وأن يفعل شيئا ، وأن يشهر سيفه تبدو نكتة ، ولكنها الجواب لان هاملت رجل ..... وقد حدثت كل

فرسان المدينة المتلكئين ان استخرجوا كل مناديلكم الورقية وامسحوا انوفكم .. و .... الانوف ! ليس من الواجب ان اصغي لانني لا اجيد ذلك ... المتنبي مرضهم الذي يحملونه وهم يقارعون جسور الكلمات لنعبر أفواجهم المنخورة ...

ابو نواس يقول ثم يصمت ثم لا يقول شيئا ، وأنت وأنا والبحتري كذلك :

ألام على هواك وليس عدلا اذا أحببت مثلك أن ألاما)

وبدأت اتصفح الصفحة الخامسة . كانت سطورها الاولى تحمل مقاطع من اغنية مصرية لعبدالحليم حافظ ، وتحتها كتب اسماء نساء منهن (.. ساجدة ، ايمان ، فاطمة ، تغريد ، وليلى العامرية في القلب مأواك ، انه فارغ لا تصدقي ، لقد سجلت كل انسحاباتي ولم أعد أهطل كالامطار المشتهاة ، يا صرخة هذه الاوقات وتلك التي ستولد ايضا في خضم هذا الدوران ...)

وهنا شعرت بيده تنتزع الدفتر مني وهو يتمتم بصوت جزع :

ـ لا .. لا ..

قلت :

ـ انا آسف جدا !

ـ ليس من العدل أن تفعل هذا !

ـ ولكنني لم أقصد الاساءة !

وضع الدفتر في جيبه وخرج من المقهى ، وكان الحاج يراقب ما حصل فاقترب مني وهو يقول :

ـ اتريد ان تورطنا مع هذا المجنون ؟ !

وكان والدي قد دخل المقهى آنذاك وانتحى جانبا ليدخن نارجيلته ، فذهبت اليه وجلست بجانبه (كان يبدو هزيلا لعيني بعض الشيء فقد اتعبته زوجته الاخيرة كما تعلن ملامحه ، مرة كان جنديا وقد ارسلوه في

مهمة الى اهوار الجنوب ليأتي ببعض الفارين عن الخدمة العسكرية وقد اخترقت كتفه رصاصة ظالمة اثر مطاردة له مع بعضهم ، أذكر أنه قد رقد في المستشفى سبعة أيام فاقد الوعي . وقد نزف كل دمه وسكبوا في جسده دما جديدا ، كانت امي تبكي فهي لا تعرف الى اين تمنح وجهها من بعده !

قال الطبيب عندما رآه يفتح عينيه :

ـ يجب ان تعتبر نفسك قد ولدت هذا اليوم .

ومنذ ذلك التاريخ وابي لا يضعف بنيان جسده فقد اخذ بالامتلاء ثانية ، وكان يقف دائما في باب بيتنا يراقب النساء ، وكانت أمي تصرح فيه :

ـ ألا تستحي من عملك هذا ؟ انك رجل كبير ، ومن كان في مثل سنك يجب ان ينفق ايامه في الصلاة وذكر الله !

وكان يهز يده ويصرخ فيها غضبا !

ـ ان لم تقفلي فمك سأطلقك !

وترد عليه :

ـ ماشاء الله ما زلت صغيرا لتتزوج غيري !

قال والدي :

ـ اترك هذا المجنون ، اتريد أن يضربك !

وأردت ان اقول له :

ـ انه اعقل من كل رواد المقهى !

ولكنني هززت رأسي بالايجاب وقلت له :

ـ حسنا يا والدي !

ملامح اخرى

أخذ الغريب يشاركني الحديث احيانا ولكنه لم يكمل معي أي حديث بدأه ، حدثته عن الاحزاب وعن النضال وعن الفن والرياضة والادب والموسيقى ، وعن الماركسية والوجودية ، وعن هيغل وافلاطون واندريه

جيد ، وطه حسين ، وفريد الاطرش وليلى مراد ، والمقهى ووالـدي ، وقد اعطى آراء مقتضبة عن كل هذه المسميات والذي حيرني اكثر انـه متتبع لكل اعمال هؤلاء وزمنهم ونقاط الضعف والقوة في أعمالهم ولكن أهم شيء عرفته أنه كان موظفا في مصرف الرهون وأنه اكثر الموظفيـن حرصا على اداء عمله وتمشية المعاملات .

وانقطع يوما عن ارتياد المقهى وأسرعت للفندق افتفي اخباره ، والتقى بي صبي الفندق وأخبرني بأن صاحبي لم يغادر فراشه منذ الصباح وأنه ممدد تسحقه الحمى يصيح تارة ويركد تارة اخرى وولجت عليه غرفته فألقيته يغط في نوع عميق ويعب الهواء في جوفه بخيشومين واسعين محدثا ضوضاء كثيرة لولاها لظننته ميتا ، وكانت ملامحه ذابلة ويكسو وجهـه شحوب مخيف وذقنه كانت طويلة الشعر حتى اصبحت كهالة سـوداء تحيط اسفل وجهه .

وأمسكت بيده كانت ساخنة بشكل عنيف ، وكانت العفونة والرطوبة تشيدان على جو الغرفة ، ففتحت الشباك وناديت صاحب الفندق بغضـب وعندما حضر صحت فيه بعصبية :

ـ لماذا لم ترسلوه الى المستشفى ؟

فأرتبك ولم يمنحني جوابا .

وأسرعت الى الهاتف وطلبت احضار سيارة اسعاف . ثم عدت الى القادم الغريب وجلست بجانبه أرقبه ، وبعد فترة من السكون عاودتـه النوبة وأخذ يتحرك في مكانه ويتأوه بعسر واختناق وكنت حزينا لوضعه وقد تلاشت كل انفراديته وسطوته الخاصة ، وتحول الى هذا المخلـوق الخامد اللاهث تحت انياب الحمى ، وانفلتت من فمه كلمات محمومة غير مترابطة :

ـ جحود ، المصرف ، ساحة ، ساحة ، انت ، والله ! والله ! أمي ، والله ! لا أريد ان أرى واحدا منكم ! جحود ! جحود ! عباس ، لا ،

اعرف ، مريم ، ساحة ، بغداد ، المصرف ، اكتب ، اكتب ، العن كل اجدادك : آه ! لا !

كانت الكلمات تخرج من فمه مرتجفة ثقيلة وخلته يحتضر فلم أر من قبل رجلا يودع هذه الحياة التافهة والتي نمنحها هذا التعلق الرهيب .

ثم علا نشيجه ، واحتقنت عيناه واخذ يتقلب في فراشه فأمسكت به بقوة ، وأسندته الى السرير الذي بدأ يحدث صريرا مقرفا . وقلت له بأخاء :

ـ انا بقربك ، لا تتحرك ، سنحملك للمستشفى :

وانقلب على ظهره واستقر وهدأت عيناه وراح يتنفس بلهاث ساخن ، وأخذت اتأمل وجهه مشدوها : ما الذي اقوله فيه عندما ينتهي بين يدي هكذا ؟ أي حكمة يحملها موته لمقاهي المدينة ولرؤوس ابنائها المرتصفة في البيوت والمقاهي والشوارع كالاعلانات البائسة ؟ !

كانت الخواطر تتضارب في رأسي الحائر ، وبدت شفتاه تتحركان وكأنه يخاطب اعماقه القاحلة ، وصاح فجأة :

ـ الوجه المتفحم ! هو ! هو ! السكين ! شماته ! شماته ! شماته ! عباس !

ثم هبطت لهجته . وأخذ يتكلم بصفاء وكأنه يخاطب انسانا قدم اليه بعد غياب دهور :

سأزيح هذا الحزن الذي يغطي جفنيك وأحيله الى فرحة أبدية ! سأفعل ذلك ... لماذا لا تصدقين ؟ !

ثم خمد في مكانه وغط في غيبوبة عميقة . ولم يطل به الوقت فقد حضرت السيارة ونقلته الى المستشفى .

الحقيبة :

وكان يوم ما زلت اذكره جيدا (رغم انني سرعان ما أنسى حتى أرق الحظاتي) ، كان الحر شديدا والساعة تدنو من الخامسة مساء ، وكل

مقاهي المدينة فارغة من الرواد تقريبا بينما أخذ عمالها يرشون الارض بالماء حتى يعذب الجو قليلا ، وكان هناك بعض الاطفال متجمعين حول بائع مرطبات القى عربته أمام واجهة (صالون حلاقة عدنان) وكنت أتحسس شعري الكث فقد اهملته بعض الوقت للدرجة التي بدأ فيها يفرز قشيرة مقرفة تتساقط على اكتافي وتجعل ثيابي تتسخ مسرعة ، ووجدت الحلاق غائبا فارتأيت ان أزور صاحبي الغريب في فندقه .

تسلقت السلالم القديمة مسرعا ثم أخذت امسح العرق المتصبب على جبيني وعنقي وأنا اخطو صوب غرفته التي كان بابها مفتوحا على مصراعيه فألفيته يجمع اغراضه ويكدسها في حقيبة جلدية كبيرة فوقفت مشدوها وسألته :

ـ هل تنوي السفر ؟

فرد علي من دون ان يرفع رأسه نحوي :

ـ نعم .

وعدت اسأله :

ـ هل نقلت ! أم لديك اجازة ؟

فرد باقتضاب :

ـ لا هذا ولا ذاك .

ـ وكيف أذن ؟

ومط شفتيه ، ثم اخذ يسعل وهو يلتقط الحقيبة في يمناه ويخطو بها الى خارج الغرفة ، وسار بخطوات وئيدة ، وتبعته كمن يسير في موكب جنائزي كبير ، ونزل درجات السلم ، وأنا حائر مشدوه ابحث عن جواب لتساؤلي ، وعند باب الفندق التفت الى الخلف وكأنه نسي شيئا ، ووقف هادئا ينتظرني وعندما اصبحت بجانبه مد الي يده المرتجفة مصافحا وقال وهو يبتسم ابتسامته الشاردة التي عرفتها على وجهه عندما طرق المقهى لأول مرة :

ـ لقد ضجرت ، هذا كل ما في الامر ، أوامر ، عقوبات ، دوام ،

مسائل مضجرة لا اطيق الصمود امامها دائما ، لن تتغير صرخة أعماقي سواء اكنت موظفا في مصرف الرهون هنا ، أو بائع حلويات متنقل عبر الطرقات والشوارع الطويلة في مدينة أخرى .

ثم انصرف عني ، أنا الآخر قاصدا دكان الحلاق . وما زالت تختلج في عيني حيرة لائبة مقهورة حتى هذه اللحظة التي اختتمت فيها كتابة هذه السطور الباهتة عنه وأنا اضع اقراص الاسبرين في فمي بين فترة واخرى وأعقبها بقدح ساخن من الشاي عل الصفاء يعود الى رأسي .

ملاحظة :

فاتني ان اذكر ان عدد التخطيطات التي رسمتها له بلغ التسعة ، ثلاثة وهو يحلق ذقنه وستة وهو يغفو في المقهى ، وقد شاركت بثلاثة منها في معرض مدرسي صغير اقيم في الناصرية بعد ثلاث سنوات من رحيل القادم الغريب ، ولكن لم يلتفت اليها احد من رواد المعرض اذ كانوا مأخوذين بصور الانهر والأشرعة والنخيل المرتصف على شاطىء النهر .

اهتمامات عراقية

جمعة اللامي

قراءة جديدة

ايها المؤمنون ..

اسرعت الجياد فوق رمال الويلات . وعرف ـ كما نبأه جده ـ ان السر الذي وعد به سيتحقق خلال هذا اليوم فقط ، فربت على عرف جواده ومال الى انصاره وأهل بيته ، فرأى الدموع تبلل لحاهم ومع ذلك فهم يبتسمون ، في حين بدأت طلائع « الحر » كالاشجار البعيدة ساعة القيلولة .

حاور الرجل جده ونفسه : « ها أن الوعد اقترب ، وبي شوق يا جدي للقياك » كانت الشمس فوق رأسه تماما .

كانت الصحراء تحمله فرحة بالدم العبيط الجديد .

كانت أخته ساهمة ـ وعد امجد ، وعاد السبي ، ايتها الحوراء !

الصوت : ماذا تكتب ؟

المؤلف : قصة .

الصوت : لكنها ليست البداية . انت تعيد تاريخا !

المؤلف : اني اكتب عن الحسين . الا يسرك ؟

الصوت : دعني اسمعك اغنية :

« يُمه يعبدالله ،
ذبحوك بحضيني •
واسمع جناجيلك ،
ما غمضت عيني •
جدك أبو الحسنين ،
جدك رسول الله

ـ يبدأ الصوت بالخفوت تدريجيا حتى يغيب عن سمع المؤلف • يبدأ المؤلف بترديد الاغنية كصبية الحارة تماما : ـ

وقفا في رأس درب من دروب حارة الماجدية ، نبحث عن ذلك الصبي الصبوح الذي سيكون شبيه الحسين • خرجت أمي الى الدرب وقالت ان الحسين مات • مات الحسين • وستنهكون عيونكم بحثا لان الصبي الصبوح الذي يشبه الحسين ما وجد بعد فهو ما يزال نطفة في ظهر الرجل القادم الان من الشرق •• !

متى نجده اذن ؟

من يدري •• !

واذ افكر في هذا • ابدأ بالصعود من الماضي واتجاوز الحاضر لارتبط بالمستقبل واعيش مع الرجل القادم من الشرق •

فوق رمال الويلات يجيء الرجل القادم من الشرق يتذكر الاغنية التي رددها المؤلف قبل قليل ، ويحط على رمال الصحراء عند مربض الجواد الذي ما ترك فارسه حتى بعد مصرعه !

يميل الرجل الشرقي الملتحي الى انصاره الذين ما اهتدوا بوقع خطى جواده يعدو ويبدأ بمخاطبتهم : « ايها الفرسان الذين تعيشون في ماضيّ ، اياكم واللحاق بي ، فأنا لا اقدم لكم الا الموت • عودوا الى زوجاتكم فأنا ذاهب الان الى ادغال بوليفيا » •

★ • ★

هي نفس الطرق الموحلة يا سيدي ، وقلبي هـزه الشـوق اليـك . المستقبل آنا ، ولكي ادخل بردتك الواسعة دعني امارس ضعفي القديـم فليل الكوابيس والجدران وشتاءات البرد والعواصف الخريفية ما تزال تعيش في دمي .

نفس الطرق الموحلة يا سيدي .. !

وأنا أبنك الذي خب بلا مرج وسط الحالوب ومعاطف الشـرطة ، اجيء ارض الويلات للمرة الاخيرة !

★ ● ★

هبني يديك .. !

الصوت : وماذا بعد .. ؟

المؤلف : لا ادري .

الصوت : التاريخ روى ما روى . انت لست كاتبا جيدا . اتعيد ما قالته الكتب الصغراء وما بكى من أجله القراء فوق المنابر السود الحزينة ؟

المؤلف : آياك وحديث المنابر . الحسين في دمي ، دمي .

الصوت : دعني اسمعك اغنية

– يبدأ غناءا غريب . وفي هذه اللحظات يرجى من القراء الالتفات او عدم الالتفات الى هذه الملاحظات : –

« يمهيعبد الله
ذبحوكبحضيني
واسمعجنا جيلكما غمضتعيني
جدكأبو الحسينجدكرسوللله »
حزن سيفي – « سودة شلماني
مارحت ويّه هواي
و « الحر يزاني
طحت بدياي الماي » .

– يشارك المؤلف بترديد المقطع الثاني من الاغنية . وللقراء الاختيار بترديد الاغنية ام لا ، فذلك ليس من هم المؤلف أطلاقا :

« حالك شلونه
ينشدني البطران
هم يتشدونه ،
الطاير عليه الماي ؟ ! »

ـ يختفي صوت المؤلف نهائيا • يكتفي بالتقديم • يظل الصـــوت يردد الاغنية ثم يتوجه للقراء ـ

: سيداتي وسادتي ••

الحكاية وما فيها ان السيد المؤلف يريد أن يكتب قصة • كان متأزما هذا الاسبوع ولم يسكر البارحة كما تعود • ذهب قبل أيام الى النجف ثم عاد وفي ذهنه صور الموت والفجيعة وردد أمام أمه انه اصبح الان مسيطرا على وعيه •

كان يفكر بأستشهاد الحسين منذ صغره ، ورغم انه لم يلطم صدره في عاشر عاشوراء فقد رأى القمر يسقط على الموكب تلك الليلة فخاف منه وأحتمى بحضن أمه وظل صامتا مدة شهر تقريبا •

قالت أمه : أهو حلو كما يقولون ؟

ـ : انه القمر •

قالت أمه : ولحيته •• أكانت شقراء كما يقولون ؟

ـ : انه يسير في كل الاتجاهات •

قالت أمه : انت طفل يا جمعة •• ويحسن الاَ تكذب !

ـ : اردفني جواده • مشينا على رؤوس الناس ، وقال لي يا صغيري ستموت بنار عشيرتك اوصيك بنفسك كن حاضرا كالهواء •

« يتابع الصوت » :

بعد ذلك ذهبوا بالصبي الصغير الى احد « السادة » الذي بصق فـي فمه ، ووشم خاصرته اليمنى بوشم الحسين المعروف •

الرؤوس والنهر

رغم أننا حملنا الصحارى على اكتافنا فقد تهنا : كان ثمة بحر مـن

الرمل يجتاز الوادي المحاط بسلستي تلال لا تكاد تلمس الفرق بين ارتفاعيهما فوقه تماما طفت بيوت القصب والبردي وحيث الاطفال يسيّرون الزوارق الورقية فوق سطح الماء عندما كانوا يرددون :

« يمه يعبد الله ،
ذبحوك بحضيني .
واسمع جناجيلك ،
ما غمضت عيني .
جدك أبو الحسنين ،
جدك رسول الله . »

ما ردد الصغار الانشودة عندما شاهدوا سفن عامل الخليفة تخترق النهر صاعدة الى مركز الخلافة . كان السفن تحمل رائحة الصحراء والدم المتيبس في الاعناق المبتورة .

ثلاثة رؤوس :
على القنوات مشرعة ،
رجل ملتح ، من بين الرؤوس ،
كان يبتسم ، للاطفال المذعورين .
هكذا سارت القافلة :

سفينة الحماية ، بعدها سفينة عامل الخليفة ، ثم سفينة الرؤوس الثلاثة . كانت الرؤوس المصلوبة تنوح ولم يسمع نواحها الا العامل الذي اغتنم شارة الخلافة ولا الجند الذين سكروا بخمر الرقع .

الاطفال الصغار هم الذين سمعوا اناشيد الرأس المصلوب ذي الوجه الملتحي .

كبر الصغار .

رفعوا هم الصحارى على اكتافهم وهزجوا بأناشيد الحزن والحب والقتال .

الرأسان الآخران كانا يبكيان ، والرجل الذي اتم شارة الخلافة يبتسم انتظارا لليلة حمراء مع الجارية القبطية الجديدة .

حكى الاطفال لذويهم عن حوار الرؤوس الثلاثة .

كبار الرجال قفلوا قفلوا أفواههم . أما الشباب فتناقلوا الحوار بهمس .

قال الرأس الاول : لقد ضعنا .

قال الرأس الملتحي : اشهد ان الزنج آتون .

قال الرأس الثالث : الاطفال يغنون وهم كبار .

قال الرأس الاول : تهت .

قال الرأس الثالث : ابحث عن الوجه الذي اكونه بعد ان يجلدني الخليفة بعصاه الذهبية .

قال الرأس الاول : لقد متنا .

قال

الرأس

الذي

هو الوجه

الجديد ،

الاطفال يغنون

والموت بداية التجدد .

الفجيعة . الندم . البدء .

اعلنت الابواق لحظات الندم والفداء . ضرب الاطفال هاماتهم بسيوف الخشب . اما الكبار فقد التمعت الصياقل على رؤوسهم وتخضبت اكفانهم بدموع الحسين ودماء الندم .

حسين : الابواق تصرخ كالثكالى .

حسين : الطبل يبكي ، ويستعذب ضرب العصا على جلدته الواهنة .

حسين : صخور الصحن المقدس تردد مع الناس المنذورين للموت والفجيعة ، حشرجات الروح .

تقدم رئيس الموكب الى ضريح الامام . آلاف الناس صامتة والسيف يجد لذة غريبة في الوقوع على الجرح النازف ورئيس الموكب يتقدم قويا الى حيث الضريح .

يخاطب عليا :

« انت ايها الشجاع ، تدع ابنك يموت وسط رمل الويلات بلا رمس ، تدوس الخيل صدره ، وتساق الحرائر الى حرم الطاغية .. ولقد وعدتنا بالرجل الشرقي القادم من جبال الشرق على جواد اصيل تتبعه جحافل المحاربين من كل جنس ولون . وما أتى الرجل الملتحي يا أميري !

اننا عاتبون عليك ! » .

واحسيناه !

يسيل الدم ،

تجأر حتى الحيطان .

آه ، ما أحلى لذة الحزن والندم .

يطلع الحسين من على منارة أبيه ، رجلا شرقي الملامح ، ملتح ، علم في يسراه وسيف في يمناه ، وخلفه مجاميع من الناس العراة يقبضون على السيوف بأيديهم واسنانهم ينتظرون شارة القائد الذي يبدو حزينا .

يرفع ذراعه ذات السيف الى الاعلى ويخاطب الناس . الا انهم كانوا منشغلين عنه بطقوس الندم والفجيعة . يرتد الى صحبه الذين بجواره ويقول لهم ان اعوام الصحو لم تأت بعد . ويستدير ... فتتبعه الفيالق .

يظل قوس الندم والفجيعة يدور حول الصحن .

مع الفجيعة الاولى عندما حملت الرؤوس الى الشام اصبح الناس ينتظرون فواجع اخرى ، ولم يكن الفرات هو النهر الوحيد الذي سمع

عطش الرؤوس . كان دجلة هو الاخر ينوح عندما مرت سفن العامل العباسي في مياهه تحمل رؤوس قادة الزنج الثلاثة .

– ملاحظة من المؤلف : اجد من المناسب الان الالتفات الى ان ما يطرحه « الصوت » قد اضجرني كثيرا :

الصوت : يفكر المؤلف الان بذلك المسلم الذي يدعي « ميثم التمار » ويود ان يشركه في هذه القصة . الا انني حاولت منعه فقد كنت اعي أن كتابته عنه قد تحرك في نفسه ميوله القديمة للانتحار .

ها قد اقبل المؤلف بعد ان كان يراقبني ويراقبكم .

– : انت اذن مرة اخرى ؟

الصوت : لا يهم . يجب ان تكف عن الكتابة ، وتكتفي بالتفرج فقط .

– : لماذا ؟

الصوت : الكتابة لا تفيد . عش الصمت والعزلة .

– : هذا اجتهادك . انني ابحث عن الحب والاستشهاد .

الصوت : انت تورط نفسك . تكتب عن الحسين بروح فوضوية !

– : انا الرجل الباحث عن ورقته الخاصة حسب . أنا حر .

الصوت : « ان تكون حرا يعني ان تنتحر »

ملاحظة للقراء الذين لم يضجروا حتى الان

قد تستغربون – عفوا أنا المؤلف – من شدة تعلق هذا « الصوت » بي . على أية حال ليس هذا ذنبي ، فهو يحبني للدرجة التي يظلمني فيها كثيرا . أنه يريدني عجينة قديمة تجاوزتها منذ زمن .

وبناء على هذا فلست مسؤولا عن سلوكه . لان الماضي ملغي عندي تماما .

يقرأ كلماتي فيلح عليّ لمخاطبتكم :

الصوت : لا . بدأ المؤلف يخرف حقا . او بمعنى اكثر علمية

ووضوحا انه الان يلعب لعبة غير امينة . فهو اولا جركم معه الى حديث طويل ـ يسميه قصة ـ هه ـ فأنساكم همومكم اليومية ، وهو ثانيا حقق شيئا ضدي اذ قتلني في نفسه نهائيا .

تستطيعون أن تسألوا : لم جزأ القصة كما ترون ؟ الا يستطيع أن يروي قصة مقتل الحسين (ع) كما رواها ابو مخنف رحمة الله ؟ هو يضحك مني الآن ، وأنا اعرف تماما لم يضحك ؟

دعونا نتصارح : هذا الكاتب مختل الذهن تقريبا ، وهو يريد من خلال جنونه أن يطرح الحسين كشهيد .

اوه .. هل صحيح أنه كتب عن الحسين فقط ؟

اني اشك !

اقرأوا القصة مرة اخرى ، ثم تساءلوا ماعلاقة الحسين بالزنج ورجل جوليفيا والرجل الآخر الملتحي الشرقي الذي لم يقدم بعد ..

ترى لماذا يتعب جمعة اللامي نفسه هكذا ؟

١٩٦٩

ديوس أكس ماشينا

جليل القيسي

في الحلم ، وفي اعماق الصحو تعلمت ان الانسان لايستطيع ان ينتبه بما فيه الكفاية • اما هذه المره فظهر على شكل علامة استفهام • تقدم مني ، ومن بعد امتار مده اليسرى التي تمطت مثل افعى سمراء ، والتفت اصابعه بقسوة حول عنقي الهزيل •

ووجدتني في اختلاء قاس مع الموت • ومن حيث كان يقف اطلق كلماته من بين شفتيه اللتين كانتا تشبهان أذنا فيل ضخم • سقط رأسي برفق على ظهر يده ، وتحركت اصابعه مثل أطراف الاخطبوط ، وارتطم بصري بساعة يده المربعة الشكل ، ورأيتها هي الاخرى تتمطى مثل قطة صغيرة • وعبثا حاولت ان اقطر في عيني الزمن • رقصت يد الساعة الصغيرة بهستيريه ، واستمرت الاصابع تضغط عنقي ، وكلمات الرجل مثل قطرات صغيرة من الرصاص المصهور تنصب الضباب رفيقا في اذني • ماتت يد الساعة الصغيرة على السابعة ، واستمرت اليد الاخرى تدور بقوة • اردتها ان تقف على رقم ما لاعرف الزمن • استمرت في الدوران • وبحقد ابكم مددت يدي لأمسك بها ، وجدتني الطم ظلام الغرفة الحيرى ، ثم اندفعت بوحشية لآخنق الرجل •

وكعادتي ، بقيت نهبا لحالة نفسية متوتره ، وحاولت ان استرجع كلمات الرجل الثقيلة ، اردت ان احرك يدي ، وجدتها لفرط تململهـــا نائمة على بطني في هدوء بطني في هدوء طفل • وتدفق فيها الدم برفق ، وشعرت كأنها تضحك معي وتدغدغني • نهضت • فتحت صنبور المـــاء وأزحت ستار النافذة ، ورأيت ضبابا كثيفا يغلق ساحة البيت ، كانت أبنة صاحبة البيت تذرع الممر خلف نافذتي بخطوات قصيرة مثل شبح ابيض • قلت في نفسي : وحتى في هذه الغرفة ؟ من يدري ، ربما ستعلمني هذه الغرفة معنى تلك الكلمات •

تأملت الضباب طويلا وهو ينزلق بكسل لذيذ على زجاج النافذه • نادرا ما يحل الضباب على هذه المدينة وبهذه الكثافة • وماعدا الأيام الاولى من شهر تشرين حيث يحل ضباب خفيف وشفاف يغلق مناطق معينة ، ويحول بناياتها الى مجموعة ديكورات لمسرحية حزينة ، يندر ان يرى الواحد ما يشبه الضباب • اما هذه الموجة الكثيفة ، فشيء نادر تركـت الستارة • كان خيط الماء في الصنبور رفيعا ومزعجا وبلون الضـــباب • غسلت العرق من وجهي • تسمرت امام المرآة • رفعت ذراعي اليمنى مرات عديدة وحركتها كمن يرسم اشكالا في الهواء • ذكرتني يـدي باليد ، وانصبت فجأة الكلمات الثقيلة في اذني • لم استطع التقاط كلمـة واحدة بوضوح • وكلما اكثرت من تحريك يدي ، ومن ثم ذراعـي تطرت تلك الكلمات مثل مفرقعات صغيرة في كل مكان في الغرفة •

فرحت كثيرا عندما رأيت وجهي قليل الأصفرار ، وملأني هـــذا الشعور بحيوية كثيرة كما يملأ الدم الجرح الجديد • تركت المـــرآة ، بعد ان نهشت وجهي فيها طويلا • خلف الباب رأيت التقويم يشير الى العاشر من آذار • منذ سنين وانا احتفل بهذا اليوم بشيء كثـير مـــن الرغبة ، والنواح ، والرجفة • انه يوم عيد ميلادي • غسلت وجهي من جديد ، وتأملت الغرفة وكل محتوياتها التافهة بدقة لأجد شيئا ولو بسيطا يؤجج في جوانب من هذه الذكرى • الأحتفال بهذا اليوم عادة سخيفـة غرستها في صديقتي التي هجرتها من فرط حبي اللا محدود لها • مازلت

اراها في الحلم . ان تلك المسكينة لم تستطع ان تجد لها مركزا مرموقا في بيتها . لم يبق في ذاكرتي منها سوى رسم مبهم ، لاني لا افكر فيها سوى مرة في السنة . اذ تقاطيعها تطفو في اعماق ذاكرتي وتحت ضباب مثل ذاك الذي يغلف المدينة . كثيرا مايخيل الى انني فقدت صورتها الحقيقية الى الأبد . عينان سوداوان كانتا تضيئان لي الكثير من الأمال . لم تكن حزينة مطلقا ، وكانت تخشى الفرح كثيرا . كانت لها قابلية تصل حد الشذوذ في تمالك نفسها ، فترسم على شفتيها ابتسامة حلوة تبدد الاضطراب . ربما كانت تعرف جيدا بأنني سأهجرها ذات يوم .

منذ السنة المنصرمه ، استأجرت اكثر من عشرين غرفة ، هي وذاك الصوت واحلامي الكثيره تطاردني .منذ سنة وانا اشبه شيء بمهاجر تتقيئني الغرف ، والبنايات ، والمقاهي . منذ سنة وانا اتعرف على اصدقاء جدد لأسبوع واحد ، ومن ثم الغرفة الجديدة هي التي تقرر صداقتي الجديدة .

سمعت صوت المرأة العجوز التى تسكن مع ابنتها لصف غرفتي . طرقت باب غرفتي بقوة ، وقالت :

ـ هل رأيت ؟

قلت . اتركي ماعون اللبن على الدرج . (تعلمت أكل اللبن كل صباح مع هذه العجوز) واجابت بفزع .

ـ الناس .. لقد ضاع الناس . يبدو ان مصيبة حلت بالمدينة .

الا تعتقد ان هذا نوع من البلاء .

اردت ان اضحك ، لكنني كنت مازلت تحت تخدير النوم ، والكلمات، وعيد ميلادي ، واشياء اخرى كانت تنبثق من الطبقات العتيقة لوعيي .

قالت من جديد . لقد ضاع الناس .

رددت لنفسي ، ضاع الناس ! لن يضيعوا ...

كان صوتها الفزع ثقيلا على اذني ،لذا رجوتها ان تكف عن الصراخ.
قالت بلهوجة .

ـ ارفع الستارة وانظر . هل رأيت ؟ لماذا لاترد ؟ هل ستذهب الى العمل ؟

انطفأ صوتها . اخرجت دفتر مذكراتي وسجلت بعجاله هذه الكلمات . (يوم جميل . سأحاول جهدي ان احتفل بعيد ميلادي في الشوارع . لن اذهب الى العمل ـ عيد ميلادي الثلاثين . اه ، او ليس أكثر من شقاء ان يتذكر الانسان انه كان سعيدا ذات يوم ، او اقلا ذات مرة . سنوات طويله وكل شيء غرق . سأحاول ان انهي جانبا من دائرة صمتي . جميل ان يكون الأنسان ممتلأ في الأزمات بتشاؤم مفعم بالنباله والوعي . سأتجول واترك نفسي للضباب) سقط القلم من بين اصابعي . ذهبت الى النافذة ، وازحت الستارة . كانت ابنة صاحبة البيت مستمرة في ذرع الممر . اقتربتْ من النافذه ، ووضعت انفها الأغطس الصغيره على الزجاج وابتسمت .

كانت والدتها تحلب بقرتها التى كانت تطلق خوارا مزعجا . قلت في نفسي : ربما تشكو من الم حاد في ضرعها . اشرتُ للفتاة ان تذهب. اختلط صوتها بخوار البقرة ورأيت وجها مصبوغا بالجنس . سحقت نهديها على زجاج النافذة ، وابتسمت ، ثم حركت لسانها وكأنها تقول : ان سجن الداخل لن يتركنا . تركت الستارة . عبثت نفسي في ملابسي ، وتصنعت فرحا ، ورددت بآلة هذه الكلمات التي لا اعرف كيف ولماذا جاءت على لساني : ديوس اكس ماشينا ...

أصابني دوار خفيف بعد ترديدها.. استندت الى الجدار، ووجدتني امام المرآة ووجهي يتأملني بسخرية ، وفمي يردد : ديوس اكس ماشينا . أشك أن تكون كلمات لأغنية ، أو عنوانا لكتاب ، أو لقصيدة ، أو ماذا ؟ اهي كلمات الرجل الذي اراد ان يخنقني ؟ لن افكر في شيء. سأحاول انسى كل شيء هذا اليوم .

فتحت الباب . رأيت جيشا من الذباب على ماعون اللبن تنهشـــن في القشرة الصفراء . قلت وانا ارفع الماعون – انها اكثر جميع الحشـــرات صلافة وقذارة وكأنها تصنع من الهواء . طردتها . عادت بميكانيكيـــة مضحكة . عبثت معها ، واستمعت الى طنين اجنحتها ، واخيرا غرست رؤوس اصابعي بالماعون ورفعت كمية من اللبن . التصقت واحده على رأس اصبعي دفعتها بسرعة الى فمي . مصصت اصابعي بلذة ، وتركت بقية الذباب تحتفل بعيد ميلادي على ماعون اللبن .

عند الباب الخارجي ، جاءني صوت العجوز الفزع : لايخرج سوى المجنون في مثل هذا النهار .

وبعد لحظات صوت ابنتها المضطرب بالشهوه – ارجوك .. ارجع .

كان الضباب كثيفا وكنت أسير في طياته وهو يتحطم مثل فسيفساء اصطناعية الى الف قطعة . كنت اسير مثل الأعمى . اصطـــدمت بشيء لحمي . لطمت كلمة عفوا اذني . التفت يمنة ويسرة – لم ار ســـوى شبحاً يزفر . ضحكت وسرت . فكرت ان اجرب التجوال في سوق (ق):

سأعيش يوما جميلا ، وحافلا واصوم عن رؤوية الوجوه اقلا لنهار كامل . مع حبي العميق للوجوه ، هزتني فكرة الصوم عن عدم رؤويتها حتى الصرع . ان الأكتفاء بمجرد مراقبة الأشـــباح ، والأستماع الى كلمات غريبة تتساقط على جدار الضباب تثير ضربا من السكر الموحل . وانتابني وانا اسير بخطوات واسعة فرح طفولي حتى درجة الأنخطاف . قلت في نفسي : سأعرف الكثير عن اوهامي التى لست ادري اهي التـى تلبسني ام انا الذي البسها .

كان الشارع خاليا ، او هكذا بدالي جراء ستار الضباب الكثيف . وبكر الدقائق وجدت النسوة مسريلات بعباءات بلون البلور . ورغـــم الأضواء التي كانت تبدو كابية خلف الضباب ، كانت المواد المعروضة للبيع تعكس الوانا حزينة . كانت النساء يسألن عن دكان الجزار فلان ، او بائع الخضار ، ويثرثرن حول لون البرتقال ، او فخذ بقره .

هنا فقط كان بوسع الأنسان ان يسير عاريا وبثقة وهـو يستمع الى كلمات تتناثر مثل الرذاذ هنا وهناك وسط هذا الدخان الجميل . قالت امرأة : انها الأخرة ـ وقالت اخرى . هذا ليس ضبابا وانما مصيبة . وزعقت ثالثة . هذه علائم الأخرة .

كنتُ اضحك ، واردد لنفسي : ان السعادة مستحيلة امام زنزانات المجانين ... كان الرجال يتكلمون بعصبية ويثيرون ضوضاء يفسد الضباب . كان كل واحد منهم خلف جدار الضباب ، وفي السوق ، بل في المدينة يتمرغ في اوهامه وعذاباته . كان البعض يبحث عن الوجوه بلجاجه وكأنهم ضاعوا الى الأبد . صرخ جزار فجأة .

ـ تعالوا هنا .. اني الجزار فلان .. انظروا الى جثة البقرة . انها بقرة كاملة . ان ذبح الأبقار والأغنام لن يتوقف في السوق .

اسمعوا ضربات سكيني .

تقززت من ضربات السكين على اللحم النيىء في هـذا الصبـاح البلوري .

استمر الجزار في تفتيت اللحم بقوة . صرخت عليه .

ـ وهل يجب ان تطعن في هذا الصباح .

ـ طبعا . الا تريد ان تأكل ؟

ـ نصوم ليوم واحد . الايمكن الصوم ليوم واحد عن الأكـل والوجوه .

ورددت لنفسي مغمغما . ديوس اكس ماشينا .

ترنحت قليلا بعد ترديدي لهذه الكلمات وكأن يدا وهمية هزتني بقوة ، ووجدتني امام الجزار وهو يفتت قطعة صغيرةمن العظم على وجهي. صرخ بقوه في الضباب .

ـ انظروا الى هذا اللحم ..

اعطيته ظهري ، وسرتُ الى وسط الشارع ، واطلقت من جديد : ديوس اكس ماشينا .

هذه المره اطلقت الكلمات بجرس مغاير • بأمتداد الشارع رحت ابحث عن معنى الكلمات الثلاث • اصطدمت بي امرأة ، وشعرت بشيء بارد ينساب على وجهي ، وذاق لساني طعما حلوا • قالت امرأة بصوت خائف •

- رباه ماذا فعلت ؟ اوف يبدو انني قلبت ماعون اللبن على وجه هذا الرجل • هل حقا ضروري ان تأكل في مثل هذا اليوم • الا نعرف كيف نصوم يوم واحد •

طربت لكلماتها - لم امسح اللبن من وجهي - وفكرت في مشكلة الأكل الذي هو المحور الأساسي لكل الدوران البشري • ارادت المرأة ان تتحرك • عبثت معها اوقفتها • ضحكت بتألم • ارتحت لها لأنها فكرت في الصوم • غمغمت بسخرية وسارت • لاشك انها كانت اطول مني ، والا لما استطاعت ان تقلب ماعون اللبن على رأسي • اصطدم بي بعد قليل رجل ، ومد يده ليعتذر • تراجعت الى الخلف ، وترصدت اصابعه الطويلة اليابسة وهي تتحرك باحثه عن وجهي • ذكرتني الأصابع وهي تتحرك داخل الضباب باليد - رددت بآلية لكن بقوة - ديوس اكس ماشينا • خمشت الأصابع وجه رجل وصل لصقي لتوه • صرخ الرجل ، وامتلأ المكان بكلمات اعتذار • تنحيت ، وسرت • طرق سمعي وقع سكين على شيء جاف • من جديد وجدتني امام دكان جزار آخر يفتت بقايا لحم على خشب اسطواني • وقف لصقي تماما رجل قصير • قربت وجهه منه - كان وجهه الشحمي الحليق يشبه فخذ بقرة معلقة • اثارتني حركاته المائعه ، ولغته - كان من اولئك البرجوازيين الذين كثيرا ما يساومون لمجرد المساومة - قال •

- من هذه القطعة اعطني ثلاث كيلوات • لا استطيع ان ارفع صوتي ••

رن صوته في اذني طويلا • وبعد قليل قال •

- عزيزى قلت من هذه القطعة •

قلت لاشعوريا مع نفسي : كلب ..

وحدقت فيه طويلا . اندفع في هذه الأثناء جزار شاب ، وبصعوبة علق جثة خروف على عارضة خشبية وراح يمرر اصابعه المعطاة بالدم على اللحم البارد مرددا بصوت عال .

ـ آه ، لو فقط رأيتم هذه النعمه ..

اقتربت من جثة الخروف ـ تأملت البطن الفارغ من الأحشاء . تكلم الرجل القصير مع الجزار طويلا . اثارني جرس صوته ، وانطلقت بآليه ديوس اكس ماشينا من بين شفتي ، وغزتني برودة ثلجية في صدري ، وامتدت ذراعي بقوة وحشية الى بطن الخروف الفارغ وراحت اصابعي تنهش في اللحم داخل الفوهة . سحبني الجزار بقوة . سقطت الجثة على الأرض ، ولدهشتي وجدت رأسي مغروسا في البطن والجزار يسحبني مرددا : ربما انه لايرى .. يالهذا الضباب ..

وقفت ، وتماسكت ـ انصرف الرجل القصير ـ تبعته بدقه . وقف امام دكان جزار آخر ، وابتاع ثلاث كيلوات ـ قلت في نفسي : مامعنى ان يشتري اللحم من عدة جزارين ؟ واثارني جرس صوته من جديد . قررت ان ارى وجهه بوضوح . انصرف . تبعته . حط عدد كبير من الذباب على وجهي . لحظتئذ عرفت ان وجهي تدبق من اللبن ، ودم الخروف المتخثر . سحقت عددا من الذباب على وجهي ، نسيت الضباب ، والماره ، والتجوال . ناديت على الرجل . سيد لحظة رجاء . لم يرد على صرخت بقوة . توقف عن السير . وصلت لصقه ، وقلت دون ارى وجهه بوضوح .

ـ اى شيء آخر ستشتري ؟

لاشك جفل ، وارتعب لحد الموت . من يدري ؟ الضباب وحده يعرف كيف كان شكله اذ ذاك . اجابني بصوت مخنوق .

ـ وما دخلك ؟

قلت في نفسي : حقا مادخلي . لكن جرس صوته ، وهذا السلوك

الحقير في استبضاع الأشياء ـ آه ، ربما مجرد التباس ايها الغبي ..

قربت وجهي منه حتى لامس أنفي أنفه ، فرأيت ملامحه تشبه ذاك الذي كنت اريد خنقه . قلت :

ـ اريد ان اعرف اى شيىء آخر ستشتري !

اجابني كمن يفيق من غيبوبة طويلة ـ اشتري .. لا اشتري . سأشتري . اشتريت .

توقف عن الهذيان ، واطلق على اكثر تقدير يدافع من خوف شديد ضحكة بليدة . بحثت عن عينيه . كانتا تلمعان بخوف لامعقول . وضعت يدي على وجهه المكتنز ، وجعلت امره عليه . بدأ يرتجف .

وقال بأختناق : اشتري الشيىء الذي يعجبني . ماذا تريد ؟

قلت ـ هل تحب اللحم ؟

ـ أعبده

ـ لماذا ؟

ـ هكذا تعودت .

ـ هل تعيش مثل رجال الكهوف ؟

ـ ماذا تقصد ؟

ـ اعني تفكر قليلا ، بل ربما لاتفكر ، وتلتهم احسن الأطعمة .

ـ هذه محاكمة لطيفة . ارجوك اتركني .

تركته . سار بخطوات واسعة . بعد لحظات راح يقفز مثل ارنب مذعور . تبعته . دخل زقاقا ضيقا . وفي وسط الزقاق المظلم ظلمة طبيعية ، وفي دخان الضباب الكثيف مسكت من سترته ، وسقته الى جدار طيني . فقد تماسكه نهائيا ، واخذ يطلق اصواتا مثل وصوصة الفأر .

قلت : لماذا تطاردني .

ـ انا .. انت الذي يطاردني .

ـ هذه الليله اردت ان تخنقني .

مات صوته . مسكت من شعره ، ورحت اضرب رأسه بقوة على

الجدار مرات عديدة حتى سقط على الأرض ومات • افرغت اللحم على الأرض والقيت الكيس بعيدا •• بعد قليل وبتأني فرشت اللحم على وجهه مثل بطانية صغيره • تجولت في السوق كثيرا • كـــان الضباب مازال كثيفا ، وثمة جمهور قلق يملأ الطريق ، ويصطدم بالأشياء •

جلست في مقهى واحتسيت ثلاثة اكواب شاى مر • وفكرت ان اذهب الى غرفتي لأحتفل بعيد ميلادي لوحدي • في الشارع ، رحت اتدافع ، وادور ، واصطدم ، وافلت من شارع الى آخر • دخلت في عدة بنايات من تلك التى عشت فيها سهوا وزجرت من قبل ساكنيها • في منتصف النهار ، خفت كثافة الضباب ، وصار بالأمكان رؤوية الوجوه •

تجولت لنصف ساعة اخرى • في الطريق رأيت العجوز • قالـت بفرح •

ـ واخيرا ذهب الشر •

دخلت غرفتي ـ كان وجهي طبيعيا ، او هكذا اخبرتني المـرآة • قلت بصوت عال ـ ديوس اكس ماشينا ••• ذهبت الى الســـرير ، ولدهشتي الفتاة عارية تحت اللحاف تحدق في بأستجداء • سقطت على السرير • احتضنتني بقوة • اشتاق أنفي رائحة نهدها وابطها المعروق • وبكر الدقائق سطحت نهدها على وجهي • التهبتُ • التهبتُ • ذكرني لحم نهدها باللحم الذي فرشته على وجه الرجل الميت في الزقاق • وقبل ان يأخذني افيون الشهوه بعيدا ، فكرت طويلا بعمنى ديوس اكســـس ماشينا • وفي ذروة شرودي ، وبينما يدي تعجن بطن الفتاة ، عرفـــت انها كلمات لاتينيه تعني (الاله الذي يسير على الآلة) •

جليل القيسي

الملجأ

سركون بولص

حين بلغت الجسر ، نزلت عن دراجتي وأنحدرت في سيري على حافة الأرض العالية وأنا أحمل الدراجة في ذراعي حتى أستقرت قدمي على حديد السكة . وعدت فأمتطيت دراجتي ، ثم أنطلقت بها محاذيا للسكة التي لا نهاية لها ، بأن يتبني ظل طويل جدا يشتبك في أسفله بظل الدراجة ، وكان أسود اللون يمتد على الأرض المتربة كحيوان خرافي . كنت قد قررت نهائيا . وكانت عبارة قديمة لاناتول فرانس لاتزال تلازمني : « الحياة ثلاثة أشياء : ولادة ، ألم ، موت » كنت لا أريد الا ان أطفر فوق الشي الثاني الذي يقف بين الولادة والموت .

مررت بطاحونة مهجورة تحيط بها بركة من مياه المطر ، كانت فيها جموع كثيفة من ضفادع خضراء تنق للفضاء الخالي من البشر ببرود . كنت أعلم جيداً انه ما من أحد هناك يرتاد هذه المناطق الا فيما ندر . أستغرقت نصف ساعة حتى بلغت المكان .

وكان مقلعا حجريا قديما يبدو ان العمال اشتغلوا فيه مدة من الزمن

ثم هجروه • وارتقيت ، وقد أمسكت بدراجتي ثانية حافة الأرض الشبيهة بتل خفيض • لم يكن بالقرب من المكان غير محطة صغيرة تضخ ، منها المياه الى القرى المجاورة •

كان في داخلي شيء مريض بشع يدفعني الى الاجهاز بكل سهولة على أية فكرة تتعلق بالعودة • كنت بعيدا عن المدينة بمسافة ساعة ، وكان هذا كافيا • أخرجت الحديدة الصغيرة التي اخترتها من بين الأدوات الأخرى التي تضمها الحقيبة الجلدية المربوطة خلف سرج الدراجة ، ولم أخلع سترتي • كنت أريد الاحتفاظ بثيابي كاملة • ونظرت الى عمل ثلاثة أسابيع •

كان ملجأ صغيرا جدا يسع شخصا واحدا فقط • وقد بنيته بأن كومت الصخور صخرة فوق أخرى ، ملائما بينها ، دون ان يصلها بعضها البعض شيء • ثلاثة جدران • وتكفي دفعة تافهة من قدم كلب لينهار كل شيء • ولن تنهار الجدران وحدها • انما سيتدفق فوقها شلال صلب من الصخور التي تعلو الجدران مباشرة ، مكومة فوق بعضها (وكنت أخمن انها قد قطعت وكومت من قبل العمال ثم أهملوها لسبب ما) • واليوم كانت اللمسة الاخيرة تنتظر أن توضع في مكانها • ودخلت بحذر ثم وضعت الحديدة بين صخرتين ، وكان عملها شبيهاً بعمل مفتاح مدمر • فهي ان حركت نحو الأسفل ، وذلك بالضغط عليها ، تخرج الصخرة التي فوقها من مكانها ، ويختل كل شيء فتنهار الكومة التى في الأعلى كعالم مخبول يسقط •

والتقطت بقايا الفاكهة التي كنت أكلها في الملجأ وأنا أشتغل في الأيام الماضية ، وعظام السمكة التي أكلتها هناك أيضا ، طيلة ساعات قضيتها في استخراج العظام الأبرية من داخل اللحم الأبيض • وقد نجحت بذلك في قتل يوم كامل خال من الضجر • وحملت هذه الأشياء بيدى الاثنتين واذ أردت أن القي بها خارجا ، رأيت رجلا طويلا يملأ المدخل بجسمه وينحني برأسه الى الداخل • حاذرت ان أتحرك داخل الملجأ ، وقلت للرجل : ـ « ماذا تريد ؟ »

كان يراقبني بحذر . وفجأة قال :

ـ ماذا « تفعل هنا ياولدي ؟ »

فلم أجبه ، وخرجت اليه ببطء . طرحت رؤوس الفاكهة وبقايا السمكة المتيبسة من يدي . وقلت له بهدوء :

ـ « لاشيء ، انني أتسلى »

ـ « في هذا المكان ؟ » وأشار برأسه : « وهل بنيت كل هذا للتسلية؟»

كان يبتسم متأملا . وحاول أن يلمس الجدار ، فصرخت به :

ـ « حذار ! »

قال متسائلا : ـ « لماذا ؟ »

فأبعدته قليلا وأنا أقول : ـ « سيسقط فهو ضعيف البناء . مجرد أحجار ، كما ترى . ولكن من أنت ؟ »

فقال وعيناه تشردان بعيدا عني :

ـ « انني حارس محطة المياه . هي قريبة ، تستطيع أن تراها من هنا » .

قلت بفظاظة : ـ « ولكن ما الذي تفعله هنا ؟ انك بعيد جدا عن محطتك . أليس كذلك ؟ »

كان جلده جاف الملمس ، خشنا . وكان له شارب كثيف . خمنت انه في الأربعين ، ولكن يشماغه الباهت اللون لم يكن يسمح لي برؤية شعره . واذ كنت أنظر اليه ، خيل الي أحلاما غريبة وحشية تمر أمام عيني المفتوحتين .

دخل الملجأ ، فتركته يفعل ذلك ، وكان يحني جسمه الطويل وأطرافه الحيوانية بحذر لئلا يمس الجدار أو السقف ، الذي كان عبارة عن قطعة كبيرة من الصفيح مثقلة بصخور عرضة للانهيار في أية لحظة . قال بصوت عال : ـ « ان عشك دافيء جدا وجميل » .

وغشت عينيه سعادة طاغية ، فبدأت أرتجف ، كان منظره غريبا وهو

في نهاية الكهف الذي كان نور الشمس الشاحب يتخلل الفجوات التي بين صخوره ويسقط ميتاً على ظهر الرجل .

وقال فجأة دون أن ينظر الي : « لماذا بنيته ؟ » .

فقلت بغضب :« لأموت فيه » .

رفع عينيه الي كانتا فارغتين . وبدأ يضحك ضحكة سعيدة طويلة .. ثم قال لي بخشونة مفاجئة :

ـ « يابني ، عد الى مدينتك » .

فقلت بهدوء : « أن هذا مكان مشاع . برية . ثم انك حارس محطة للمياه ، ولا علاقة لك بهذا المكان قط » .

قال بلجهة أبوية : ـ « اخبرني لماذا تريد أن تموت ، وسأخذ على عاتقي تنفيذ رغبتك صدقني ياولدي . وان شئت ، وضعت نفسي في مكانك . ماذا تقول ؟ »

استمر ينظر الي ، محاولا أن يجعل عينيه تلتقيان بعيني . ثم قال وهو يشعل سيكارة ويتنهد فيزفر موجة من دخان التبغ : ـ « ان أنا شئت ، ذهبت . ولكن يعجبني أن أجلس هنا بعض الوقت » .

شعرت بغضب عنيف ، وحاولت عبثاً ان اهدىء نفسي . كان الحارس الطويل هادئا في مكانه ، يدخن بصمت . وبدا لي انه مخلوق دنيء فقد كان في مشاكسته لي شيء أعمى ، كالطرب السادي المستمد من مصيبة فاجعة حلت بانسان أخر . وقال :

ـ « كنت تأكل كما لاحظت ، فهل تأتي ا لىهنا لتأكل ؟ ان ذلك العراء « واشار بيده » جميل ، وهذا الفصل هو الربيع كما أظن » . وانتظر .

ـ « ألا تكلمني ؟ كما تشاء ، ولكن لماذا ترفض ان تخبرني بسبب مجيئك الى هنا ؟ »

قلت وأنا ابتسم له معترفا : « جئت لأنتحر » .

ظلت يده معلقة في الهواء ، كانت يداً قوية ، يداً متسلخة الجلد

لرجل عمل طيلة حياته كحيوان ، رجل خبر الألم جيدا • وحدقت في عينيه بامعان ، واقتربت من فوهة الكهف وأنا ألهث ، ثم مددت يـدي وأهويت بها في عنف على الحديدة الصغيرة رأيت عينيه للمرة الأخيرة وأنا أنسل الى الخلف بسرعة ، ثم هبط جانب من السقف على كتفه ، وحاول مذعورا أن يندفع ناحية المدخل ولكن الجدران انخسفت عليه ، ثـم بدأت دمدمة غامضة تصدر من كومة الصخور التي في الأعلى • كان انهيار كبير يتدفق من الأعلى ويستقر على الكومة التي بدأت تكبر أمامي ، وتحتها الحارس • امتلأت بدفقة باردة من الكآبة ، كأنني نزفت كميـة كبيرة من الدم • ورأيت في النور القليل الذي ينحدر من الشمـس الميتة ، بقعة صغيرة من رأسه • كان شعره أبيض •

ومددت يدي فأنهضت بها الدراجة ، وابتعدت قليلا ثم نظرت الى الوراء للمرة الاخيرة • كانت يد مخضبة تتحسس طريقها ببطء من بين الصخور التي كفت عن الحركة ، وظهرت بارزة في الهواء كيد مسيـح ساقط • وفكرت : لقد كان يريد أن يحل مكاني ، وان كان يمزح • وامتطيت دراجتي ورحت أدفعها على مهل بحذاء الخط الحديدي الذي لانهاية لامتداده ، وظللت أحدق أمامي وقد لفت العالم غشاوة باردة دامية ، مندفعا تحت الشمس التي تنهار ببطء في طريقي الطـويـل نحو المدينة •

الطير الأسود الصغير

محمد كامل عارف

لم تورق الاشجار بعد ، ولكن خضرة خفيفة تشع من صف الاشجار الطويل في الاسفل • كان العراقي يتطلع من نافذة غرفته ويفكر بأنهـا ستورق كلها في أقل من أسبوعين • لقد كان الشيء نفسه يحـدث في أية مدينة عاش فيها في اوربا • وكان هو يدهش دائما للسرعة التي تخضر بها الاشجار • ما ان يرفع المرء رأسه ، حتى يجد الاشجار قـد أزدحمت بالبراعم ، وبدأت تورق •• ويحل فصل جديد اخر•• وتتوالى الفصول : وارشو •• وفينا •• براغ •• برلين •• الاشجار تبرعـم وتورق وتيبس ، لتعود تورق من جديد •

وتذكر العراقي ، كيف انه فوجيء مرة في فينا ، وهو يغادر الحانة مع الفجر ، بالاشجار مخضرة على طول الرصيف • لقد فكر وقتها بأنه سيتحطم قريبا • وظن ان ذلك سيحدث ، كما ينقطع حبل متوتر مـرة واحدة • كان يتطلع الى الاشجار ويردد بلذة : سأتحطم •• سأتحطم •• ولكنه يعرف الاونة انه لن يقع له هذا الحدث الفذ • لن يسمع صوت

حبل ، ينقطع مرة واحدة . وانما سيتهرأ الحبل ، سيتفكك بين اونة واخرى .. تك .. تك .. تك .. : والاشجار تبرعم وتورق وتيبس ، لتعود تورق من جديد .

وانتبه الى ان الفتاة اخذت تدندن بالغناء : اوه كارول .. اوه كارول .. انني حمقاء جدا .. قل ان كنت تحبني .. كارول .. اوه كارول .

واخذ السرير يطقطق . وسألته الفتاة : ـ أهي سخيفة ؟

لم يجبها . كان قد رأى طيرا اسود صغيرا يرنق بجناحيه فوق سطح البيت المقابل . طقطق السرير مرة أخرى ، واقتربت منه . لفت ذراعها حول كتفه ، وشم رائحة جسدها الحارة .. بف ! لم لاتذهب وتغتسل ؟ واخذ الطير الاسود الصغير يرفرف بجناحيه محوما حول مدخنة البيت المقابل . قالت الفتاة : ـ ستغني انت ؟

ـ ماذا ؟!

ـ ستغني انت أغنية عن بغداد ؟

قال العراقي : لا اعرف .

كان الطير الاسود قد غادر المدخنة . ثم عاد مرة اخرى يحوم حولها . وتجاوزها بعيدا ، مرفرفا بجناحيه ، وهو يرتفع وينخفض في طيرانه . فكر العراقي ، بأن الطير الاسود الصغير لا يقصد المدخنة بالذات .

قالت الفتاة : ـ اعطني سيجارة اذن .

ـ هناك على المنضدة .

واختفى الطير الاسود . انخفض وراء السطوح القرميدية ذات المداخن واختفى . قال العراقي لنفسه : انه لايقصد مكانا معينا . الطير الاسود الصغير لايقصد اي مكان . انه يطير فوق مداخن المدن ، فوق سطوحها القرميدية ، يرفرف بجناحيه ، وحيدا . ولكنه لايقصد مكانا بالذات .

وفكر العراقي ، انه ربما يكون نفس الطير الاسود الصغير الذي

وجده طافيا على الماء عند شاطئ بحر البلطيق في بولندا . كان مبلل الريش ، متعبا . وكان جلده الاحمر محترقا بماء البحر والشمس . وضعه داخل قميصه ، واخذه معه الى المخيم . كان الطير الاسود لاينفك يطل برأسه الصغير الاقرع من فتحة قميصه ، ويحدق بالفتيات البولنديات المستلقيات على الرمل . ولم يعرف احد نوع هذا الطير .. ضحكت البولنديات عليه ، وبقي الطير يتلفت برأسه ويطرف بعينيه المستديرتين ، محدقا بهن . قال لهم العراقي ، انه نوع من الدجاج البري . ووضعه فوق فراشه في المخيم ، وقدم له الخبز والماء . ولكن الطير لم يشأ ان يأكل ، ظل يتلفت برأسه ويحدق بالفتيات الملتفات حوله . قال العراقي للطير حسنا ! اذا كنت تخجل ان تتناول طعامك امامنا فسنتركك لوحدك . وعندما عاد الى المخيم في المساء لم يكن الطير الاسود الصغير هناك . كان قد ترك فضلاته على السرير وغادر المكان : ان الطيور السوداء الصغيرة لاتكف عن الطيران ، وهي وحيدة ومسرورة وخبيثة .

واخذت الفتاة الان تزعق وراء ظهره . التفت اليها : ـ ماذا ؟

ـ انني اسألك ، هل هذه الصورة على الحائط هي الثور المجنح ؟

ـ اجل . انه الثور المجنح .

وعاد يحدق عبر النافذة . قالت الفتاة :

ـ في بلاد مابين النهرين ولدت اولى الحضارات في العالم .

فكر العراقي ، بانها لابد قد قد قرأت ذلك في المدرسة .

قالت الفتاة :

ـ وفي بغداد انشئت في القرن الحادي عشر او الجامعات .

سألها : اين قرأت ذلك ؟

اقتربت منه ، واتكأت على النافذة بجانبه . انتبه الى انها قد ارتدت ثيابها وغيرت لون الاحمر على شفتيها .

سأل مرة اخرى : ـ اين قرأت ذلك ؟

قالت : ـ في احد الكتب .

قال : ها .. اجل .

والتفت برأسه نحو النافذة . سألته الفتاة : اين تقع بغداد الان ؟

ـ في العراق . انها تقع دائما في العراق .

مالت بجسدها عليه وقالت : لا . اعني في أي اتجاه تقع ؟

قال هه ! لا أدري .

ـ هناك ؟

ـ لا اعرف .

قالت ربما هناك . باتجاه البيوت الخشبية ؟

نفض ذراعها عنه وقال : لا أعرف . لا أعرف

ـ كيف لاتعرف ؟!

ـ لا اعرف . انها تقع في جهة ما على أية حال .

اخذت يدا الفتاة تهتزان فوق حافة النافذة . وسمع صوت ضحكها المكتوم . ابتعدت عن النافذة ، والتفت وراء ظهره واخذت تضحك بصوت عال . والصقت وجهها بظهره ، وهي تهتز من الضحك .

التفت اليها : ـ لماذا تضحكين ؟!

واخذت تضرب الارض بكعب حذائها وتضحك : أوه .. أوه . انه لايعرف ! لايعرف اين تقع بغداد ! هيء .. هيء .. هيء .

وارتمت على السرير وساقاها تهتزان فوق الارض .

قال لها : ـ حسنا ! انا لا اعرف . ثم ماذا ؟

ـ أوه .. أوه .. أوه .. أوه .

ووضعت كفها على انفها ، وهي تهتز فوق السرير ، وقدماها تتخبطان على الارض .

اقترب من السرير ، وانحنى فوقها . قال لها :

ـ اسمعي . أنا لا اعرف . أنا لا اعرف اي شيء . هل تسمعينني ؟ ها ؟ أنا لا أعرف اي شيء مطلقا . مطلقا . هل يضحكك هذا ! هيا .

سكنت قدماها فوق الارض • وكفت عن الضحك • لوحت بكفها امام وجهه ، وقامت عن السرير • اتجهت نحو المنضدة ، حركت كرسيا بجانبها وقعدت • وتناولت من فوق المنضدة تفاحة ، قرضتها بفمها ، وقالت: لنذهب الى المقهى اذن •

لم يجب العراقي • عاد الى النافذة ، اتكأ على حافتها واخذ يتطلع عبر الزجاج ويسمع صوت الفتاة وهي تقرض التفاحة بأسنانها •

لينينغراد •

لينينغراد — محمد كامل عارف

حكايتان عن المدينة " ن "

موفق خضر

انا موطن من المدينة (ن) ذات الشوارع المتآكلة ، المترعة بالالوان والوحل • احمل في رأسي المحموم مشروع عمل • القيام برحلة لعينة الى الداخل • أنحت كلمات للعالم المهووس ، وابحث عن الاكتمال النهائي لقصيدة نثر يرين ثقلها المدوخ فوق جسدي المنهك كله ، ساعيا خلال تجوالي المأفون فوق الارصفة الرمادية الى مسك القصيدة كمخلوق من طرفها الاول لتتوحد الكلمات من بعد نسيجا من نزيف البحث والضياع •

تتقاذفني المقاهي المسائية الكئيبة ، ارتادها غارقا بلذة درويشية في دوامة الضجيج ••• صوت المذياع والتلفزيون والصور المتتالية دون انقطاع وحركة المارة المنتظمة كشيء غير قابل للتطويع والتبديل •• غالباً ماتستبد بي حركة العالم في الدوامة الهائلة فاستحيل فيها الى رقم يتقافز ضمن الارقام ، وتنتابني الكآبات كمرض ملازم ، واظل افكر بصور الاطفال في البراءة التي تتأبى على الموت •• اطفال سونغ ماي وأطفال المخيمات اصدقاء الرياح والمطر والجوع واطفال بحر البقر الذين

كانوا يحملون قراطيسهم في الصباح الجهنمي ، وسيقان المني جوب في اللامبالاة الاخاذة التي تشكل ركنا هاما في سلوك المواطنات المتحضرات التي المدينة « ن » .. الناس هنا يتحركون بقدر مرسوم سلفا .. الالوان الفاقعة أستوردوها مجانا ولطخوا بها الاوجه والعمارات والسيارات وكل شيء ، استمالت الالوان قوانين ثابتة مادامت تستورد من مكائن العالم الدوارة حيث تصنع اسلحة الحرب مع دهان الوجه واحمر الشفاه والمساحيق الاخرى التي تحيل الجلد الى قطعة ناعمة .

وانا هنا في المدينة « ن » ابحث عني .. عن وجهي .. لا اجدني هنا ولا في اية زاوية من المدينة . لا ادري اين تستقر « الانا » التي تخصني ، غير انابواب المدينة « ن » تواجهني دوما .. ابحث عني . ؟ هذا كذب مدسوس وحقير ، فانا ابحث عن الصورة الاخرى ، ابحث عن امرأة اسمها « منال » لم اجدها في أي مكان محدد بالذات ، غير ان صوتها يأتيني مهدهداً بدفئه عروقي المتيبسة في الجسد المنصوص . . انا رجل مواطن في المدينة « ن » املك قضية واحدة هي مبرر وجودي الوحيد ، تأريخي وعلامتي الفارقة وسط ألوف العلامات ووسط احتشاد الوجوه المصبوغة بالدهان .. « ومنال » امرأة لم أرها ابداً .. فقط أسمع صوتها المهدهد في ساعة من ساعات النهار .. بعدها أعيش طافيا فوق سحابات الدخان والضجيج والمقاهي والحركات المسيّرة بفعل قوانين لاتقبل التبديل ومن خلال ذلك يترشح الفرح كالتيم .

وبدء الحكاية أنني - أنا المواطن الذى يسافر الى الداخل ليحقق مشاريع لقصائد النثر - في أحد الايام كنت أقوم بعمل لايمت الى هواياتي بصلة . اذ كنت أتصل برجل مجهول لاأعرفه مطلقا ولم يخطر ببالى اننى سأدير قرص التلفون لاتحدث معه حول موضوع مكرس لقضية خطيرة .. كانت لعبة فرضتها حالة من حالات الافل والدوران والسأم . غير انني عندما أدرت الرقم فعلا وأنتظرت بضع ثواني جاءني بغتة صوت امرأة ..

- « من تكون ؟ »
- « كنت أطلب أنسانا لاأعرفه . »
- « ولكن لايوجد هنا أحد .. »
- « أعرف ذلك . »
- « وماذا تريد مني ؟ »
- « دعيني أكن صفيقا .. أريدك أنت . »
- « أنك لاتعرفني . »
- « أعرف ذلك . »
- « هل أنت وحدك ؟ »
- « انني أعيش الوحدة كمسألة مفروغ منها . »
- « أتصل بي في وقت اخر .. هل حفظت الرقم ؟ »

حفظت الرقم ، وكأنه رقم هويتي الخاصة . غير انني لحد الان لم أزاول مهنة المرور الى المداخل الاخرى للمدينة ومعى الهوية . أنا رجل مواطن مفتوح من جهات متعددة تتناوشني التخوم البعيدة سالخة جسدي قطعة قطعة .

وفي الايام الاخرى ظللت أدير الرقم ليأتيني صوت المرأة التي أسمها « منال » يهدهدني الصوت الدفيء في لحظات اللعنة المثالة علي أبداً .

- « أنت مرة أخرى ؟ »
- « أجل . بدأت أقتات على المخاطبة معك . »
- « وأنا كذلك .
- هل تعيشين وحدك ؟
- أنا أعيش الوحدة كقضية مفروضة علي .
- لماذا تكون الصدفة عاملا للتغيير ؟
- فعلا . لقد تغيرت أنا كذلك . بدأت أنتظر لحظة المخاطبة معك .
- هل أنت مواطنة موجودة في المدينة «ن» ؟

ـ في طرف مضيع منها . أنت تتصل بي منها . أليس كذلك ؟

ـ لا أدري .. ولكن ليتني ألتقي بك .

وفجأة لا يعود صوتها صافيا متخما بالدفء الذى أفتقده في الساعات الاخرى بل يأتي الي منهوبا بفعل التفكير والاندهال .. المرأة تفكر .. المرأة تعود مخلوقة مرمية في زاوية مهملة من المدينة «ن» مسلوبة من الحركة والأختيار .

وفي الايام الاخرى ، بدأت أنتظر الساعات الملائمة لادير رقم التلفون ، وأنا أحمل القلق الجامح المدمر الذى يحيل الزمن حرائق مدمرة .. لم تعد الايام لتكتسي بأية لمحة من اللون الشهي سوى لون كلماتها على التلفون .. تبدأ الكلمات مظللة بالدفء ، وتتهدج بالتالي فيما يشبه الانين المكتوم .

ـ لم أسألك من قبل عن اسمك ..

ـ هل يهمك الاسم . انه لا يحدد الفكرة .

ـ فعلا .. انك شمول معذب بالنسبة لي .

ـ وأنت أيضا . اسمع .. لقد أدركت أنك شاعر .

ـ أجل . وكنت واثقا انك ستعرفين .

ـ لم يقل لي أحد . غير أنني عشت حدسا عجيبا بذلك وأدركت جانبا منك .

عشت معها هكذا ، سمعت مني قصائد كثيرة عشت مخاضها بتفرد بينما كانت هي تستكين في رهبة على الجانب الاخر من التلفون وتبكي أحيانا في حرقة .. كان اسمها « منال » . كان صوتها هفيف شراع مسافر في البحار الغارقة في السحب المقببة من أرض النار ومن مناطق استوائية حيث تقرع طبول الليل .. كان اسمها « منال » .. وكان صوتها هو خبزي وزادي في النهاية .. بدأت تتحول مستحيلا لذيذا لا يمكن لي أن ألقاه الا في فجاج من الارض مجهولة لم تطأها قدم ..

ـ منال .. لماذا لا نخرج من مخبئنا في المدينة ؟

- دعنا في مكاننا الان .
- يبقى وجهك هدفي .
- وأنت كذلك .. تتشكل صورتك هدفا لي . ولكن ما حيلتي . دعنا نقف على أطراف المدينة بعيدين تتشوف الى القادم الحبيب .
- يا حبيبتي .
- يا حبيبي ..

ها أنذا المواطن المتسكع في طرقات المدينة «ن» ازاول مهنة الانتظار والوحدة والاندماج معا .. أضحيت في وسط الحشد أملك وجها يحمل سمة العصر المليء بالكآبة . لا أجد مبررا للعلاقة بيني وبين الاخرين سوى صوتها ، ذلك الشيء الذى يأتيني مثل نثيث الندى الناعم .. والمرأة التي اسمها «منال» تظل تنتظرني هناك على العدوة الاخرى من المدينة ... وحدها وحدها .. وكلانا يحمل بصمت - الخبز والزاد ، نلتم حوله وتتقارب المسافات به ، واذ يتعانق الصوتان عبر أسلال التلفون تذوب كآبات أيامنا كلها .

عاما كاملا ونحن نقطع الرحلة ونحمل الزاد واليقين .. قصائدي جميعها حملت خصب الارض ، غير أننا كنا نبحث عن المنابع فيما وراء التخوم .. وهكذا خاطبتها ذات يوم بعد أن أدرت الرقم - الهوية .

- لم يعد لدي متسع للصبر .
- أنا مثلك .. يحرقني الصبر والمسافات .
- لنلتق ذات يوم .
- سأكون بانتظارك يا حبيبي .. لا بد أن نحقق لقاءنا مهما تكن الصعاب .
- أين سألقاك يا حبيبتي ؟
- ابحث عني .
- أبحث عنك في كل زوايا الارض .
- ستجدني اذن في العمارة المؤلفة من ستة طوابق في الشارع

الرئيسى المؤدي الى الباب الشمالي .. سأكون في الطابق الخامس .

– في أي وَقت ستكونين هناك ؟

– في كل الاوقات سأكون .. ابحث عني في الوقت الذى يحل فيه العصر .

★ ★ ★

الحكاية الثانية : اللقاء

اتجهت الى العمارة المؤلفة من ستة طوابق في الشارع الرئيسى المؤدي الى الباب الشمالي .. كان الوقت حوالي الثالثة والنصف بعد الظهر . أسبق الخطوات بشكل جنوني ، وأعبر الشوارع حالما بوجهها كيف يكون .. لقد حفظت في الماضى صوتها حتى غدت نبراته جزء من الزمن الذى أحياه مكتفا بالدوران والبحث ، بينما بقيت صورتها بعيدة عن التجسد الا في المخيلة المكدودة الباحثة عن التشكيل الحقيقي للوجه والصورة والمادة التى تحتل حيزا من المدينة «ن» .. فكرت وأنا في طريقي الى العمارة القائمة في الشارع المؤدي الى الباب الشمالي ، فكرت في الطريقة التي سأهتدي بها الى «منال» .. هل سأهتدي اليها بمعرفة الصوت أم بالرائحة أم بلون خاص تتكشف هي عنه ، أم أنها ستلوح لي كفنار قائم في وسط الجزر البحرية يهتدي اليه كل تائه آيب من تعب السفر ؟ . وفكرت أيضا ماذا سأقول لها ، وكيف أصنع بين يديها تاريخ حياتي ومن أين أبدأ ، والايام التى تقضت بيننا دون أن نلتقي الا عن طريق الرقم ، وكيف سأطرحها بيننا وهي محملة بعبء الاحساس والانتظار والتوحد ؟

أزحت في النهاية افكارى المتصارعة المحمومة وأنا أقطع الطريق ، وعزمت على أن يكون اللقاء بيني وبينها عاديا وطبيعيا ، ذلك لأننا عرفنا الاسرار منذ زمن ، واننا حينما سنتحدث في مكان ما لا أعرفه بالضبط غير أنه ربما سيكون في الطابق الخامس من العمارة ، سنتحدث في مسائل صغيرة وبسيطة وبهيجة ، واننا سنضحك كثيرا كطفلين غريرين يغمرهما

المرح الطفولي الى حد النزق .. ما عدت أستطيع تصورها وجها يحمل نفس سمات الاخرين في المدينة «ن» .. صوتها هو الذى يدعـوني في الداخل كنداء عميق محبب ، وصوتها هو الذى يظل نبرة ايقاع تفتح لي أبواب الرياح لتسرب رخاء وأمنا وطمأنينة ..

واجهتني العمارة بعد أن اجتزت كل الطرق والشوارع المؤديـة اليها .. وكان الناس يحتشدون بصورة آلية في مواقع متفرقة ، ويتطلعون الى الملصقات الصورية الكبيرة لبعض الافلام ذات الطـابع البوليسـى والمتوحش .. كان يخيل الي أنهم يشبعون هواية سرية من نوع مـا شبيهة بتدارك الضعف والوهن الذى ينتابهم طيلة ساعات اليوم .. كانت العمارة مطلية بالصباغ في ثلاثة ألوان متقاربة ومتناسـقة ، واواجهتهـا بروزات هندسية تشبه المظلات المعقوفة الى أسفل .. كانت العمارة توحي باحتوائها على اناس مختلفين تحتضنهم في عشق دافيء .. وتخيلت أيـة جدران ندية بالكرم تلك الى تحتوي «منال» في الصوت والصورة ، غير أنني كنت قد وصلت الى العمارة متأخرا خمس عشرة دقيقة من الوقـت ولذلك كان بعضهم ينصرف في لامبالاة وفي حياد بارد ، ويولي أكثرهـم وجهه شطر جهات متعددة من المدينة . ولاحظت قبل أن أقترب تماما من العمارة ذات الالوان الثلاثة انها تقبع في ظل من الشارع يشبه أن يكون عتمة خفيفة لا تتشكل فيها ظلال الضوء ، ورجحت أن المساء هو الـذى مد ظلا من الدكنة الشفيفة تغلفت بها المداخـل والممرات المؤديـة الى العمـارة .

وعند المدخل الرئيسى للعمارة كنت أحمل في قلبي هموم سـعادة غامرة وكآبة مداهمة تدافعت بغتة اذ سألتقي بالوجه الذى أحـلم بـه وبالصوت الذى أحببته .. وعند المدخل نظر الي أحد الرجـال بعجب واستصغار وقال لى :

ـ أين تقصد أيها الرجل ؟

أوقفني فعلا عند المدخل واضطررت أن اجيب :

ـ انني أقصد هذه العمارة بالذات ، واريد الصعود الى الطابق الخامس .

قهقه الرجل بحمق وقال :

ـ ولكن المصعد معطل منذ نصف ساعة .

لم يثر ذلك أيما شيء ، واعتبرت تعطل المصعد مسألة اعتيادية في المدينة «ن» ولذلك قلت :

ـ لا يهم .. سوف أرقى السلم ..

مضى الرجل . ودخلت العمارة .

مضيت ارقى السلم متكئاً على الحاجز الحديدي .. لهثت عند الطابق الثالث قليلا ، ولكنني عندما وطئت ارضية الطابق الرابع بدأت ألهث بقوة ، ووجدت حشدا من الناس يقفون في جمود لا يريم ، واعينهم تتصالب على الباب الحديدي الموصد باحكام حيث تسود الظلمة فوهة المصعد وحيث لا يرى ثمة أي شيء ، وتمتد الفوهة الى الاعماق بشكل مريع .

كان الحشد يقف متزاحماً قرب الباب الحديدي ، وتدريجياً تصاعد اللغط بين بعض الأفراد وهم يتناقشون بحياد وآلية في مسألة انقطاع التيار الكهربائي وتعطل المصعد .. وفي البدء وقفت بينهم التقط انفاسي وانصت الى بعض ما يقولون . كانوا جميعاً كما لو أنهم يتنزهون ثمة في مواقعهم قرب باب المصعد الحديدي الموصد . وخمنت انهم يشبعون هواية اخرى تخلقها لهم المدينة « ن » الخالية من مناسبات النزهة . وقد كنت قد تأخرت عن موعدي اكثر من عشرين دقيقة في لقائي بالصوت الذي احب ، ولذلك كنت اريد ان اقفز مرة واحدة الى الطابق الخامس غير انني سمعت احدهم يقول ـ « كيف يمكن ان تبقى المرأة وقتاً اخر في المصعد ؟ »

صلبتني عبارته في المكان . عدت احتشد بينهم واحتلب الخبر كالمعتوه ..

ـ « اية امرأة تعني ايها السيد ؟ »

نظر الي بعينين باردتين متعاليتين وقال ـ « يبدو انك طارىء على

الحادث .. هناك امرأة محصورة في المصعد منذ اكثر من نصف ساعة » ..

– « من تكون بحق الله . ؟ »

– « لا ادرى .. ثم انني ارجوك الا تكثر الاسئلة فلا شأن لي بذلك » .

– « معذرة .. معذرة ، غير انني ألتمس منك ان تقول لي من تكون هذه المرأة »

– « ايها الاخ لا شأن لي بذلك فأنا لا اعرفها ولم ارها قط ، غير انهم يقولون انها كانت في الطابق الخامس »

– « ما اسمها .. لو سمحت . ؟ »

– « قلت لك لا تكن لجوجا في اسئلتك .. انا لا يهمني اسمها . »

ران الصمت بين المحتشدين ، وصمت أنا معهم ، وكأنني اقسر قسراً على ذلك . وخيل لي أن الجميع يؤدون فجأة صلاة روتينية مليئة بالسخرية وانهم سئموا في الواقع كل ما يجري منذ انقطاع الكهرباء وتعطل المصعد ، ولذلك تهيأ قسم منهم للانصراف على عجالة ، حينما دوّى صوت المرأة المحتجزة في المصعد المعلق بين الطابق الخامس والرابع واصطدم بجدار المصعد وجدران الفوهة والحواجز الاخرى فترامى عبر ذلك جافاً مخنوقاً – « لماذا لا تتحركون ارجوكم .. اعملوا شيئا من اجلي .. الى متى ابقى معلقة هنا » .

واقشعر جسدي منتفضا بفعل الصوت الذي اعرف رائحته واعيش بذاته .. ازحت كل المحتشدين وتقدمت ازاء الباب الحديدي . لم اجد منفذاً استطيع ان القي منه بصوتي المرتجف حتى الموت ، غير اني ابصرت نافذة الباب الحديدي الموصد مغطاة بزجاج سميك .. ألصقت عيني على الزجاج ورحت احملق كمعتوه . داهمتني الظلمة الكثيفة في فوهة المصعد الفارغة وراعني مشهد المصعد المعلق اذ ابصرت قاعدته تعلو فوق الباب الموصد ولا يبين ما في داخله عن ايما شيء .. جمعت جسدي وصرخت بقوة – « من .. من هناك .. »

تهيب الرجال لاول مرة وتراجعوا قليلا الى الخلف . احسست بحركتهم من خلفي ، وكان صمتهم يتحد مع صمت الفوهة في الداخل حيث لا تسمع انفاسهم ثمة .. وخيل الي بشكل مباغت وأليم ان العالم ينحصر هنا في فوهة المصعد ويتقطر برودة وخواءً .

جاء الصوت نافذاً بصعوبة من خلال الجدران والباب الموصد ـ « ولكن .. من تكون . ؟ »

التفت الى الحشد المتراص . تحرك بعض الرجال اللامبالين ، وابتسم قسم منهم هازئاً .. لم ابال ، بل كنت اصرخ وحدي مرتعشاً ـ « اتكونين انت منال . ؟ »

وجاء في الصوت واللوعة ـ « من .. انت . ؟ يا حبيبي .. يا حبيبي .. كيف اراك بعد الان . »

ـ « ولكنني هنا .. جئتك احمل كل معابد الدنيا وصلواتها . »

ـ « كيف اراك . بأمكانك ان تسخر الان »

ـ « كيف يمكن ذلك . سأنتظرك حتى تعود الكهرباء »

ـ « متى تعود الكهرباء .. انها مهزلة . انني معلقة هنا بين الطابق الخامس والرابع »

ـ « اللعنة على المصعد .. اللعنة على المصعد . لماذا استعملت المصعد ؟ »

ـ « كنت لا اصطبر على موعدنا يا حبيبي . عزمت على ان اهبط اليك لألقاك في مدخل العمارة . »

ـ « اللعنة على المصعد . اللعنة على الكهرباء »

ـ « ولكنني اشتاقك الى حد الموت .. كيف يمكن ان ابقى معلقة هكذا . »

حينما حولت عيني عن النافذة الزجاجية السميكة واستدرت نحو الرجال المتجمعين وهم يرصدون علاقتي الفجائية المباغتة بما يجري داخل المصعد ، استباحني برودهم القاتل . كدت اتوسل اليهم ان يفعلوا معي شيئاً الا انهم سرعان ما انصرفوا غير مبالين .

بقيت وحدي هناك .. بيني وبينها جدار من الحجر الاصم وباب من

الحديد ومصعد معطل معلق ثمة بين الطابقين الخامس والرابع .

تحركت كالشهيد بين الطابقين الرابع والخامس . اصعد واهبط .. ابحث عن طريقة ميكانيكية لانزال المصعد ، كنت وحدي ، ولم يكن معي احد يدلني على طريقة محددة .. ولم اكن ادرك اى شيء افعله غير ان اتخيل الصور ترى بجنون ، ومنال تنتظر الخلاص .. تكثفت الاشياء واستحالت ضرباً من العجز المهول ، ولم يكن قلبي قادراً على تحمل الالم وحدي ، وتذكرت ان بيني وبين العالم والمواضيع ، علاقة قديمة يمكن ان تتحدد الان بقوة لتنطلق الحقيقة الناصعة الكامنة في قلب كل مواطن في المدينة « ن » . ولذلك انطلقت اعدو خارج العمارة والحلم الرائع يستغرقني .. تركتها معلقة هناك .. انطلقت اعدو خارج العمارة . تتحشرج الكلمات الحارة في فمي الجاف . يتموج جسدي بارتعاشة الحلم المبلل بالخلاص . كنت اندفق في الشوارع مثلما تنقل سورة الريح من مكان الى مكان .. بت اصبح فيهم هؤلاء الناس الذين كانوا يتسكعون كالموتى على الارصفة الخالية من الكهرباء ، بت اصبح فيهم ان يأتوا الى العمارة وان نفعل شيئاً هناك .. لم يكن فيهم من احد ليلتفت الى الصوت الذي يترامى في فراغات الشوارع . كانوا جميعاً تتأكلهم اللامبالاة وها هي اصباغهم تزول عن وجوههم ويبدو الواقع مقفراً ، عدت بينهم موضوعاً قابلا للرصد والدراسة بحياد وموضوعية ، وفعلا وجدت قسماً منهم يلتفت في استغراق ذاهل ومتوحش ليتفحص الظاهرة الغريبة التي كنت اشكلها بعناد ومضيٍّ .. ابتلعتني الشوارع في النهاية ولم أعد لاجد احداً رغم كل الوجوه العابرة على الارصفة .. هبط الظلام ، بينما كنت مستمرا في العدْو .. خلتْ الارصفة تدريجياً من السابلة .. بدأت المدينة «ن» تصفر في السكون والعتمة . بقيت اعدو بين كل المنعطفات ، وكانت هي معلقة هذه المرة في رأسي كحلم محموم . خرجت الى تخوم المدينة .. اجتزتها .. واجهت الصحراء وحدي ممتدة الى اللانهاية ، وعندما مس وجهي المعفر تراب التخوم ، كنت اسمع انين الارض .

الهجرة في الأيام المؤجلة من زمن السخط

محمد عبد المجيد

ضرب رئة الهواء « بالفالة الصديدية ، المدببة يرقص في ليلة (ذكر) . كان معتوها ، اليفا ، وحدق في جسد (الهور) المعشب بشعر المساء الرمادى .. رؤوس الذرة الباسقة تهتز ، رطبة وثمة طيور تداعب موجات الماء المتكسر عند الساحل الملىء بالاشنات الداكنة الخضراء ، وجسم المأمور يتمطى بتراخ وهو يعطي اوامره يتلكأ ..

ـ سعود .. جهز المشحوف .

وقبل (الفالة) كمن يصهره ألم شيء ما .. لم تكن هكذا يامسعود السوداني .. امك نذرتك لابو فاضل كان هذا حين اقسم والدك السوداني ـ ولم تكن تعرف اسمه الحقيقي ، فيما اذا كان له اسم اخر ـ ان يطلقها اذا جلبت له بنتا رابعة .. وكانت حبلى بك يا مسعود .. وطلبت من (العباس) ان يكون المولود ذكرا ، وان تنذره له ..

وجئت ونبت الملح في فمك ، وحطت موجة اخرى من الطيور المهمومة في الجانب المقابل ، وضحكت .. لماذا جئت الى الحياة . الكي تشقى يا سوداني .. وتملأ راحتيك بأزهار العبير الوحشي .. ولم تكن تشعر

بحرارة الابر الشوكية المغروسة في اللحم الطازج .. وبحرارة الالم، أيضا ..

ولم تعطك الحياة الا وصية رديئة : هو ان تقبل كل شيء كما هو .. وبدون مقاومة او اسئلة .. وقد تعلمت يا سادة لغتكم المثقوبة كالاحذية .. والدك مات .. وكنت تشم اعواد الرز اللينة .. الهشة كأصابع انثى .. ولم تبك لان الرجل كان مريضا لمدة عشر سنوات وكان الموت أعز شيء كنت تطلبه له .. رجل نصف جسده الاسفل مصاب بالشلل .. ثم انه فقد النطق وقد تعلمت لغة الاشارة معه .. يا سادة .. لم يكن السوداني يكرهكم او يخشاكم .. وكنت لا تتألم لملاقاته ايام الصيف القائظ وقد جلس في بركة غائطة في حوش الدار .. وهو يمص اصابعه .. ويكشر عن اسنانه الصفراء .. وكنت تهتم به اول الامر .. الا ان شعورك قد فتر ازاءه ..

كانت امك قد تركته حينذاك .. معللة هذا (رجل شبه ميت .. ماذا اجد عنده سوى الموت أيضا) وكنت يا مسعود السوداني ، رجلا يكره زمن الاقنعة .. تكد وتشقي وتتعذب .. وتنظر الى حياتك التي بدأت تتسرب من بين اصابعك المرتبكة المهزوزة قطرة .. قطرة .. كحبات رمل جافة .. لقد كبرت ؟ ابدا .

وحين انتشر نبأ حبك المهموم في العشيرة ، كالنار في حزمة قش اقسموا ، ان يجعلوا جسمك طعاما لطيور الماء .. وطلبت يد (هيلة) وكان والدها الحاج جابر رجلا طيبا ، وكان يحب والدك السوداني .. رغم ان الناس كانوا يتهامسون حول تلك المحبة السرية الا انك لم تكن تعي حقيقة الاشياء .. حينذاك ..

وحدثتك أكثر مما كنت تعرف عنه .. وتزوجت (هيلة) رغم كره اعمامها الذين هددوا الحاج بقتلك .. ولكنهم سكتوا فجأة .. قبلك الا أن الحاج رفض بشدة وكان (مأمور) الشيخ قد طلبها وكان من الممكن ان يختفي الحاج كما كان غيره يختفون من الوجود .. فيما اذا رفضوا

أمرا للمأمور .. الا ان المسألة اتخذت مسلكا عكسيا ادهش الناس .. وهو احجام (المأمور) وما يشبه الحذر ، من مس الحاج بسوء .

ربما هو السوداني يا مسعود .. كانوا يخافونه كالموت .. وفي الشهر الاول لزواجك .. وليلة مقتل (الحسين) اصرت (هيلة) ان تذهب بها الى الحسين .. ورق قلبك .. رغم التعب واوامر المأمور التي زادت عن ذى قبل .. ولمست ذقنها المدور الاملس .. كحوض تفاحة اجنبية ..

- اتحبني يا مسعود ؟

- حبي .. كطيور الماء ..

ولوت وجهها المتفتح .. كقرنفلة ربيعية .. الى جهة الجدار القصبي المتقاطع الخطوط .. المصغر .

- احلفك بحبي .. ان تذهب بي الى الحسين ..

- لماذا ؟

- لقد زارني الليلة .. انه يريدني ..

وارتديت جلبابك الابيض .. كان التعب في رأسك .. وتذكرت انه ثوب العرس .. ابتسمت بشهوة رجراجة .. ورفعت نظرة مرحة الى جسدها الملفوف .. كأعواد الذرة .. ثم جلست على الحصيرة المصنوعة من خيزران أصفر ... وحطت قربك بخفة .. التصقت بك كعصفور جريح .

- لقد رأيته .. كان يرتدي البياض .. مثل سحابة .. كان يقف في الجانب الاخر من الهور وخلفه الزجاجي المليء بالاضوية الملونة والذي حدثتني عنه جدتي هرياسة ..

وداعبت شعرها .. ضحكت .. - وناداني ...

خرافة ! كل شيء تراه او تسمعه .. او تعيشه .. هو جزء من الخرافة التعسة .. ونحن مرضى .. بالتأكيد .. هكذا علمك السوداني يا مسعود .. وغرست أسنان شفتك بخصلات شعرها الاليفة .. ليل ..

موجة من ليل حريري يغمرك ، كالوباء .. وقبلت شحمة اذنها اليمنى .. ثم تذوقت ملوحة بشرتها السمراء .. هي كالارض المحرقة .. وخنقت نهديها بأصابع شرسة .. كطفلين بريئين .. وكنت تشعر بلهاث مريض يوخز اعضاءك .. وثمة رجفة صغيرة نبتت ما بين فخذيك وقالت بصوت كـــدر :

ـ وناداني .. ولم اكلمه .. ولذا انني خائفة .

وجذبتها الى صدرك المرتعش كما تجذب (الفالـة) مـن صـــدر السـمكة .

ـ مسعود .. لماذا قتلوا الحسين ؟ !

ولم تقل شيئا ، كنت كموجة غاضبة .. لاهثة .. تصعد الى اعـلى ثم تنحدر الى أعماق البحر .. ورفعت ثوبها المنقط بدوائر خضراء .. كالعشب .. هدأ يا مسعود ؟ هذا زمن خداع .

وشعرت بصيف قاتل تدخله .. وكان (الحسين) يلوح بســيفه العربي .. وكانت الشمس في عينيه كلوح مكتـوب ، وغـار بفرســه الاصهب .. وشق الاعداء الى قسمين .. ثم دار حول نفسه .. وكر .. وكانت الشمس مليئة بالدمع الشاحب .. كالمرائي .. أحس بالتعب .. واخترق السيف رقبته .. لا .. لا هذا غير مؤكد .. اخترقت السهام الكثيرة جسمه المنهوك .. ولم ينهزم يا مسعود .. تذكر .. لم ينهزم ، الا انهم ذبحوه .

وعدتما معا .. كانت مغتبطة .. مليئة بهذا الحب .. وهي تحلـم بلاضوية والمرايا وأصوات المكبرين .. ورائحة البخور والادعية العميقة وأمرك (المأمور) ان تجلب له بعض الحاجيات .. ونفذت ذلك بطيبة .. وفي الليل اشتكت (هيلة) من سلوك المأمور .

ـ اني خائفة منه !

ـ ان مسك .. سأقتله .

وأرخت رأسها الطفولى فوق صدرك .. وتمنيت ان تبقى كهذا ..

ثم صحوت قلقا .. كان كل شيء غارقا بضوء النهار الذائب .. وبحثت عن (هيلة) عبثا .. وذهبت الى بيت أبيها .. فلم تجدها هناك ايضا .. وشاع : ان بنت الحاج هربت مع خادم (المأمور) الاشقر الذي جلبه من المدينة .. ولم تصدق .. ما هذا ما مسعود السوداني ؟ الكل يتغازلون ؟ ويتضاحكون بخبث حين تلاقيهم !!

ومرض الحاج .. وكنت تجن .. لماذا نختار حياتنا بطريقة سيئة ! وكل ما تعلمته في (الكتّاب) قد رفضته الان .. لا شيء تؤمن به .. الا بغسل العار !

لو كان والدك حيا ، لقتلك ؟ السوداني لا يعرف المساومة أبدا .. رغم انه كان فاسقا الا ان هذا لا يمنعه من الحفاظ على شرفه .. قلت : أنت لا تعرف عنه كثيرا ؟

ووددت أن تبقى جاهلا .. في مدن منسية .. لا تذكره .. وفتشت (الهور) بطوله وعرضه .. لا يجب أن تجدها .. وانت لم تصدق ! ! لم تصدق مسألة الهرب !! وقالوا (مسعود .. ليس كأبيه .. انسان ناقص) وأنت تعرف انك لست كالمأمور الذي (خصاه) الشيخ حفظا على زوجته المثة .. وقيل غير ذلك أكثر والله أعلم يا مسعود .. وأنت لم تر الشيخ أبدا .

وكنت مسحوقا .. وقد تعبت من البحث .. وهنا .. لا أحد يكلمك ويخفف عنك ثقل الالم .. الا ان السمك كان يهمس بحزن من أنك كنت قاسيا ! ورجعت الى البيت المهجور .. ورأيت شيئا أسود .. يتحرك قرب الباب الخشبية .. وفجأة حملت (الفالة) واقتربت بخطوات حذرة .. ماذا ؟ هيله .. ؟ هذا غير ممكن .. ورفعت رأسها بيدين ذابلتين .. وجه مشوه .. مليء بكدمات داكنة الزرقة .. كقاع الهور .. وهتفت بصوت كأنه يخرج من أمعائك :

ـ هيله .. ماذا بك ؟

ونظرت اليك طويلا .. كمن يتلو صلاته بصمت ..

– خطفني .. المأمور .

– المأمور .. ؟ !

– لم أدعه يمسني .

وجف الماء في حلقك .. وسمعت صوت الطيور العاشقة .. مدائن المياه المعتمة .

– اني شريفة .. شريفة يا ... مسعود .

سقمط الرأس .. ولم تشعر بشيء ما .. غبت عن وعيك هكذا قال الحاج .. ولم تسألهم عن (هيلة) ظنوا بأنك قتلتها .. وبعد يومين مات الحاج جابر كمدا وهما . واخترت الجنون .. لاجل ان تكسب حياتك المهددة تحت ظل (المأمور) واتباعه ، لانك تدرك جيدا عبث المواجهة هنا .. وبشكل اعزل .. يجعلك في وضع سيء .. ويحتم بالضرورة ان تقبل هذا التخلي الوقتي عن وجودك .. لان وجودك خارج هذه المساومة يعني ان تخسر كل شيء .

مسعود .. انت تعلمت .. وتعبت .. ولكن لا فائدة من كل ما كان السوداني مثقلا بتجارب حياة عريضة .. آه .. لو كان حيا .؟

واخترت الجنون .. الناس شكوا في سلوكك .. واتخذوا مواقفهم ولكنك اصررت على هذا الاختيار .. ثم صدقوك .. واخذوا يعطفون عليك . (مسعود السوداني فقد عقله) ست سنوات .. كومة من عذاب مرير .. لا يطاق ابدا .. ست سنوات يامسعود من المساومة .. ولم تبك .. كنت تضحك .. تضحك كالاسماك في بطن (الهور) وكنت تذهب الى المقبرة كل خميس .. وتهدم قبر السوداني .. وتبول فوقه .

ورق (المأمور) لحالك .. وجعلك خادمه الخاص .. المهرج لولي العهد المنتظر .. واخذت زوجته .. بنت (وجر) تتقرب اليك .. وكنت تصدها بلطف .. وجاءت ذات ليلة الى غرفتك في زريبة الحيوانات . . واردت ان تسحق نفسك .. تدمرها بهذه الطريقة الشاذة .. واحترقتما

معا .. ولم يشك في الأمر .. كان هائما بها .. وبكت ذات مـــرة .. وكنت تضحك .

ـ سيقتلني يا مسعود .. انني حبلى !

رقصت .. واطلقت صرخة مجنونة .. وعبثت بتلال القش الجاف وتطاير فوق جسديكما ..

ـ لنهرب معا .؟

وركضت نحو (الفالة) .. كانت الريح في الخارج .. عنيفة .. وهى ترفع جلبابك الى اعلى .. الى اعلى .. دائما يا مسعود الســوداني .. الحياة تكون لذيذة هناك .. في اعماق (الهور) حيث المغـــامرة المجهولة .. وهربت بنت (روجر) الى المدن البعيدة .. وقالوا ذهبت الى بغداد .. لا .. لم يجدوها هناك .. ربمـــا توجهت الى بلاد ما وراء البحر .. وشك المأمور بك .. ولم يقل لك شيئا .. الا انه كان يخطط لمشروعه اشياء كثيرة .. وكانت نظراته المستعرة .. تعطيك اجـــوبة عديدة .. وان كانت مفعمة بالغموض والكابة .

وجاء بهيئة قلقة .. متوترة .. اعطاك البندقية الانـــكليزية . . وجلس في مقدمة (المشحوف) ما هذا يا مسعود وقبلت (الفالة) بحرارة صيف .. وكنت تحس بريح الجنوب الخفيفة .. الرطبة .. وطيـــور الماء تخلق .. وتحلق عاليا .. متجهة الى افئدة الذرة الشاحبة .. وسميت المجذاف .. وانغمست بحمى الجذف .

كان الليل يمشي ببطء فوق رؤوس البردى المنحنية .. وضحكت .. ثم اطلقت صرخة اشبه بعواء ذئب .. ونهرك (المأمور) بغضب .

ـ اخرس .

وبلع ريقه بصعوبة .. كانت نظراته هائمة .. لا تستقر عـــلى شيء .. ورسمت ضحكة ميتة في شفتيك وكنت يقظا .

ـ اتجه الى الجنوب ..

ارتعشت قليلا .. انت تعرف كل شبر من (الهور) وهو يدفعـــك

صوب الأمكنة المهجورة .. احذر .. ونظرت ناحية البيوت الناعسة .. الممتدة خلفك .. كشريط من العتمة .. مجرد هياكل مشوهة .. واردت ان تفهم ما يدور في رأس المأمور الاجوف .. الا انه سحب البندقية .. وتوترت ملامح وجهه المتحجرة .

ـ كنت تحب بنت وجر ؟

ولم تجبه .. كنت ترقب حركاته المرتبكة .. مسعود ماذا دهاك ؟ الحسين لم يخف من الموت .

ـ وانت من فعل ذلك ؟

كانت الشمس في عينه كلوح مكتوب يا سوداني .. والاعـداء .. وبكاء الريح .. وحزن الحجارة .. ولم تفل في عضده .

ـ كنت اشك في جنونك .. دائما ..

وضرب (الحسين) الرؤوس المنحنية .. بسيفه البتـار . . ودار حول نفسه .. وربط الجأش .. وحركت المشحوف .. واختل توازنه فجأة .. ورفعت (الفاله) وغرستها في صدره .. وقبلت قلبه المرتعش .. وتصلبت عيناه .. وكنت تتصور .. كيفية دخول (الفاله) في جسـد السمكة .. وصوت انفجار قلبها .. سقطت البندقية في (الهور) محدثـة طرطشة خفيفة .. واتكأ جسمه جانبا .. (والفاله) غائرة في صدره .. ثابتة .. كلوح مكتوب .

العنكبوت

يوسف الحيدري

انهار بجسده المتعب مرة واحدة وبحركة متشنجة فوق الاريكة وقد احتقن وجهه وتقلصت عضلاته فبدا كقطعة شوندر مسلوخة .

بعد ان قذف بعصاه بعيـــدا ، دفن رأسه بين راحتيه وهو ينتفض انتفاضات سريعة متتالية .

كانت العصا طويلة ، تنتهي باسطوانة صفيحية مشبكة ترتبط نهايتها برأس العصا وتشكل مع الطرف السائب غطاء مشبكا مجدولا من خيـوط القنب القوية ، بحيث يسهل من حركة الغطاء . فبحركة بسيطة يمكنه أن يهز العصا فينفتح الغطاء ، وبحركة دقيقة اخرى يمكنه من اصطياد مـــا يشاء داخل الشبكة المجدولة باحكام ..

حدق في وجهي مسدوها .. بعد ان هدأ قليلا وسكنت اخر عضلة في وجهه المحتقن ، ثم على حين غرة اطلق ضحكة عنيفة .. وهو يدنـو بخطواته الثقيلة .. وبعد ان صار على بعد خطوات قليلة مني .. ارتسمت على وجهه علامات انزعاج غريبة .. وصاح .

ـ لقد اصطدت اليوم عشرة .. من تلك العناكب اللزجة . بعد ان رحت ارقبها وهي تلامس بارجلها النحيلة انسجتها الدقيقـــة . . ألست صيادا ماهرا ؟. هه .. ماذا قلت ؟ الست صيادا ماهرا ..؟

صمت فجأة ، ثم اخذ يتفحص بعيون مفتوحة .. تقاطيعي ، وكأنـه

يراني لاول مرة ، ورأسه يضرب كتفى براحتيه الضخمتين .. وهو يردد بهلوسة :

ـ أنت عزيز اذن ؟. تعال يا .. يا لها من كائنات قذرة .. صديقي .. هيا سوف تراها جميعا هيه .. أنت عزيز اذن ؟.

غمرني ذهول ، فلم اعد اصدق ما أرى .. وقبل ان الفظ بكلمة .. جرني من يدي وهو لا يزال يضحك ..

دلفنا الى حجرة صغيرة نصف مظلمة ، كانت عبارة عن مطبخ قديم متروك منذ سنوات ، تناثرت في ارجائه بعض الاواني العتيقة المسودة وقطع من الاخشاب المحروقة واشياء اخرى . كانت الجدران ملطخة بالسواد وقد تناثرت في زواياها وعلى حافات الرفوف الخشبية المتآكلة شبكات ضخمة من نسيج العناكب الرمادية ، وقد تمزقت اجزاء منها راحت تتدلى على شكل خيوط لزجة متينة .

أشار بيد مرتعشة الى رف متآكل فوق الجدار المقابل للباب .. كانت قناني زجاجية عديدة ، مختلفة الاشكال والحجوم مرصوصة بانتظام غريب لا ينسجم مع فوضى المكان .. رحت أحدق في القناني بفضول كبير ودون ان افهم شيئا . وحين لمح دهشتي وصمتي .. صرخ في وجهي بغتة وقد لاحت على وجهه علامات فرح مفاجيء :

ـ انظر اليها جيدا .. يا لها من كائنات خسيسة .. تمتع يا عزيز بمنظرها .. هيا .. انظر اليها جيدا .. الا تبعث فيك النشوة . وانت تراها تتعذب هكذا ؟. انظر الى ذلك العنكبوت الاصفر الكبير .. يا له من لعين .. لقد عذبني كثيرا ، قبل ان استطيع اصطياده وسجنه داخل زجاجته الكبيرة .. لقد حكمت عليه بالسجن الانفرادى !.. انظر كيف تتزحلق هذه الكائنات الحقيرة داخل زجاجاتها الملساء .. وتسقط في القيعان دون جدوى انني سعيد بعذابها ياعزيز ، سعيد جدا .. ها .. ها ها .. ها ..

كنت الان كمن يعاني وطأة كابوس مزعج .. حاولت ان استوعب في ذهني المكدود كل ما يجري أمامي من غرائب .. غير ان منظر عشرات العناكب وهي سجينة ، تحاول الخروج عبر الجدران الزجاجية الملساء كان افظع من ان يستوعبه حتى خيالى ، ولست ادرى لماذا غمرني شعور مفاجيء بالرثاء لهذا الانسان الذي كان يوما ما صديقي .. ودون وعي رحت اتمتم .

ـ مسكين .. لقد انتهى اخيرا ..

كان صمت ثقيل يخيم تدريجيا على جو الغرفة الصغيرة ، وكنت اجد لذة خفية في التطلع الى كل كبيرة وصغيرة معا تحويه الغرفة . حتى احسست اخيرا .. وكاننى ارزح تحت وطأة عذاب ثقيل ..

شقت صمت المكان صرخة حادة كان الان يحدق في الزجاجات المرصوصة بهستيريا وقد جحظت عيناه وراحت شفاهه ترتعش واسنانه تصطك وكانه مقرور ، صاح في وجهي وهو يلتهم كل جزء من تقاطيعي :

ـ لم يبق سوى عشرين .. عشرين من العناكب اللزجة . . وعندها ينتهي كل شيء .. عشرين من العناكب الغبراء العفنة .

ثم بعد صمت مفاجيء :

ـ هيه .. أنت عزيز اذن ؟. الم اقل لك بانني صياد ماهر .. هـا ها ها .. كانت اسنانه لا تزال تصطك بعنف .. هدأ قليلا بعد ان دفن رأسه بين راحتيه وكان لا يزال يردد بصوت منفعل :

ـ مائة عنكبوت فقط .. ثم بعد ذلك تأتي الالاف .. بل الملايين .. يجب أن امسحها من الوجود دون رحمة .. يجب ان اسحق كل عناكب العالم الخسيسة يا للقذارة .. كيف تعيش العناكب .. بينما يقتل الاطفال دون رحمة ..

لاول مرة احسست بشفاهي ترتعش وبأنني اغرق في حوض من الجليد ، وتمنيت أن أجد في نفسي الشجاعة الكافية لاحتضان هذا الكائن التعيس وقبل ان الفظ بكلمة واحدة .. صرخ في وجهي بغضب :

ـ هل تدرك معنى ان يقتل الاطفال ؟. اطفال يموتون وعيونهم

تحدق بذلة في وجوه جلاديهم القاسية .. بينما تعيش العناكب بكل عفونتها في الزوايا المظلمة .. هذه ليست عدالة .. هل تسمعني ؟ حاولت ان اسحبه الى الغرفة الكبيرة .. وقبل ان احركه لمحت امه تقف الى جانبه وهي تحاول عبثا تهدأته .. وبين لحظة واخرى تمد اصابعها المرتعشة لتجفف دمعة تحاول السقوط ..

كانت ملفوفة بالسواد ، فبدت كجذع شجرة عتيقة محروقة الجذور وعلى رأسها شلال من رماد ينساب بهدوء ووقار .

رحت اساعدها في جره الى الغرفة الكبيرة وبد جهد طويل ، القيناه على السرير بعد ان غاب عن الوعي .. كانت فقاعات من الزبد الابيض ترغو على زاويتي فمه الذى التوى فبدا كحيوان صغير مسلوخ الجلد ..

الغرفة مضاءة بمصباح يتدلى من السقف الواطىء وعلى الجدار المقابل للسرير صورة كبيرة ، رحت اتأملها بفضول كبير .. كان يبتسم في الصورة والى جانبه وقف رجل صارم التقاطيع ذو نظرات ثاقبة وأنف دقيق ..

حدجتني الام بنظرات ذليلة وهي تنشج بصمت .. ثم تمتمت بحرقة :

ـ لقد رحل قبل سنوات ثلاث ولم يبق منه سوى هذا الالم المتحرك الذى يربطني بالحياة بعد ان فجعت بالصغير .. هذا الذي يبتسم في الصورة .. انه يموت أمامي كل يوم اكثر من مرة . ودون ان اطيق عمل اى شيء .

صمتت قليلا وهي تمسح باصابع مرتعشة دموعها .. واضافت جبرات كسيرة :

ـ أما هذا الصغير الذى تراه في الصورة .. فهو شقيقه الذى .. قتلوه .. وهم يضحكون ..

ـ قتلوه ؟.. لماذا .. وكيف ؟.

ـ كانوا يبحثون عنه بجنون .. وعندما يئسوا من ذلك .. افرغوا حقدهم الاسود على رأس الصغير .. رصاصات ثلاث .. مزقت جمجمته

الهشة .. ولم تجد كل توسلاتي ودموعي وصراخي .. واخيرا ..

لم تطق الكلام بعد واخذ جسدها المنهك يهتز كغصن جاف .. وكنت مصعوقا .. كمن مسه سلك كهربائي .. ودون وعي نشرت الى الصورة الكبيرة :

ـ لماذا لا ترفعينها اذن :

ـ هو لا يدعني افعل ذلك .. بعد لحظة صمت ..

ـ لقد حاولت مرة .. غير انني سرعان ما ندمت بعدها على فعلتي .. فلقد راح يصرخ ويهشم كل ما تقع عليه يده .. ويومها .. لم اعد امسها ابدا ..!

ـ ولكن متى حدث ذلك بالضبط ؟.

رحت التقط بقلب مرتعش كلماتها المتوجعة وشعور بالذنب يغمرني وانا اعذب بقايا انسانة محطمة ..

واخيرا همست بصوت متوجع .

ـ حدث ذلك بعد مغادرتك المدينة باسبوع تقريبا .. أما كيف حدث ذلك .. فلا اطيق ان اصفه لك .. أما هو .. فلقد اخذ يتعذب منذ اللحظة التي سمع فيها بالجريمة البشعة .. انه يعتقد في قرارة نفسه بانه المسوءول عن مقتل الصغير .. و ..

تمتمت وانا اصر على اسناني وكانني اسحق حشرة سامة :

ـ السفلة ...

ـ لعلك تستطيع يا ولدى .. مساعدتي .. فهو يموت أمامي كل يوم مرات عديدة .

همست وانا احاول التخفيف عنها .

ـ أنا طوع يديك ..

اهتز السرير بغتة وانتفض (ك) في وسطه مقهقها بهستيريا .. كان يحرك ذراعيه في جميع الجهات ويردد بهلوسة :

ـ مائة عنكبوت .. مائة فقط .. سوف ترى كيف جمعتها اخيرا .. أنا صياد ماهر .. ماهر .. سيرى اللصوص كيف اصطدت العناكب ..

أين اللصوص .. أين القتلة ؟. اين الصغير .. أين الصغير ..؟

قفز من سريره في حركة جنونية وراح يعدو نحو الحجرة الصغيرة المهملة .. مرت دقائق حرجة . مثيرة . وقبل ان اتحرك من مكاني ، اندفع نحوي بجنون وقد ملأ ثوبه العريض بعشرات العناكب المرتعبة .. افرغها في حركة موتورة على ارضية الحجرة واخذ يحدق فيها بغضب وهي تعدو خائفة .. هنا وهناك .. اتسعت عيناه اكثر فاكثر ثم بدأ يقهقه بفرح طاغ ويردد .

ـ مائة عنكبوت .. يا لسعادتي يا عزيز .. لقد تمت العملية بنجاح .. والان .. الى الجحيم ايتها المخلوقات التتنة .. الان ساسحقكم جميعا .. اه .. اين انت ايها الصغير الجميل .. لترى بعينيك الجميلتين .. نهاية القتلة ..

اندفع بعنف نحو الصورة المعلقة على الجدار فانتزعها في حركة سريعة ، وراحت قدماه تسحقان بقوة وحشية عشرات العناكب المذعورة والتي تحولت في دقائق قليلة الى بقع دبقة وسوائل مختلطة .. وعندما انتهى من سحق اخر عنكبوت .. ضم الصورة الى احضانه في حنان غامر ، واخذ يحدق فيها بين لحظة وخرى وهو يردد بفرح طفولي :

ـ لقد قتلتها جميعا .. والان استطيع ان انام بهدوء ..

رفع رأسه وحدق في تقاطيع امه الحزينة ثم التفت الى مشدوها وصاح بانتشاء :

ـ أنت عزيز اذن .. الم اقل لك بانني صياد ماهر .. ـ ثم مخاطبا امه ـ :

ـ وانت .. يا لك من امرأة رائعة ..

خيم صمت ثقيل .. مرت دقائق طويلة وهو على حالة تلك .. واخيرا هو كجذع شجرة على ارضية الحجرة لتمتزج مع بقايا العناكب المسحوقة .. وراح يرتعش ارتعاشات سريعة عنيفة .. طفا زبد ابيض على زاويتي فمه ، فالتوت شفته السفلى ، وظلت عيناه تحدقان في سقف الحجرة الواطيء .. ثم سكنت في جسده المتخشب .. بقايا الانفاس ..

« هذا الكتاب ، محاولة لتقديم صورة واقعية وشاملة لطبيعة الاتجاهات والتجارب القصصية الجديدة في الأدب العراقي الحديث منذ ثورة الرابع عشر من تموز ، وخاصة تلك التي سادت خلال سنوات العقد الستيني المنصرم .

ويعتمد منهج هذا الكتاب ، لتحقيق هذا الهدف ، على تقديم نماذج قصصية لأبرز كتاب القصة القصيرة الشباب ، تمثل مختلف الملامح التعبيرية والتكنيكية والفكرية ـ الواقعية التجريبية ـ للقصة العراقية ، مع دراستين نقديتين ، كتب الاولى منهما الناقد ياسين النصير ، حاول فيها دراسة واقع الاتجاهات القصصية السائدة في الأدب العراقي ، وكتب الثانية منهما الناقد فاضل ثامر . وحاول فيها تقديم دراسة نقدية تطبيقية للنماذج القصصية المنشودة في هذه المجموعة .

أما أقاصيص هذه المجموعة فهي للقصاصين : محمد خضير ، جليل القيسي ، خضير عبدالأمير ، موسى كريدي ، عبدالرحمن الربيعي ، غازي العبادي ، يوسف الحيدري ، فهد الأسدي ، حميد اللامي ، أحمد خلف ، عبدالستار ناصر ، غانم الدباغ ، محمد عبدالمجيد ، موفق خضر ، سركون بولص ، ومحمد كامل عارف . »

نشر : « مكتبة بغداد » و دار « الطريق الجديد »

ساعدت وزارة الاعلام على نشره

السعر ٢٥٠ فلساً

مصمم الغلاف الفنان « محمد مجيد الصكار »

GENERAL BOOKBINDING CO.
4NY1 318 P 6386
75
QUALITY CONTROL MARK

DATE DUE

OCT 17 1999

NOV 01 1999

OCT 17 1999

APR 17 2007

MAR 24

Printed in USA

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0038577461

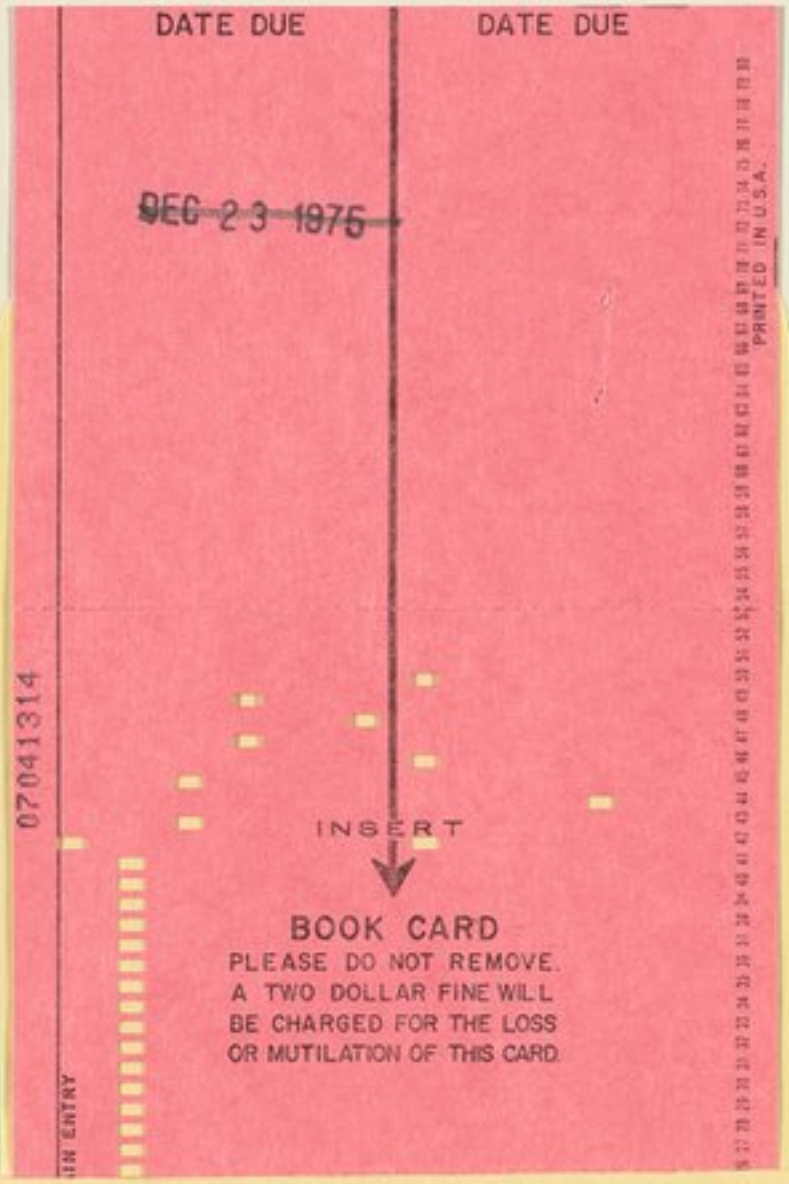

07041314

MAR 2 1976